إِسْبِرَانزا

obeikandl.com

اِسْبِرَانزا

نضال كرم

رواية

obeikandl.com

نضال كرم
اسبرانزا
رقم الإيداع / ٢٥٢٥٥ / تاريخ ٢٠١٥/١١/٢٥
الترقيم الدولي / ٩٧٨ ٩٧٧ ٧٨٤ ٢٨٦ /
لوحة الغلاف / د. عبد الناصر ونوس
تصميم الغلاف / الفنان : أمجد ممدوح بربور
حقوق الطبع محفوظة لدى الناشر
ليليت للنشر والتوزيع
الإشراف العام / إيمان سعيد
هيئة تحرير ومراجعة
د / سالم ابراهيم سالم
أ / رشا زقيرق
أ / محمود السيد
المراسلات : ٦٠ ش سكينة بنت الحسين
كفر عبده – الإسكندرية
ت : ٠١٢٢٤٢٧٢٣٢٧
: ٠١١٤٤٥٩٥٧٥٧
Dar.lilitte@gmail.com
lilittepublishing@gmail.com
www.lilitthpublishinghouse.com

obeikandl.com

إلى ..

دمشق ..

حبيبتي التي اكتفيتُ بها

حتى موطئ الرماد و قبلة الكفن

وإلى .. أخي وائل

نضال

obeikandl.com

obeikandl.com

-1-

على فنجان قهوته، في الزاوية القصية المخصَّصة له والبعيدة عن أعين روُّاد مقهى الروضة، كانتْ تُحدِّثه عن الإرهاصات الممضة التي تُكدّرها كل ليلة قبل النوم فتحيلها فضاءً رحباً للعنةِ شيطان فرَّ من جحيمه ليسكنها .

رنا نحوها بسأم، مَطَّ شفته السفلى مع حركة مِنْ كفِّه في إشارةٍ إلى عدم مبالاته لما تتعرَّضُ له مِنِ انهياراتٍ داخلية مُتتابعة، كما وصفتها .

قبضتْ على حروفٍ من صوتها المعجون باللعنة، لتناكفَ بها صمته الخانق من دون أن تمتلك الجرأة على رفع وتيرة حديثها معه :

- هل من طريقة أتخلَّص بها مما يؤرقني ؟
- لا أعرف .
- هل أراجع الطبيب ؟

أجاب ببلادة صبي :

- لا أعرف .

obeikandl.com

- لو أن هذا حالك، وتدرك أن ما تخفيه في نفسك لن تستطيع البوح به لأحد، ماذا تفعل ؟

يُومئ لها بأنه لا يعرف أيضاً .

حوار يتكرر بينهما دائماً، وغالباً مع فنجان القهوة الصباحي، عندما يكون أثر ما تعاني منه قابعاً في رأسها، وجاثماً فوق صدرها، لكنه في كل مرة لا يُفلِحُ في انتشالها من بئره المظلمة، وبصعوبة بالغة تتابع يومها بالذهاب إلى مقرّ عملها في المستشفى، لينتهي حوارهما إما بصمت أجوف أو بمشاجرة عنيفة تباعد بينهما عدة أيام، ليحدِّدَ ساعة الرجوع إليها، ولتكتشف إذ ذاك أنه غيرُ مُبالٍ بما يمكن أن ينتهي إليه شقاؤها .

كان يُخيَّل إليها أن وجوده مُتَّسمٌ بديمومةٍ تُعزّزُ ذاك الإحساس الخفي لديها بأنَّ كلَّ ما يمرّانِ به من إرهاصاتٍ تؤثّر على علاقتهما معاً، إنما تعترض صفو سماءها كسحابة صيف، وإن افترقا، فالعودة مصير، تحبو إليه ابتساماتها لتبقى مُتمسّكة بما يدعم ذاك الإحساس .

اليوم، يبدو غير معني بسماع شيء منها، عيناه تشيان بالشك، حدَّثتْ نفسها بحنق : " هذا ما تُفلِحُ فيه " رشفتْ آخر ما احتواه فنجان القهوة، وصوت فيروز ينداح في المقهى مع طنين صارخ في أذنيها .

استعادتْ صورتَهُ يومَ تعرَّفتْ إليه في زيارته الأولى للمستشفى، كان مُرافِقاً لصديقه الثري " عُقْبَة " بعد تَعرُّضه لنوبةِ تحرُّكِ حصوة في الكلية، كانت عيناه يومذاك تشيان إلى حد بعيد فوهتي بندقية .

حاز على اهتمامها مُذْ قدَّم لها نفسه شاعراً، وقد برعَ في انتقاء عباراته الدالَّة على رُقيّه واحترامه للمرأة عموماً ولها بشكل خاص، ولما ازداد حرصه على التواصل معها والتقرُّب إليها، تمكَّن من جذبها بصورة غريبة .

كان يستولي عليها شعور مُبهَم بالغمّ إنْ فارقته، ثم يتلاشى فجأة ما إن تراه، ومع مرور الوقت أضحى أقرب شبهاً بالقلق المزعج منه إلى العذاب، لا بل كان طِبْقاً لما تشعر به هو العذاب الحلو، كانت تنتظر اتصاله بها بلهفة و بتوق أبكم، لم يحدث قط أن اتصلت به في بداية تعارفهما، لكنها بالمقابل كانت تطيل النظر إلى هاتفها المحمول .

في مرحلة لاحقة، أدمنتْ رؤيته، سرى كما المخدِّر في عروقها، وفي زمن قياسي استطاع التحكُّم بمفاصل العلاقة التي تربطهما معاً .

لم يكن الفراغ العاطفي سبباً مباشراً في انجذابها الغريب نحوه، كما لم تكن تعاني من شُحٍّ في الصداقات، وعندما لم تجد تفسيراً منطقياً لتعلُّقها الشديد به، أنهتِ الجدلَ الدائر في رأسها ولم تعد تفكر في الأمر، اعتبرتْ أنه إدمان جميل قادر على تغيير نمطية حياة كان من المؤكد أن تمقتها .. لولاه .

أدركتْ أنها إذا ما استسلمتْ لشريط الذكريات فسوف تتأخر عن عملها، أمسكتْ حقيبة يدها و همَّتْ بمغادرة المقهى من دون أن تشيّعها عينا جاد المتَّقدتين أمام فتاة بهيَّة الطلعة ولجتْ المقهى، استوقفها ليطلب منها أن تدفع الحساب قبل خروجها وتضيف عليه ثمن فنجانَي قهوة آخرَين، تأملته بنزق عندما التفتَ مُبتَهِجاً ليعاود التحديق بالفتاة .

حينَ تُشبِعُ جوعكَ بعد وجبة سريعة التهمتها على عجل، وتأتي على مائدةٍ مَفتوحةٍ لك وحدك، لا تَظنَّني فاكهة أو حلوى .. مَوائدُ سُخْطي عَامرة .
بغضبٍ وجدتْ نفسها تلوك الحروف في سرّها وهي تدلف نحو الشارع .

وَجَلٌ، حَيْرةٌ، ارتباكٌ، وانغماسٌ في أتونِ نار الانقباض تكاد تُردي مي صريعةَ القلق .

obeikandl.com

-2-

بعد خروجه من مقهى الروضة، عاد إلى غرفته الحقيرة في داره الصغيرة المبنيَّة منذ زمن بعيد من اللِبن، والتي كانت مُستأجَرة من قبل أهله، تركهم في شقتهم الجديدة واستقلَّ عنهم ليقيم في هذه الدار بحجة انكفائه لكتابة الشعر وفَرْضِ الطقوس التي يريدها .

عاد ليشاطر جدران غرفته الرأي بفوران رجولته المفضية إلى تطويع كل ما يريده، حسبما تأتي به أهواؤه، وبتأثير رجولته المسيطرة وحنكته وما يخفيه عن الآخرين من أدوات يمتلكها في نفسه، فهو المتربّع على عرش سلطان مَرِيد.

مُسترخياً على قطعة إسفنجية في زاوية غرفته، يسحب باستمتاع النَفَس تلو الآخر من النارجيلة، تاركاً لأصابع كفّه اليسرى مداعبة جسد طري لا تقوى صاحبته على معارضته فيما يريد، تشاركه المكان بضع ساعات وتغادر لتحلَّ محلَّها من يريدها فيطلبها، يأمرها فتلبّيه، يعبث بجسدها فتكون بين يديه كقطعة الإسفنج التي تَمتصُّ فيضَ رجولته إنْ لم يُرِدْ قذفَهُ فيمن شاركته المتعة .

نساءٌ لا يمكن له أن يُحصي عددهن، وإنْ بدأ بذلك في سنيّه الأُوَل، ولما لم تعد تتسع صفحات الدفتر الذي خصَّصه لأسمائهن ولأكثر ما كان يميزهن، قذف به

مُتجاوِزاً مرحلة المراهقة، كما اعتبرها، وليتابع رحلته مع أجساد النساء المثيرات والجديرات بإيقاظ كل مطمع له فيهنَّ .

عند الظهيرة ..

تلقَّى اتصالاً من مي فلم يرد، بعثت برسالة نصية تخبره فيها أنها في طريقها إليه، ولأن مصلحته تفرض أن يستجيب لها، فقد أشار لمروة، بعد أن أفرغ شهوته فيها، بضرورة مغادرتها فوراً، استاءتْ مُعبّرةً عن حاجتها للذوبان أكثر في لُجَّةِ أمواج شهوته المتَّقدة على الدوام عندما تكون في حضنه، زفر عميقاً أثناء تَوجُّهه إلى الحمّام، لم تميز إنْ كان قد تبرَّم حنقاً من الاتصال الذي لم يُجِبْ عليه، أم من جرأتها في التعبير عن استيائها .

بعد جولة افتتانه بجمالها وبأنوثتها الغضَّة لم تشأ أن تثير غضبه فارتدتْ ملابسها على عجل، تناهى إلى سمعها صوته مُنبعثاً من الحمام يشتم بؤس حاله بعد أن وجد ثلاجته خاوية، عاد إلى الغرفة ليقرأ محتوى الرسالة النصّية التي وصلته للتو، كان ما يزال عارياً تقطر منه قطرات الماء، رنت إليه تُمعن النظر في صدره الأسمر فأوقد جمر شهوتها من جديد، حاولت الدنو منه لتلمسه، لكن موجة غضب عصفتْ به مُطلِقاً سيل شتائمه ما إنْ قرأ نص الرسالة التي وصلته من شركة الاتصالات تُذكّره بوجوب تسديد الفاتورة، كما أخبرها، لاعِناً حظَّهُ مما يعانيه من عَوْزٍ يرزح تحت سطوته، دسَّتْ بضع أوراق نقدية تحت الوسادة وغمزته ضاحكة بأنها ستعود يوم غدٍ لتتذوَّقَ طعم فحولته، مُحذِّرة إياه ألا يُفرّط بماء رجولته .

ارتدى ملابسه الداخلية ورافقها إلى الباب، وما إن جعل فُرْجَة صغيرة به، حتى عاد ليغلقه هامساً بأنه لمح صاحب الدار مارَّاً في الزقاق، وربما يعود الآن ليطالبه

بمستحقاته من الأجرة وفواتير المياه والكهرباء، رنتْ نحوه والشهوة تكاد تُرجِعها إلى الغرفة، أشار إليها بضرورة مغادرتها فوراً، دلفتْ نحو باب الدار لتقف عند العتبة، مال بجسده نحوها، هدلتْ شفتُها السفلى فتلقَّفها بقُبْلَةٍ سريعة، همستْ له بأنها سوف تُسدّدُ له يوم غدٍ الفواتير المستحقة عليه، رمقها بتحدٍ ثم قال :

- ادخلي بسرعة و ضَعي تحت الوسادة ما يؤكد حرصكِ على أن نلتقي يوم غد .

بغنج قالت له :

- أخبرني أولاً .. مَنْ اتصل بكَ منذ قليل ؟

- ألم أُنهكِ عن التدخُّل فيما لا يَعنيكِ ؟ قلتُ لكِ مراراً : ممنووووع .. مَنْ يتمادى معي ويتدخَّل في شؤوني يُعاقَب بالحرمان .

تمايلتْ بِدِعَةٍ وهي تَدلفُ مرة أخرى إلى الغرفة، غابتْ عن ناظريه بضع ثوان، ولمّا عادتْ حرَّك يديه دون قدميه وكأنه يهرول في المكان في إشارة إلى ضرورة خروجها فوراً .

تركته عند باب الدار واتجهت صوب الحمام، وما إن خرجت ودَّعته وغادرت

دلف إلى غرفته ليخفي ما بقي من آثار لقائه بها، شتم مي وهو يرمي المناديل الورقية في السلّة لاعناً ادّعاءه الكاذب في الانشغال بإرهاصاتها السخيفة، فمُذْ حدَّثته عنها بات يُلاحِقها بها حتى سبقها بمراحل، يذكِّرها بها إنْ نسيتها، وفي غيابها عنه يسخر من سخافتها وينشغلُ بمن يلهثنَ لملاقاته من النساء .

طَرْقٌ خفيف على الباب الخشبي المتهالك، أنصتَ له وهو يخفي ما دسَّته مروة تحت الوسادة، خرج مُهرولاً ليفتح الباب ويستقبلها .

obeikandl.com

اصطدمت مي مع مدير المستشفى، استدعاها إلى مكتبه، قرَّعها بسبب الاتصالات الهاتفية التي تَرِدها بكثرة ليلاً، مما يسبّب تأخُّرِها في إنجاز مهامها، حسب زعمه وما سرَّبته كريستين رئيسة الممرضات، أكَّدتْ له بأنَّ الاتصالات تَرِدُ بعد انتهاء فترة مناوبتها، باحتقار قال لها :

- عامل المقسم أكد شكوى كريستين، وقد اطَّلعتُ شخصياً على توقيت كل مكالمة ومُدَّتها، أنتِ سيدة متزوجة ولا يليقُ بكِ الاستخفاف بما يمكن أن يُعرّضكِ لفضائح تسيء إلى المستشفى أيضاً، سأفرضُ عقوبة إدارية إذا ما تكرَّرتِ الشكوى بحقّك، انصرفي الآن .

أخجلها انكشاف كذبها، وتقريعه لها بهذه الطريقة، كانت تقف أمامه كتلميذة كسولة أوشك أستاذها على معاقبتها بالوقوف بمحاذاة سلّة المهملات ليثيرَ سخرية زميلاتها .

تطوَّر الحديث بينهما، ولما أصرَّتْ على الإنكار، هدَّدها بإصدار قرار فصلها وإنهاء خدمتها، ألقى كلماته في وجهها بكل برود وكأنه لوح ثلج، هكذا بدا لها وجهه خالياً من أي تعبير إنساني، دهمها شعور ضامر بالتقزُّز، خرجت من مكتبه بكل أناقتها وثقل خيبتها، وهي تزفر حنقاً .

أشارتْ لها فاطمة بيدها مُستفسِرة عن الأمر، ضمَّتْ أصابعها الأربع ووجَّهتْ إبهامها نحو الأسفل في إشارة لإخفاقها في إقناعه بمبالغة كريستين وتجنّها .

سارعتْ فاطمة بفتح نافذة خاصة مع مي في برنامج الدردشة الإلكترونية فور جلوسها خلف " الكونتوار " المخصَّص للمُمرّضات، سألتها عمَّا حدث بالضبط، كانت مأخوذة بما ضمَّته إلى صدرها من ملفَّات المرضى، حين قرأتْ ما كتبته لها صديقتها، هوا القلم من يدها فانحنتْ لتلتقطه، ضغطت خطأ على " الماوس " فأغلقتْ نافذة الدردشة المفتوحة بينهما، استقامت ثم ردَّتْ على فاطمة من دون أن تنظر إلى شاشة الكمبيوتر :

- هدَّدني بالفصل من العمل، إنه أشد حُمْقاً من كريستين .

بعد أن أتمَّت كتابة رسالتها، رنتْ إلى شاشة الكمبيوتر لترى بأم عينها كلمات محادثتها غارقة في قهقهةٍ شامتةٍ بها وقد استلقت الحروف على ظهورها وبانت ظلالها متماوجة من شدة الضحك، على صفحة الدردشة العامة كان ذلك، ما يعني أنَّ مدير المستشفى قرأ ما كتبته .

اتسعتْ حدقتا عينها، بحلقتْ في نص الرسالة، استغربت كيف انتقل نص الرسالة إلى الصفحة الرئيسية للدردشة، مالتْ برأسها صوب فاطمة، أحسَّت بحرارة تشعُّ من وجهها، بدأ العرق ينضح من جبينها، ازداد توترها، اضطربت، لابد وأن قرار فصلها سوف يصدر في غضون ساعة، سارعت فاطمة بفتح صفحة دردشة جديدة :

- لماذا كتبتِ على صفحة الدردشة العامة ؟
- ما العمل ؟ .. يا الله كم أنا غبية .
- انتظري .. سأطلب من قُصَيّ أن يحذف رسالتك فوراً قبل أن يقرأها المدير، انظري .. وصل صديقه ودخل غرفة مكتبه، الحمد لله فقد حضر في الوقت المناسب .

- أسرعي أرجوكِ .. إذا ما قرأ الرسالة سوف أُطرد لا محالة .

خرجت مي من وراء " الكونتوار " اتجهت صوب الحمام، ضمَّتْ كفيها أمام ثغرها، تمتمتْ راجية الله أن يتدبَّر قُصَيّ أمر الدردشة ويُسرع في حذف كلماتها، عادت إلى مكانها بعد أن اختلستْ نظرة سريعة على مكتب المدير، ألفته يتحدَّث إلى صديقه وقد جلس إلى جواره وابتعد عن كرسيه .

أسرعت فاطمة تخبرها عبر رسالة جديدة أنها تحدَّثتْ إلى قُصَيّ، و وعدها بأن يبذل جهده في حذف الرسالة، عاودت النظر إلى غرفة مكتب المدير، طلبت منها فاطمة أن تهدأ وتُجري اتصالاً مع قُصَيّ لكي تستعجله .

أمسكت سماعة الهاتف بيدٍ ترتجف خيفة، أجابها ببروده المعهود :

- أجري تحديثاً لصفحة الدردشة على جهازك .

ضغطت Enter فلم تعد ترى نص رسالتها، تابع :

- يجب أن تدخلي الآن إلى غرفة السيد المدير وتغلقي برنامج الدردشة على جهازه وإلا سيقرأ نصَّ رسالتك .
- اووووف كيف لي أن أدخل غرفة مكتبه ؟
- انهزي فرصة خروجه مع صديقه حين يُودِّعه وتسلَّلي فوراً، نفِّذي ما قلتُ لكِ .

غادرت مكانها فور خروجهما معاً، أمسكت فنجان القهوة مُتظاهِرةً بأنها تتجه صوب الحمام، وما إن اختفى حتى ولجت غرفته ذات الجدران الزجاجية، دنت من جهاز الكمبيوتر المحمول وأغلقت برنامج الدردشة، خَطَتْ نحو مكان جلوسها ونظرها ثابت في الأرض، لم تكن لتحتمل أن تراه وقد كشف دخولها إلى غرفة مكتبه، رنت نحو فاطمة بسرعة فوجدتها ترفع لها يدها وهي تبتسم بفرح .

عاد المدير ولم يحرّك ساكناً بعد أن جلس ليتابع عمله، تأكدتْ إذ ذاك أنَّ ظِلَّ المشكلة قد مرَّ من دون أن يترك أثراً كارثياً عليها .

قبل أن تخرج من المستشفى أجرت اتصالاً بجاد لكنه لم يرد، أرسلت تخبره بأنها في طريقها إليه .

obeikandl.com

-4-

لم تكن مي هي من طرق الباب، فقد خالف مُلهَم قواعد الزيارة لأمرٍ اعتبره مُبرّراً قوياً لهذا الخرق، قَدِمَ مُستبشراً بعد زيارة قام بها لإحدى الشخصيات المهمة في البلد، قدَّم له قصيدة يمتدحه فيها، بعدما طبعها على ورق مصقول بمقاس 40 /80 سم، واختار لها إطاراً مُذهَّباً، أملاً بأن يستفيد منه لاحقاً، سخر جاد قائلاً :

- حتى لو كنتَ المهلهل بشِعْرِه، لن تجد صدىً طيباً لدى أحدٍ ما دمتَ تشبهه بهذه الهيئة، تعال ودقِّقْ قصيدتي الجديدة أفضل لك

بحماس بادره ملهم قائلاً :

- انظر، مجيئي الآن ليس لإخبارك بأمر الزيارة فقط، ما رأيك أن تصدر ديواناً شعرياً جديداً تتناول فيه قصص القرآن الكريم ؟ إنْ حقَّقتَ ذلك فسوف تحصد شهرة واسعة، إذ لم يسبق لشاعر أن تناول هذا الموضوع .

برقتْ عينا جاد وابتسم بمكر، أعجبته الفكرة، تناهى إليه طرقاً خجولاً على الباب، هبَّ واقفاً وهو يقول :

- انتظر، وصلتْ مي، سأصرفها فوراً لنناقش فكرتك أيها الديوث .

غرغر مُلهَم بضحكة مُجلجلة قطعتها نوبة سعال جاف، أتبعها بخرخرة وقحة، كما وصفها جاد، باصقاً البلغم المتجمّع في فمه، تراقص جاد فرحاً أثناء توجهه ليفتح الباب لهي، دفق أسئلته في وجهها :

- ما الذي تحملينه في هذه الأكياس ؟ هل من مستجدات على تهديد مدير المستشفى ؟ متى يكون المبلغ الذي طلبتُهُ منكِ مُتوفِّراً ؟ .. ثم أخبريني هل مازال الأرق يقضُّ مضجعك أم ولَّى هارباً منكِ ؟

وجَّهها بيده نحو الغرفة الأخرى التي لم تدخل إليها مُسبقاً، استغرب انحيازها إلى الصمت آنَ دلفت إلى الغرفة القذرة، راحتْ تتفحَّصها بذهول، خالتْ أنَّ المرء بوسعه أنْ يدرك معنى الفوضى الخلاقة إذا ما جالَ ببصره هنا .

" شِعْرٌ يُولَدُ وسط القذارة ! " . حدَّثتْ نفسها .

قشور الفاكهة وأعقاب السجائر رُميتْ على أرضيتها الخشنة بصورة مُقزّزة، غبارٌ كثيف غطَّى أغلفةَ الكتب المتناثرة، أوراقٌ مُبعثرة هنا وهناك، ثيابٌ قذرة مُلقاة على الأرض وفي أكياس مفتوحة .

دهمتها نوبة عطاس، كان جاد يرنو إليها مُكشّراً وقد أدرك ما الذي يعتمل في داخلها، رمقته بذات النظرة التي قاستْ بها منسوب القبح المنتشر في الغرفة، أمعنتْ فيما يرتديه فاشمئزَّتْ، جلابية رثة قذرة يكاد أبيضها يختفي من توزُّع البقع المصفرَّة والشقوق التي تُظهِرُ أجزاء صغيرة من جسده، تمايلتْ في وقفتها، امتنعتْ عن الجلوس ما إنْ تناهى إلى سمعها نوبة سُعال عنيفة قادمة من الغرفة الأخرى، تردَّدتْ في قول ما تريد، تبرَّم جاد من تَردُّدِها فقالت وقد استحال عليها التنبؤ بمزاجه الحالي :

- لن أجلس هنا، سأقول ما لدي وأخرج فوراً، يجب أن أحضر أحمد من بيت جدّه، اسمع جاد ..

أراد أن يساومها في نظراتها، أخذ يمسح شعره السرح الطويل الذي يقطر دهناً بيده الملوثة بمعسّل النارجيلة .. قاطعها بتعالٍ :

- ما الأمر ؟ ليس لدي الوقت الكافي لأتابع نظرات القَرف المصوَّبة من عينيكِ .
- جاد .. جئت إليك الآن كيما أحذّرك من مخاطر عبثك بشؤون عملي في المستشفى، يجب أن توقف اتصالاتك الليلية المتكررة بي، المدير مُستاءٌ جداً منّي وقد هدَّدني بالفصل، يبدو أنك غير مهتم بما يجرُّ ذلك من تبعات، سوف يتسبَّب لي بفضيحة مدوّية، حينئذ، ستكون المصيبة أكبر من مسألة عدم تأمين المبلغ الذي طلبتَه مني، وأنت تدرك ما معنى ذلك .

ببرود، قال :

- مَنْ أخبره ؟ وما علاقته ابن الحرام إذا ما تحدّثتِ مع أحد عبر الهاتف في أوقات فراغك ؟ ثم انتظري قليلاً ..

لاحتْ نظرة شكٍّ في عينيّ جاد، فأتبع قائلاً :

- هل تتحدَّثين مع أحد غيري ؟ أخبرتِني فيما مضى أنه .. .. لا يتصل بك عندما تكونين في المستشفى .

- ما الذي تتفوَّه به ؟ وهل ما بيننا يُلزِمُني بالامتناع عن التحدُّث مع أحد غيرك ؟! هم دقَّقوا في اتصالاتك المتكررة لي من ذات الرقم، وهذا ما استدعى تنبيهي .

حدَّجها بازدراء وقد علتْ رأسه غيوم الشك، قال بصوت يقطر احتقاراً :

- لم تجيبي على سؤالي .

زفرت حنقاً من تشبثه بظنه الخاطئ وأجابته :

- جاد، ما حالك اليوم ؟ ما تفوَّهتُ به الآن يؤكد أنك الوحيد الذي تتصل بي .
- ومتى سيكون المبلغ متوفراً ؟

ران الصمت بينهما للحظات، جالتْ بعينيها على المكان من جديد، لمستْ جبينها بأصابع متوترة، قالت :

- غداً إن شاء الله، أرجوك التزم بما قلته لك ولنتحدث عبر WhatsApp أفضل .
- طيب .. انصرفي الآن .
- أرجوك، علاقتي بك تقتضي اتقاء الوقوع بأية مشكلة، ولا أريد أن أخسر عملي .

أشار بيده نحو الخارج لتسبقه في الخروج، وهو يقول :

- فهمت، لستُ غبياً .. اذهبي الآن، فأنا مشغول مع مُلهَم .

ما إنْ خطتْ بضع خطوات، حتى سُمِعَ طَرْقٌ عنيفٌ على باب الدار، تَسمَّرتْ في مكانها فَزَعاً، تراجعتْ قليلاً إلى الوراء، عيناها ترقبان الباب لا تحيدان عنه، خُيّل إليها أن أناساً أشراراً يَخبُّون من كل جانب .

سارع جاد بفتح الباب ليصطدم بوجه رجل مُسنّ انبرى يُهدِّدُه ويشتمه مُتَّهماً إياه بالنصب والاحتيال، وقف جاد عند العتبة مُمسِكاً بطرف الباب، تاركاً فُرجةً صغيرة، حاول تهدئة الرجل ووعده بأن تكون معاملته منتهية يوم غدٍ .

خرج ملهم على الفور، تجاوز مي مُتجهاً نحو جاد الذي منعه من الوقوف إلى جانبه فنحَّاه إلى الداخل، شدَّ الباب بقوة حتى كادت القبضة الداخلية تنخلع، بعد لحظات غاب الرجل ولمَّا يزل يتوعَّدُ جاد بالويل والثبور .

انداحت تعليقات ساخرة من المتحلّقين أمام باب الدار تموج بتحقير سفيه، ما زاد في توتر الأجواء والنقمة على جاد، ترافق ذلك مع مرور بائع متجول وقد أطلق من آلة التسجيل أغنية " طير وفرقع يا بوشار " .

خرجت مي بعد أن انفضَّ الجمع، وهي في حالة ذهول واستياء تُداري نظرها عن كل من كان في الزقاق .

عاد جاد مُهرولاً، رافعاً أطراف جلابيته إلى خصره وراح يتراقص أمام ملهم، قفز وحطَّ بجسده على الحصيرة القذرة، اتفقا سريعاً على بقائهما في البيت أسبوعاً كاملاً لتنفيذ فكرة الديوان الجديد، وما إنْ بدأ مُلهم بقراءة القصيدة التي نَظَمَها جاد ليلاً حتى هبَّ يعاركه ويعضُّه مِنْ كَتفه ويشدّه من خصلات شعره الطويلة، استغرق جاد بالضحك مُحاولاً تفادي ضرباته المتلاحقة بيديه وقدميه، انتزع نفسه منه وابتعد يقلّب الأوراق بين يديه .

لم يقبل جاد بالهزيمة المزدوجة، فعاد لمعاركته بعد أن أوضح له ملهم أخطاءه، وفي خضم عبثهما، أشار جاد بيده طالباً منه التوقف، حرَّك رأسه وهو يستنشق رائحةً قادمةً من الغرفة الأخرى، انتفضَ واقفاً وغاب بضع لحظات، عاد مُحتضِناً الأكياس التي أحضرتها مي وقد طغتْ رائحة اللحم المشوي، استنفر مُلهم في جلسته وهو يفرك باطن كفّيه استعداداً لالتهام الطعام، قال :

- يا وليَّ الخير لا تبخلْ على الناس بخيرك

فالرَّدى خوَّلكَ المال الذي كـان لـغيركْ
وهو في استرجاعِ ما ولَّاكَ سيَّارٌ كسيركْ

لماذا لا تعرّفني على " إحداهن " لأتنعَّم أيضاً، ألستُ صديقك ؟

- لأنك صديقي فها أنت تشاركني بما تجود به الحسناوات، كُلْ، كُلْ قبل أن ألتهم كل ما في الكيس .
- ما الذي دفع الرجل المسن للتهجُّم عليك ؟ وما المعاملة التي يطلب إنهاءها ؟
- لا شأن لك بذلك .

طقطق مُلهم بلسانه ببهجة وكأن الرائحة وحدها خلَّفتْ مَذاقاً حلواً في فمه، وما إن همَّا بالتهام الطعام، رنَّ جرس الهاتف، شتم جاد حظه :

- نعم .. لستُ بحاجة طعامكم .. لا ترسلي أحداً لمدة أسبوع كامل .. سأتفرَّغُ لكتابة ديوان شعري وسيقيم عندي صديقي ملهم .. كفاكِ ثرثرة .. باي .
- من تكون ؟
- أمي، لا تتفوَّه بكلمة، كُل و اسكت .

أمسك بفخذ الدجاجة يأكلها بشراهة وهو يقول :

- امممم كم أعشق الأفخاذ يا ملهم .

ضحك فبانت نواجذه والطعام في فمه :

- أنا أعشق المؤخرة .
- أيها المأفون، مؤخرة الدجاج فقط أم م م م م ؟
- دَعْ عنكَ لَوْمي فإنَّ اللومَ إغراءُ و داوِني بالتي كانتْ هي الداءُ

Obeikandl.com

وَصْلَةٌ مِنْ قَهقهةٍ ماجنةٍ سَرَتْ بينهما، كاد ملهم يختنق من الضحك، ترافق ضحكه مع كُحّة قوية فعاجله جاد بكأس من الماء وهو يقول :

- لا تَمُت الآن .. انتظر حتى ننهي الديوان الجديد .

أخذ نَفَساً طويلاً، خمد كل شيء فيه، راح يمسح ما تناثر من لعابه وقد بدا أكثر جدية، تعمَّد تغيير الموضوع فقال :

- جاد، من المفيد أن يُجريَ أحدهم حواراً صحافياً معك ليُنشر في إحدى الصحف أو المجلات، يجب أن تتحدَّث عن ديوانك القادم .
- أعلم .. أعلم، لا تقلق، بمجرد أن ننتهي من الديوان سأكون ضيفاً على الفضائية السورية لأتحدَّث عنه وعن الشعر الصوفي الذي أنظمه .
- تنظمه ؟!! .

عبس جاد وهو يلملم بقايا الطعام ويقذفها في فمه، أجاب :

- قُمْ أيها الديوث، ستلتهمني بعد قليل، يجب أن نبدأ العمل .

عاود جاد الاتصال ليلاً بالمستشفى طالباً التحدُّث مع مي، وما إن سمعت صوته حتى سارعت تطلب منه محادثتها عبر WhatsApp وقبل أن ينطق بحرف فُصِلَ الخط فعاود الاتصال مباشرة، بادر عامل المقسم بالاعتذار طالباً منه عدم معاودة الاتصال بناء على توجيهات مدير المستشفى .

اعتبر جاد أنَّ في الأمر وقاحة لا يمكن السكوت عنها، عاود الاتصال بعد نصف ساعة ليطلب التحدُّث مع المدير وقد غيَّر طبقة صوته، وما إنْ ردَّ، حتى انهال عليه بأقذع الشتائم مُهدِّداً إياه بإغلاق المستشفى وخَتْمِها بالشمع الأحمر، كان مُلهَم يُحدِّقُ في وجهه بذهول، أطبق السماعة وعاد إلى هدوئه فوراً كأن رياح الغضب لم تعصف به، قال ملهم :

- كيف تجرأت وهدَّدته ؟ من يكون وراءك يا ولد ومن تظن نفسك ؟

- أنت لا تعرفني بعد، لا أسمح لـ" ابن مرا " أن يقف في وجهي .

تناول سماعة الهاتف مُجدَّداً، أمسكه مُلهَم من معصمه ظاناً أنه يريد بدء جولة جديدة من السباب والشتائم، انتزع جاد السماعة من يده وشرع يحدِّث صديقه، طالباً منه التصرُّف إزاء تطاول مدير المستشفى عليه .

بعد حوالي ساعة وصلته رسالة من مي عبر WhatsApp تخبره فيها أنه استدعاها ليخبرها بصرف النظر عن العقوبة التي كان ينوي فرضها على أن تتعهد بعدم تكرار المخالفة مرة أخرى، ختمت رسالتها بسؤاله عما فعله لكي ينتهي الموضوع على هذا النحو .

قهقه وهو يرد على رسالتها :

" لا عليكِ أنتِ، ولا تنسي المبلغ "

كان مُلهَم مُندهِشاً يشتم حظه العاثر الذي يُبعِدُ أصحاب النفوذ عنه، رمى جاد جهاز المحمول من يده وهو يقهقه ويقول :

- أنت ؟!! أيها المعتوه، التفتْ الآن إلى قصص القرآن، وسأخبرك بالسر لاحقاً .

حلَّ الفجر، وقد انتهى مُلهَم من نَظْمِ خمس قصائد من الديوان الجديد .

في نهار اليوم نفسه زارته مي ودسَّتْ المبلغ الذي طلبه تحت الوسادة، بعد قليل لمح جاد صديقه يخرج من الدار وهو يتحاشى النظر إلى مكان جلوسهما، لحق به مُستفسراً عن سبب خروجه، تأتأ وهو يهمس له :

" ربما يشتد عصف الشهوة بك فتلعن الساعة التي قدمتُ فيها إلى دارك "

أفلتَ ضحكة هستيرية ثم أشار إلى صديقه الواقف عند عتبة الدار بالدخول، تصادف ذلك مع مرور رجل مُسنّ، حوقل وبسمل وضرب كفًّاً بكف وهو يهمُّ بالدخول إلى الجامع المحاذي للدار، رمقه جاد بنظرة كادت تقطعه نصفين وانبرى يصرخ بملء صوته :

" تكبير .. تكبير "

obeikandl.com

obeikandl.com

-5-

تحاول مي قدر الإمكان الابتعاد عن التفكير بما يُرهِصها، تنشغل خلال ساعات نهارها بشؤون المرضى وبتقديم الخدمات الصحية لهم، وعلى الرغم من معرفتها بالكثير من الأطباء الاختصاصيين بحكم عملها بيد أنها لم تجرؤ على استشارة أحدهم، خشية كشف ما تحرص على سرّيته، فهي تدرك أن البحث فيمَ يُرهِقُها لن يقتصر على الأسئلة العامة، لابد من اقتحام حيز الخصوصيات المثلى في حياتها، وهذا ما كانت تُصرُ على رفضه .

أسرَّتْ لجاد بما تعاني منه، أفضتْ له بتفاصيل علاقتها بزوجها الغائب عنها جُلَّ الأوقات، إلا أن بوحها لم يكن يعنيه في شيء، إذ كان يقابله في كل مرة ببرود مُتعمَّد .

في إحدى زياراتها له، وأثناء قيامهما بترتيب أوراقه وكتبه، عثرت على كُتيِّبٍ صغير خاص بالسحر، ولما سألته عن سبب احتفاظه به، أجابها بتلقائية مَزَجها بضحكة ساخرة، بأن الكتيب له، ولما أبدتْ الدهشة الساخرة نفسها التي أبداها، تراجع عن قوله، مُستغرباً بذات الوقت تصديقها لكل ما يتفوَّه به، ناكراً أن يكون هذا الكُتيِّب له، مِنَ دونِ أنْ يُخبرَها عمَّن يكون صاحبه الفعلي وعن سبب احتفاظه

به، سرعان ما التفتَ ليُلقي على مسامعها قصيدة له كيما يصرفها عن التفكير في الموضوع .

مع مرور الوقت، أمستْ تجالس مُلهَم في داره، لفتَ نظرها إلى أمرين خطيرين يرتبطان بسلوكيات جاد، حيث تحدَّث عن انقسامٍ مُلفِتٍ لمن كان على معرفةٍ به، فإما المحب المغالي، أو الكاره المتعالي، والغريب في الأمر أن يكون مُنتفعاً مُستغِلاً من أحبَّهُ، ومُبغِضاً مُتجنّباً من ليس له أية مصلحة معه، وكل من يكون بصحبته فهو تابع له، مرحلي، يمضي بعد مدة ليحلَّ غيره فيشغل مكانه، كان يتخلَّى عنه بسهولة ما إنْ يرى أنَّ الخطوة التالية ستحقّق له نقلة نحو الأمام، لذا فهو يعتبر الآخر مجرد مَدَاس له على طريق يُمهّده لكي يقتنص من الحياة ما يُشبعه من مباهجها وينسيه عوزه المستبد

ذكَّرها أيضاً بالرجل المُسنّ الذي تَهجَّم عليه منذ أيام، فأسرَّ لها بأن هناك الكثير غيره ممن احتال علهم وخدعهم، رمقها بنظرة ذات مغزى إثر ما أخبرها به على عجل مستفسراً :

- ما سرِّ تَحمُّلك دناءته رغم كل ما تشهدين منه ؟

كان جاد حينها مُتوارياً في الغرفة الأخرى يتحدَّث إلى إحداهن، لم تتمكَّن من ردِّ السؤال ذاته له، فقد حال حضوره بغتة دون ذلك .

- كنتُ أعتقد أنكَ مسحورٌ بأشعارهم .

همَّ ملهم بإجابة مي من دون أن يعرف شعر من تقصد، فقاطعه جاد :

- عمَّ تتحدثان ؟

سارعت مي تقول :

- عن شعر المكزون السنجاري والمنتجب العاني .

فغر فاه تَعجُّباً وقال :

- ألستَ مسحوراً بشعرهما أيها الكاذب ؟

- أجل، ولكن ليس إلى حد التأثر أو التقليد .

- وما شأن الإعجاب الشديد بالتقليد ؟ هل يمكن مثلاً أن يتهمّني أحد ما بأنني أُقلّدك ؟

- حين أكون يا صاحبي بمصاف المكزون والمنتجب، فليتَّهموك بما يشاؤون .

استلقى جاد على الفراش، غمزه لكي يخرج من الغرفة، وهو يقول له :

- ليتهم يتَّهمونَكَ بالإنسانية، اسكتْ .. اسكتْ .

انشغل ملهم سريعاً يبحث عن كتاب بين رفوف المكتبة، سأله عمّا يبحث عنه، ولما أخبره، أشار إليه أن ديوان الحلاج في الغرفة الأخرى، همَّ بالخروج فاستوقفه طالباً منه أن يغلق الباب وراءه .

دنتْ منه، اتكأتْ فوق جسده الممدد، نظر إلى ثديها النافرين الصلبين، وهو يتحلَّبُ شهوةً لامتصاصهما، توهَّج وجهه برائحتها التي تشبه رائحة الكستناء المشوي، أقبلَ على جسدها يُوغل في استنشاق رائحته و زنده يحتوي عنقها،

عيناهُ تجوبان نقاط التماس شهوته بمفاتنها، ضمَّها بقوة وأدخل أصابع كفّه اليمنى ضاغطاً ما بين ساقيها، كانت تلبس فستاناً قرمزياً محسوراً فوق الركبتين، أوغل في صدرها فامتلك الثدي، لحمها تحت يده الأخرى، أطلق جمره في رمادها، قاومتْ عنفه، خَطْفَاً قبَّلته ماصَّةً شفته وسرعان ما تخلَّصت منها، نهضتْ لتطلَّ من عينيها شراسة لبوة، همستْ :

- انهضْ، نسينا أن ملهم هنا .
- اللعنة عليه وعلى زوجك .
- زوجي ؟!! أفلتتْ ضحكة ساخرة
- حرام أن تكوني له، يجب أن تكوني لي فقط .
- اطمئن، أما قلتُ لك بأنه هجر مخدعي منذ أكثر من سنة، ألم تتساءل لِمَ أكون معكَ حارَّة إلى هذا الحد ؟!

تمايلتْ غُنْجاً واستطردت قائلة بدلال :

- أخاتلُ هرباً منه لأكون بين يديك .

كانت علاقتها به تثير حفيظة صديقتها فاطمة، إذ اعتبرت أنها فقدتْ صوابها وكَثُرَتْ عذاباتها مُذْ تعرَّفتْ إليه .

إرهاصاتٌ تبدأ بجاد ولا تنتهي عنده، فهو، وفق ما تراه فاطمة، لعنةٌ تَسبَّبتْ لها بخُسرانٍ أكيد، وتخشى أن يكون القادم معه أعظم .

obeikandl.com

رغم كل الانتقادات، وجدتْ نفسها تستعذب ذاك العذاب الحلو، على الرغم من شجارها المتواصل معه على تفاصيل صغيرة وباهتة، لكنها أرجعتْ تَعلُّقها به إلى أنها تعتبره المُتنفَّس الوحيد لها، فقد استطاع أن يبعدها عمَّا قيَّدت به نفسها بزواجها الفاشل، قيودٌ أحكمتِ الطوقَ على مجمل حياتها، وحين أرادتْ أن تكسر الطوق الآسر اختارتْ أن تكون معه، و له .

ما اعتبرته يوماً من ضمن ما يحكم حياتها من قيود أرهقتها، ولم تكن تفكر فيمَ يجعلها تحتمل قسوته، رغم البون الشاسع بينهما، برَّرتْ لنفسها ولفاطمة، بأنَّ الإنسان في بعض الأحيان يهوى نقيضه، أما صديقتها، فقد اعتبرت أنها تسير وراءه وقد فقدتْ بصيرتها، عندما حَدَّثتها عن كُتيّب السحر الذي وجدته بين كتبه وأوراقه، فاجأتها فاطمة بردّها :

- ثمة أشياء ندعها تسيطر علينا بإرادتنا، نسيءُ إلى أنفسنا بها وبغيرها، وإذا ما حاولنا تلطيفها بعد أن يصيبنا الضرر منها، تَرانا نَستجلبُ أيَّ عذر أو مبرّر لنخفي حماقاتنا، مي .. إن استسلمتِ لهذه الأفكار ستكونين قريباً مجرد " روبوت " في يد ذلك المأفون .

لم تُنكر أنها تزدادُ تَعلُّقاً به، ولم تَتخلَّص بعدُ من إرهاصاتها اللعينة .

كثيراً ما عبَّرتْ لها عن استغرابها بأنَّ الأرق لا ينقضُّ عليها إلا عندما تكون في بيتها، وكأنه يغزوها ليذكّرها بما ترتكبه من حماقات وخطايا بحق من يشاركونها الحياة، سخرت فاطمة قائلة :

- لأنك لا تنامين هنا في المستشفى، الوقت يمر وأنت تهتمين بالمرضى، أنتِ هنا الأرق ذاته، لكن في الحقيقة، وجود جاد في حياتك أشدُّ سوءاً مما تعانين منه، ألم يحن الوقت كي تكتشفي ذلك ؟!

لقد مضتْ بها الأيام وتأثير طاقته السلبية يزداد يوماً بعد يوم، حتى أمستْ خاضعةً لسلطانه، تأتمرُ بأوامره، تنصاعُ لرغباته، وتحقق له ما يريد، الأمر الذي أبعد فاطمة في مرحلة لاحقة عن الخوض بأيّ حديث قد يثير نزقها ويستفزّها .

رغم معرفتها بعلاقاته المتعددة مع النساء، لم تستطع منه فكاكاً، حافظت على علاقتها به كما تحافظ على زواجها الباهت، خيوط تحكم علاقاتها بمن هم حولها، لكن، وحسب وصف فاطمة، كل الخيوط واهنة إن لم يكن أساسُ المعرفةِ إرادة المعرفة، لا جهل أو انقياد أعمى .

وأمام كل ما يثير الجدل ويُعمّقه، أراحتْ نفسها بأنِ اعتبرتْ عملَها في المستشفى هو الضامن الوحيد لحياتها، بغضّ النظر عن كل ما من شأنه أن يؤثر على حياتها مع زوجها وطفلها أحمد، أو مع جاد .

كثيراً ما كان يرمي غَزَلاً وقحاً أثناء سيرهما معاً في الحارات الدمشقية القديمة، لدى رؤيته السيدات الجميلات، كان مولع بالنساء بشكل هستيري، لكن، لم تكن تعجبها علاقاته غير التقليدية بأصدقائه، فالرجال منهم كانوا إمّعات، والنساء داهيات مُجرَّدات من الحشمة .

عندما زارا مؤخراً صالة للفن التشكيلي، أشار إلى لوحة أعجبته، اعتبرتها مي تقليدية وتخلو من أية قيمة فنية، في حين كانت الفنانة فاحشة الثراء، وقد أسرَّتْ له برأيها هذا، فانبرى يقول :

- ما أعجبني في اللوحة جمال اسمها وطريقة توقيعها على اللوحة .

بسط يده باتجاه اسم الرسامة وبتفخيم وتعظيم أردف قائلاً :

- " آديت " .. انظري إلى الاسم كم هو جميل كصاحبته، تعالي .. لنعرّجَ الآن ونحيّيها .

لما اقتربا منها، أجرتْ عيناه مسحاً شاملاً لجسدها البض، أغدقَ بالمديح على اللوحة، ابتسمت، سألته عما أعجبه فيها، تمتم قائلاً :

- توقيعُكِ، إنه فائق الجمال والإتقان .

ضحكتْ، كان جليَّاً أنها لن تُضيعَ الوقت معه، إذ قالت :

- لا أقبلُ بهذا الإطراء ..

- لكن ..

ابتعدتْ عنه مُعتذرة لتستقبل ثلَّة من أصدقائها، وقد تحلَّقوا حول شاب يبدو أنه أجنبي، كانت تتنقَّل بين المدعوين هادئة مرحة، كان جاد يتابع تحركاتها ضمن الصالة، كانت تنعطف بخفة بين الزائرين، لم يتوقف ذهنه لحظة عن التفكير بها، يتنفس بعمق رائحتها حين تقترب منه، يُمتّع عينيه بالجمال الأنثوي الذي يترك فيه إحساساً لذيذاً مثيراً، تَخيَّلها عارية يضوع عطرها على فراشه وفي أرجاء غرفته، قاس جمالها كما يتراءى له الآن مع جمالها وهي تشاركه متعة ممارسة الحب .

أثناء حديثه المقتضب معها، أُتيحَ لمي أن تتفحَّصها، لم تجد جمالها أخَّاذاً، كانت عيناها قاسيتين، وبشرة وجهها جافة وشاحبة، انتابها شعور بالضيق، أرادت المغادرة فوراً لكنَّه أصرَّ على البقاء ليطلب رقم هاتفها بحجة اختيار لوحة لغلاف ديوانه القادم، تركته وغادرت " الغاليري " .

لم تستطع رؤيته وهو يرمي بالنفاق ليكون فتاتاً رخيصاً، ثمة حقد أسود ينتشر .

obeikandl.com

" أنشَـطِرُ شِـعْراً في بيـتٍ يُخـيِّمُ عَليـهِ جنـونُ القصـيدة، راقَـتْ لي عبثيَّتي فنسـجتُها سـتارةَ بـوحٍ أسـدلتُها على أسـراري، ناكَـدتُ بَـرْدي بـدفءِ الـريحِ القادمـةِ مِـنْ شَـطْرِ البيتِ الأول لعَصْفِ جنوني، حاوَرَتْني بشَـطْرِ عَينيها المُستلقي على سَريرِ ما أعدَّتْهُ لي من غواية، نسيتُ ما هيأتهُ مِنْ عِطْرٍ يَليقُ بها، فانتشى سِرُّ الكلمة، فرَّ هارباً مني.

في خَميلةِ العينينِ أودعتُ شَهْوتي لقصيدةٍ مُؤجَّلَة، ارتكبتُ جملةً سالَ منها دَمٌ أُرجواني جنونيّ النظرة، سألتني البُقعةُ عَنْ الذَنْبِ فما نَطقتُ، بَكَتْني حينَ غفلتُ لحظةَ أُريقَ دَمْعُ السؤال، أيُّ جوابٍ أصنعُ به عُذْراً مَمجوجاً لصِدْقٍ باتَ بَاباً مُقْفَلاً على شُبْهَة ؟! سارتِ القصيدةُ مَعَ ظِلّي مُحْتَضِنَةً كتفَه كيما أشعرُ أنا .. بالأمان في حاراتِ الحواس " .

أنهى قراءة النص بسرعةٍ أذهلتِ الشاب الذي يعمل فني صوت لدى الفضائية التي سعى لاستضافته فيها ببرنامج ثقافي لتسليط الضوء على تجربته الشعرية، وللحديث عن ديوانه الجديد، أعاد الورقة بيدٍ مرتجفة، جمدت النظرة في عينيه، زفر بعمق ثم قال بتعالٍ وكبرياء مُصطَنع :

– هذا ليس بشعر، يجب أن تقرأ الكثير لكي تُحسِنَ نظم الشعر وكتابته

فغر الشاب فاهه مُندهشاً، كان كل من قرأ قصيدته سابقاً قد أبدى إعجابه فيها، بحلَقَ في عيني جاد وقال :

- أحقاً ما تقول ؟!!
- أجل، لماذا تبدو مُستغرباً ؟ هل أثنى أحد ما عليها ؟
- هاااا .. لا، لا .. لم يقرأها أحدٌ بعد، سألتفتُ إذن لعملي، وفي أوقات فراغي أشذّبُ الياسمينةَ التي زرعتُها في أرض الدار، على كل حال أشكرك أستاذ .

نهض الشاب بعزم، التفت جاد نحوه يسأله :

- لدي ياسمينة زرعتها في حديقة بيتي، ولم تزهر أبداً، ما السبب برأيك ؟

انفتل قبل خروجه من الغرفة، رمقه بنظرة باردة وقال :

- الياسمين .. لا ينبتُ في تُربةٍ يخالطها الإثم يا .. أستاذ .

عندما حان موعد تسجيل الحلقة بدا جاد مُنفعِلاً ومُرتَبِكاً، ما دفع المذيعة لملاطفته قليلاً، استؤنف التسجيل بعد قليل فانبرى يتحدَّث بإيجاز عن جنوحه إلى نَظْمِ الشعر الصوفي بعد بدايات شعرية لاقتْ تشجيعاً من قبل العائلة التي اهتمَّتْ به و رعتْ موهبته الشعرية، وقد استفاض في الحديث عن البدايات، وجدت المذيعة إذ ذاك محوراً يمكن أن يتحدَّث فيه بطلاقة، مُعتبرة أنه ما يزال يخوض في البدايات، ضاربة بعرض الحائط ما هيأه فريق الإعداد .

استعرض المخرج ضمن محاور اللقاء رأياً لناقدٍ أكاديمي معروف، وقد بدا خلال الفقرة غير مُطَّلع على تجربة جاد الشعرية، أخطأ في ذكر اسمه ثم صحَّحهُ، وكأنَّ شخصاً من كادر الإعداد قد لفتَ نظره إلى ذلك، ما لبث أن تناول الكتاب بيده وراح يُقلِّب صفحاته ويختار النصوص القصيرة ليقول فيها نقداً عاماً .

اعترض جاد بشدة على اختيار ناقد غير معروف، ما أثار حفيظة المخرج إزاء جهله به، فهو من الناقدين المعروفين والمتمكِّنين، وقد تمَّت استضافته في هذا المحور تكريماً له بعد أن تلقَّى توصية به .

لم يعِ أهمية أن يظهر هذا الناقد في قراءة نقدية خاصة بشعره، وإن بدتْ سريعة، أصرَّ على موقفه مؤكِّداً استبعاد هذه الفقرة، ولم يهدئ إلا عندما تلقَّى وعداً بذلك، لكن المخرج لم يفِ بوعده .

قبل مغادرته الاستديو، تقدَّم منه الشاب، دسَّ ورقة في يده طالباً منه أن يقرأها بعد خروجه من مبنى التلفزيون، عندما بسط الورقة أمام عينيه بعد أن استقلَّ باص النقل الداخلي قرأ فيها :

" ثمة من يخرج عن سرب المعتاد والتقليدي في أفكاره ورؤاه، في انتقاده للآخرين وطريقة تواصله مع من هو خارج بوتقته، تتابعه، تقرأ له، تهتم بمقولاته لتدرك بعد فترة أنه يتخبَّط، يصارع الموج لا حُبَّاً بنشر مفاهيم جديدة في المعرفة، تقرأ الصراع الداخلي في إشارات واضحة إذا ما فكَّرتَ بتفاصيلها، تدرك مراميه ما إنْ ينفلت أمامه ما يعترضه ويتعارض مع آرائه، قيود تربكه وحده، لا يراها، يبثُّ إليكَ أفكاره المسمومة، إنْ كنتَ قد حسبته فيما مضى نبياً فاعلمْ أنَّ زمنهم ولى، تدرك أنه مريض بالأنا، بالاعتراض على كل ما لا يتوافق معه، مع فلسفته التي يضعها في متناول السحاب، ويرمي بما يكون لدى غيره في الحضيض، يسخر من كل ما في الحياة، تأسف لحاله، تودّعه، لا يودّعك، يُصِرُّ على إتيان ما يريد، وإنْ حدَّثَ الهواء " .

قهقه ساخراً بمرارة، ألقى الورقة من نافذة الباص، أمسك بهاتفه واتصل بصديقه ليخبره بشأن ما كتبه ذلك الشويعر الصغير، ولما سخر مما يحدّثه فيه استشاط غضباً، أنذره بأنه سيعاود المجيء بعد أسبوع إلى مبنى التلفزيون، وإن لم يكن هذا المأفون قد نال عقابه فلن يكلّمه أبداً .

حادَثَ مروة لكي توافيه إلى داره مباشرة، أخبرته بأنها اتصلتْ به وكان هاتفه مُقفلاً، أكَّدتْ له أنها آتية لأمر هام، كانت تبكي حين كلَّمته، لم يسألها عن السبب، أراد فقط أن يراها .

تلفَّتَ حوله فرأى فتاة بهيَّة الطلعة، رماها بنظرة مفعمة بالشهوة، تقدَّم نحوها متسلِّلاً بين الواقفين يلكزهم لكي يفسحوا المجال له ليقترب منها أكثر، نظرت في عينيه، التقطتْ ما يرمي إليه، فأدارتْ رأسها عنه بعد أن وقف بمحاذاتها، ثمة رائحة غامضة ولذيذة تُدنيه منها حتى كاد يلتحم بها من الخلف، امتدَّتْ أصابعه ليقرصها من فخذها، لكن الباص مالَ فأبعدها، لم يَفُزْ بقرصة، بل بملامسة أشبه ما تكون بانبطاح حُرّ حتَّم عليها الانثناء لتتَّقي جسده إثر اندفاعه نحوها عند انحراف الباص، استقامتْ وواجهتْ عينيه بنظرة غاضبة، نهض شاب فأجلسها مكانه، أبعده بطريقة تشي أنها برفقته فندّتْ عن ثغره ابتسامة صفراء وهو يلعن في سرّه مروءة ذلك الأحمق، سرعان ما نهضت المرأة الجالسة إلى جانبها لتترك الكرسي شاغراً، ابتعد الشاب ظناً منه أن الابتسامة لم تكن إلا بطاقة شكر من جاد فانتحى جانباً، همس لها وهو يجلس :

- شاب لطيف، كيف حالك الآن ؟

زفرتْ من أعماق صدرها، طغى الحنق على وجهها فكدَّره، موارباً حدَّق في حضنها، سألها كاتماً ضحكته :

- لماذا تمنعين عني ضحكة عينيك ؟

تململتْ في جلستها، نظرتْ حولها بحنق، همستْ في أذنه :

- التزمْ أدبك وإلا جعلتُكَ أشلاء مُمزَّقة بمجرد أنْ أُصدرَ صوتاً للواقفين
- اف اف اف ما بال الجمال غاضب اليوم ؟ ألا يكفي غضب الطبيعة علينا ؟ ما رأيك أن نتبادل أرقام هواتفنا ؟ يا حلوتي، أنا شاعر وقد سحرتني عيناك فأين المشكلة إنْ تعارفنا ؟

- إن كنت صادقاً .. فأنت شاعر الوقاحة والفجور، ابتعد عني، أريد أن أنزل من الباص .

عاجل بالتقاط بطاقة صغيرة من جيبه ودسَّه في جيب معطفها، مُفسِحاً المجال لها من دون أن ينهض كي تمر وتخترق الأجساد فتهبط من الباص .
سارع بتوجيه الرسائل النصية عبر هاتفه المحمول إلى مجموعة من أصحابه، يدعوهم لمتابعته مساءً على شاشة الفضائية السورية .

عندما فتح الباب لمروة، كانت شاحبة الوجه، باكية، أقعتْ إلى جانبه بانكسارٍ تُغمغمُ بكلمات غير مفهومة، عاجلها بتوبيخ كاد أن يقصم ظهر دموعها، تَوسَّلتْ إليه بِذُلٍّ لكي يُسرع بالزواج بها، وإلا فسوف تطالها الفضيحة، أراد توضيحاً منها بعدما انحشرت الكلمات بين فكّيها خشيةً منه، قضمتْ خوفها وقالت :

- أنا حُبلى .

شعر بشيء من السخف، كأنما لم يدرك بعد مركز إصابتها الداخلية، وهي تكاد تختنق أمامه، استمر يقلّبُ بصفحات كتاب، بذات الإهمال الذي يقابل به أي أمر لا يعنيه، فيسبّب للآخر في رد فعله هذا أذى من نوع خاص، فيكاد الآخر ينوس كشمعة وسط صحراء من كثيبات الرمل .

- أراكَ مُتماسكاً، ألم تسمعني ؟!

قالت له باكية .

أنَّها، شتمها مُستخدماً كل ما في قاموسه من مفردات سوقية مُهينة، راح يدور ضمن غرفته الصغيرة كفأر التجارب، جال بنظراته الغاضبة على الجدران الشامتة، سارع في الاتصال بصديقه الطبيب يطلب مشورته فيما يتوجب فعله

للتخلُّص من الجنين، أمسكتْ مروة بساعده ترجوه ألا يحدث ذلك، رفض بشدة، أسكتها وقد ضاق ذرعاً بمحاولتها التمسُّك بما في أحشائها، بعدما أنهى الاتصال، انبرتْ تستجديه وتُقنعه بعدم تَمكُّنها من إجراء عملية الإجهاض، فالفضيحة سوف تطالها بمختلف الأحوال .

فجأة، تماسك واستكان، دنا منها ليهدّأ مِنْ رَوْعِها، ثم أبدى حماسةً كبيرةً في الزواج بها، في سبيل إغوائها لممارسة الجنس، استسلمت لوعده بالزواج، ولغوايةٍ احترفَ استخدام أدواتها، لكنه كان عنيفاً هذه المرة، مارس الجنس معها بسادية لم تعهدها منه قط .

عندما عاودت الحديث عن الزواج بعدما فرغ من إطفاء شهوته، ارتفع صوت صياحه، أصبح مسعوراً أكثر مما كان أثناء ممارسته الجنس، وكطير من الجوارح يحوم في السماء تَرصُّداً لفريسة، أشاع الرعب في قلبها، ولما استمرَّتْ تُطالبه باتخاذ ما يدرأ الفضيحة عنها، قام بضربها، وانتهى إلى طردها .

حلَّ المساء وقد نسي أمرها، انشغل بعرض الحوار التلفزيوني معه، كان مُلهم حاضراً مع عصبة صغيرة من أصدقاء جاد، ممن يعتبرون أنفسهم شعراء، كانوا من المغمورين والمهمَلين والفاشلين، وقد حرص على تواجدهم حوله ساعةَ بثّ اللقاء، لقَّهُ الصمت إزاء ما يتبجَّح به جاد أمام الحاضرين، أَسِفَ ممّن يعتبرهم أصدقاءه، أولئك الذين لا يجمعه بهم سوى التحدُّث عن النساء، ليبرز كل منهم صولاته وجولاته معهن .

حدَّثهم بإسهاب عن مفاتن المذيعة التي أجرت معه الحوار، وكيف كان لقاؤه بها قُبيل موعد التصوير، وبعد بضع لحظات، تلقى اتصالاً منها تُهنّئُه، فانبرى يهمس لها أمام الجَمْعِ برومنطيقية مُبالغٍ فيها، وقد أشار بيده لالتزام الصمت :

- أشكرك أيتها الحسناء، جمالك طغى على كل كلمة تفوَّهتُ بها، وعلى كل ما كتبته من شعر، .. أجل، أجل .. أودُّ أن نلتقي، لابد أن نلتقي في بيتي لنشرب نخب نجاحك في إدارة الحوار أيتها الفاتنة، لا .. لا، طيب فكّري وأخبريني، نبقى على اتصال، شكراً، مع السلامة .

ما إن أنهى مكالمته الهاتفية معها، حتى ارتفع صياح الحاضرين مُهنِّئينَ فرحين بصديقهم شاعر التَصوُّف الأول في البلاد، حسب وصفهم .

بعد قليل، رن جرس هاتفه، هبَّ واقفاً، اتجه مُسرِعاً إلى الغرفة الأخرى، تحدَّث بعصبية، شتم المتحدِّثة معه، توعَّد أهلها بإلحاق الأذى بهم إنْ تجرؤوا ووافقوا على تزويجها، ثم أتبع بهدوء ماكر واصفاً حبه لها وعدم قدرته على تحمُّل بُعدها عنه، ختم حديثه بأن اتفق معها على زيارته صباح اليوم التالي قبل أن تتوجَّه إلى مقر عملها .

اتصل على الفور بوالد شيرين صارخاً ومُحذِّراً من مغبَّة الوقوع في الخطأ إنْ وافق على تزويج ابنته من الشاب الذي تقدَّم لخطبتها .

حين عاد إلى صَحْبِه، كان أحدهم قد أفرط في الشرب فانبرى يقول له :

- يا رجل، لماذا تركتنا وقمت تتحدث من الغرفة الأخرى ؟ لقد سمعنا كل كلمة تفوَّهتَ بها .
- أيها الغبي، صوتي ليس عورة، لكَ أنْ تسمعه، أما صوت فتاتي فلا ..
- و .. والد الفتاة أيها الفضائحي ؟
- عورة .

ضحك الجمع وبدأ البعض يتندَّر ساخراً، قفز واقفاً أمام أصحابه، قبَّلَ صورة " هيفاء وهبي " المعلَّقة على الجدار، راح يدور حول نفسه كأنما مَسَّهُ الشيطان، اقترب ممّن شاركه وقفته تلك، شدَّ سراويلهم، فاكتست السهرة طابع الفحش وتردَّدتْ عبارات المجون والرذيلة، تخلَّلتها قراءة لأبيات شعرية في التصوُّف ألقاها بأسلوب عبثي وساخر وهو في ذروة نشوته وسط تصفيق الحاضرين .

قبل الفجر بقليل، سُمِعَ طرقٌ عنيفٌ على باب الدار، كان أحد المصلّين في الجامع وقد أرسله شيخ الجامع ليوجِّه كلاماً قاسياً بسبب الهرج والمرج الذي تجاوز حدود الزقاق، بعد أن رأى رجلين فظّين ثملين يهذران بصوت عال أمام باب الدار بكلام غير مفهوم وقد أطلقا العنان للإهانات والشتائم بينهما

كان مُلهَم محافظاً على هدوئه رغم معاقرته الخمرة منذ بداية السهرة، كان رأسه آنئذ مُضلَّعاً مثل زجاجة العرق البلدي التي دفقها في جوفه وكانت كفيلة بأن تجعل من لكنته مُحبَّبة ومُضحِكة بالنسبة للحاضرين، انبرى يقول ردَّاً على الرجل المرسَل من قبل الشيخ بنبرة دافئة مُقنِعة :

دع المساجد للعباد تسكنها و طف بنا حول خَمَّارٍ ليسقينا

ما قال ربك ويلٌ للذين سكروا ولكن قال وَيْلٌ للمصلّينا

انفضَّتِ السهرة التي امتدت حتى الصباح، وذهب كلٌّ إلى بيته، ليبقى جاد وملهم وحيدين وقد كانا في حالة سكر قصوى .

عندما حلَّ المساء، خرجا يتسكعان في شوارع دمشق، انتهى بهما المطاف في مقهى منزوٍ رخيص فاتخذا مكاناً قصيَّاً فيه، وجلسا متقابلين تزهو الحرية بينهما، بادر ملهم بالقول بعد أن رشف قليلاً من خمر العرق البلدي :

- إنَّ من يأتي الشعر يا صديقي تشفُّ روحه، ومع خوضه غمار التجربة يجد نفسه وقد تخلَّصتْ من أدران الحقد والبغض، إنَّ الشاعر لا يتعلَّق بشيء في دُنياه إلا بقلمه وما يُسطّر، تَرفُّ روحه خفيفة لتلتقط النجوم، وَ لْتقطف ثمار غوصه في كينونته وهو يموج في البحور الخليلية، وإذا ما أتى الغوص بمهارة وصدق، فإنه يحقق المعادلة في تحقيق توازن شفيف بين العقل والعاطفة فلا يخلو شعره من لآلئ الأفكار .
- ثكلتك أمك، دعنا الآن من حديثك الممل هذا .

أطرق ملهم هنيهة ثم بادر بالقول حزيناً نادماً :

- ربما كنتُ مُخطِئاً عندما اقترحتُ عليكَ فكرة الديوان الأخير، ربما ألبستُكَ ثوباً فضفاضاً وغير ملائمٍ لك .

حدَّق به جاد مُستغرباً قوله، بادر يسأله بجدية مفرطة :

- لِمَ تقولُ هذا الكلام الآن ؟ ألم تُعْجِبْكَ المقابلة ؟
- لا علاقةَ للمقابلة بما أقصده، قُلْ لي، ما دمتَ تحوزُ على صداقات قوية ومتينة مع غير شخص مهم، لِمَ لا يجدُ لكَ أحدهم وظيفة محترمة تكسب منها رزقاً حلالاً وتقترب أكثر من أوجاع الناس ؟

هزأ جاد من طرحه فأجاب ضاحكاً :

- ومن قال لك إني لا أعمل ؟ إذن ما الذي أفعله مع النساء اللواتي يأتين إليّ راغبات .
- كيف ترضى أن تعيش على أموالهنّ ؟!

رمقه بتعالٍ، أغمض عينيه نصف إغماضة، أخذ نَفَساً عميقاً ثم أجابه :

- أنا طفيليّ، أعيش على دم الآخرين، هذه فلسفتي في الحياة، ألا تعجبك؟

أيقن ملهم أن لا جدوى من الحديث معه، أراد أن ينهي الحديث فسلك طريق السخرية وقال :

- معك حق، رغم الفوضى التي تعيش فيها، بهندامك وبيتك ورائحة جسدك النتنة والواخزة، أراكَ مركزَ جَذْبٍ للنساء على نحو غريب ومُستَهجن .

قهقه ضاحكاً بمرارة مع انتهاء عبارته تلك، طوى جاد قبضته وهوى بها على كتفه، فانبرى يقول له :

- أيها الأحمق .. ألا تجد أن قوَّتكَ ستضعف يوماً، وقدرتك ستخبو وتضمحل أم أنك لا تستطيع أن تكبح ما بين فخذيك ؟
- لا أستطيع، حاولتُ ولم أستطع أيها الوغد .
- هذا هو عقلك، وكل ما في رأسك يدعمه، جِدْ لنفسك عملاً أيها الغبي .
- سأعمل، لا تقلق عليّ، حدَّثتُ صديقاً ليدبّر لي عملاً في البنك .
- الله الله، سأحذّر إدارة البنك فور مباشرتك العمل من خطر إشهار الإفلاس خلال شهر، اسمع أيها المعتوه، حتى لو عملت في بنك معلومات، سوف تفشل وتتسبَّب بفراغه من أية معلومة مفيدة، وفي الشعر أقول لك : إنْ لم تُحسّن لغتك، ستبقى ضعيفاً وأنت تدرك ما أقصده .

كان جاد مذهولاً مما يسمع، استطرد ملهم قائلاً بعد أن زفر بعمق :

- لن أبقى معك طويلاً، ربما أموتُ أو أسافر .

رغب أن يقول له : " الخمر صنع منك شاعراً تافهاً مُغرقاً في الذاتية والهلوسة " لكنه لم يتسنَّ له قول ذلك، إذ انقضَّ عليه جاد يلكمه وهو يقول :

- وهل أنتَ منّي بمنزلة يوشع من موسى أيها النذل ؟

قال ملهم بجدية مفرطة :

- لكل كلمة ميزان يا جاد، اخترْ ألفاظَكَ جيداً، وتَرفَّعْ عن سفيه الكلام والتكبُّر .

رد جاد بجدية مماثلة مشوبة بالحقد :

- ألا تجد أنك تتمادى في الحديث معي ؟ سأجعلك تنسلُّ من ثيابك الآن بخبر لم أكن أنوي قوله لك : سأعمل أيضاً في صحيفة أسبوعية، مالكها .. ومنذ أصدر العدد الأول منها لا يهمّه سوى الإيرادات المتأتية له من الاشتراكات والإعلانات، ومسح الجوخ عن أكتاف المسؤولين وتلميع صورهم في صحيفته .
- إذن لا أمل البتة .
- ممَّ ؟
- من تطوّر الصحافة ومكافحة الفساد .
- أريد أن أسألك، هل استطعتَ تغيير ملمح واحد من الواقع وإنهاء الفساد من خلال كتاباتك الصحافية سابقاً ؟
- أنْ تُشهِر سلاحك وأنت مؤمن بمعركتك فتخوضها نظيف الكف وتاريخك معروف وهدفك ينصبُّ على ترميم ما تصدَّع في مجتمعك، لهو أمر مختلف ومناقض لما يمكن أن يُمارسه غيرك من تُرَّهات مجنونة تبغي الفناء لغيرها طلباً لتحقيق مصالحها فتعمل على إشاعة الفساد أكثر فلا تهتم إلا لما تكسبه وتزيد به أرصدتها البنكية، كما ستفعل أنت .
- وهل عملي سيزيد الفساد أيها الفاسد الكبير ؟

ضحك ملهم قائلاً :

- وهل فسادك يقتصر على مزاولتك هذا العمل ؟
- خسئتَ يا ابن الـ ..

عاد ليصوب إليه المزيد من اللكمات، ومن ثم انفردا في قهقهة متواصلة .

استطرد جاد في الحديث ذاته قائلاً :

- لن أكتب في السياسة فأنا لا أفهم فيها شيئاً ولا أريد .
- بمَ تفهم أنت ؟ آآ .. أقصد بأي مجال ستكتب إذن ؟
- لم أقرر بعد، أريد اختيار المواضيع السهلة .
- عليك إذن الاهتمام بالأخبار الفنية فهو مُتخَم بالإشاعات والفضائح
- لماذا تريد أن تثبط من عزيمتي أيها اللئيم ؟
- لا تفهم من كلامي أنني أقف حجر عثرة في وجهك، لكن أطلب منك ألا تستسهل الأمر، كن صادقاً وابتعد عن الادعاء، الكتابة الصحفية فن وخبرة، التزام ومسؤولية، إنها تخصُّص وتستلزم الكثير من الأدوات والمهارات .

حين ازداد صخب من في المقهى ارتفاعاً، خرجا معاً يترنحان في مشيتهما، كان الليل في دمشق يداً أحكمت قبضتها على عنق ملهم، ليل الفجيعة والخيانة، ثمَّة جوعٌ يختلسُ ظلَّ النَّفْسِ فيُولعُ في الجسد توقاً للمسرّات، يقفُ الكذب على باب الليل، تكشفه شمس الصباح لتخلع عنه مقامرة المفجوعين .

شرع يحدّث جاد بما لم يكن قد أخبره به سابقاً، عن ارتباط الليل بخيانةٍ اكتشفها مُتأخّراً من زوجته، فأرسلها إلى أهلها بعد أن أخبرهم بأمرها، وهنتْ خطواته، راح يتساءل بصوت مجروح :

- ما نفعُ حياتي وقد أفنيتُ عمري بلا جدوى ؟! أتألمُ، أجوعُ، أعرى، ليس ثمَّةَ من يهتم، لم أحقق شيئاً من كتاباتي، حياتي كذبة يجب أن تنتهي .

أتبع يحدّثه عن القهر الداخلي والدروب الملتوية التي لم يُحسن السير فيها، عن نقائه بمواجهة التلوث المستشري في كل مناحي الحياة وفي أرواح البشر، لم ينبس جاد بكلمة، وعندما أتى على ذكر مخطوطاته الشعرية التي يحتفظ بها في داره منذ

مدة، أراد أن يمرَّا ليجلبها معه خشية أن تعود زوجته في غيابه فتمزّق الأوراق أو تحرقها، رفض جاد الانصياع لرغبته، ولما أصرَّ طالباً منه أن يحتفظ بمخطوطاته لديه، واعداً إياه أن يمنحه أكثر من قصيدة ليضمَّها إلى ديوانه الجديد، تحفَّز وبدا سابقاً له بخطوات، سأله :

- كيف امتلكتَ القدرة على نَظْم الشعر بهذه السهولة ؟
- لا أذكر، مُذْ كنت طفلاً صغيراً وأنا أنظم الشعر .
- يا لك من مراوغ، لماذا تمتنع عن إخباري بالأمر ؟

نتر لفافة التبغ من زاوية فمه، نفخ الدخان وقال :

- عقلك لن يحتمل الحقيقة إنْ أخبرتُكَ بها .
- جرّبْ .
- عندما أكون قادماً من زمن " نوح " فمن الطبيعي أن أمتلك قدرات كثيرة .
- ما الذي تعنيه بقولك هذا ؟
- فكّرْ بما قلته لك .

obeikandl.com

تَتكدَّس الأحلام الصغيرة كنثار الثلج التي تذوب سريعاً، ليبقى ما تمكَّن حاضراً بقوة، ومُسيطراً، هذا ما خطر في بال آديت بعد انقضاءِ ليلةٍ عصى فيها النوم أمرها، فاستسلمتْ بصمتٍ لعربات الخيال، تَجرُها أحصنةٌ جامحةٌ في رأسها، شرَّدَها الصهيل كأغنيةٍ غجرية .

نهضتْ فجراً بتثاقلٍ لتقف أمام النافذة المطلَّة على ناصية شارع بهي، لكن ما شاع في بيتها جعلها تراه في تلك اللحظة رتيب وموحش، نهاره كليله في كل الفصول .

فراغ .. فراغ يملأ عينيها ومساحات الشعور لديها في كل ما يُفتَرض أن يجعلها على تواصل مع العالم المحيط .
زفرتْ، فانبعثتْ سياطُ تمرُّدٍ مسَّت الستارة المخرَّمة، أخذتْ نَفَساً عميقاً، دنت منها، أمسكتْ بأطراف الدانتيلا المذهَّبة، وقفتْ على بُعْدِ خطوةٍ من نافذة الريح، ثبَّتتْ قدميها وجعلتْ تُلوِّح بالستارة كما الموج، لوَّحتْ ولوَّحتْ حتى أرهقتها، أرختها من يديها، أسبلتْ، ذرفتْ دمعة حرّى، أنصتتْ لتواتر نُقاط الماء المهدورة من صنبور حمام غرفة نومها، وفي خضم مجرى السيل، ردَّدتْ ذاكرتها أغنية فيروز :

ويُن .. وين صواتن وين وجوهن ويُن ..

صار في وادي بيني وبينُن .. .. وينُن

لمحت أشرف خارجاً من البيت ككل فجر، شيَّعته بعينيها المتَّقدتين، واستدارتْ لتعاود الاسترخاء فوق سريرها، أغمضتْ عينيها لاستعادة تفاصيل حلمها الصغير قبل أن تذوب وتضمحل .

النبض في تسارع، سبابة يدها اليمنى تعلو وتهبط في حركة لا إرادية رتيبة، كحياتها هنا، تُركِّز على الحركة دونما تمرُّدٍ عليها .

في غابر سذاجتها، كانت تُحدِّثُه عن حلمها وما يُمثّله لها في الحياة، أدهشها مرة بقوله :

" قد يكون الحلم مُلوَّثاً بالخطيئة "

رغم أنها أكَّدتْ له مراراً أنَّ حلمها ناصع البياضِ، كالثلج تماماً، إلا أنه وفي كل مرة يلوذ بالصمت ردَّاً على أيِّ قول .

لم تكن تأخذ عبارته تلك على محمل الجد، لكنها وعبر ما مرَّ من سنين جمعتهما معاً، وبعدما خبرته جيداً، ما عادت تنطلي عليها سخريته فيما كان يبرع فيه، كان ذلك في أوقاتٍ لم يكن انطباعها عنه سلبياً، كانت تتعمَّد تكذيب ما تراه بعينيها، وعندما اتضح لها أنها تُفسِّرُ كل ما يصدر عنه انطلاقاً من نفسها، وحسب الطريقة التي تفكر فيها، بإيجابية مُفرِطة وطيبة مُبالَغٍ فيها، ابتعدتْ عن إرهاق نفسها بالتفكير في أمور لم تعد مُجدية، رغم ذلك لم تستطع حَشْرَ السوء بمواقفه المتراكمة في زاوية مُعتمة لتنقضَّ عليه وتتخلَّصَ منه كفأرٍ أجرب .

احتـدم النقـاش بينهمـا ذات مـرَّة فأعـاد على مسـامعها عبارتـه السـامة، أكملتهـا بالقول :

" وبدوره يدفع نحو الدم وارتكاب الجريمة "

فَغِرَ فاهُ لحظتئذ فتشظَّى الصمت، كادت أن تقول له :

" إنْ كنتُ قد أتممتُ عبارتَك الناقصة، فكيف سأدفعك لدرب رجولتك المنسيّ ؟"

الآن، ثمة أزرار تنشط في لوحة مفاتيح رأسها فتراها تكتب وتكتب .

أفرجتْ برموشـها عـن عينـين تقتربـان على مهـل مـن إنهـاء رسـم قطـرة دم، تَيمُّنـاً بعبارته الناقصة واستكمالاً للوحةٍ حدَّدَ خطوطها فأتمَّتْها .

هـو الخـذلان، عاقبـة كل امـرأة تقـف بمفردهـا لتواجـه أعاصـير الحيـاة أمـام رجولـة ناقصـة، أمسـتِ الرجولـةُ برأيِها فكـرة ممجوجـة، مُشـذَّبة مـن الخـارج ومُخـتَرَقـة في الصميم .

نهضـتْ فجـأة، ارتـدتْ ملابسـها كيفمـا اتفـق، صـفقتْ البـاب، وخرجـت باتجـاه حديقتها الصغيرة المحاذية للبيت .

تَأمُّلٌ، تَردُّدٌ، تَرقُّبٌ وارتحالٌ في عبثية الحياة التي تتراءى لها .

-8-

كان جاد مُسيطراً بقوة على مسار علاقاته، كانت مي الوحيدة التي استطاعت التدخُّل في شؤونه، وقد حَثَّته على المضي في زواجه من مروة بعد انكشافِ أمر حملها منه، رفض ذلك مُتذرّعاً بحبه لشيرين، فهو منذ ما يقارب السنتين يمنع عنها وعن أهلها الخوض بأي نقاش حول كل شاب يتقدَّم لخطبتها، بعدما صوَّرَ لهم أن سطوة نفوذه تمتد لتطال كل من يعترض طريق رغباته، لكن حقيقة الأمر أن شيرين كانت الأبعد عن ساحة تفكيره كزوجة بعدما فرَّطتْ بأغلى ما لديها، كان يلاحقها في كل صغيرة وكبيرة، مُحكِماً الطوق حولها، مُهدّداً بنشر صورٍ ومقاطع فيديو التقطها وحفظها لديه، وفيها .. تظهر وهي تمارس الجنس معه، من دون أن يظهر هو بوضوح .

ما شغله مؤخراً عنها، حَمْل مروة منه، وموقف أهلها الذي تلقَّفه بسخريته المعتادة رافضاً الانصياع لرغبتهم في الزواج منها .

أراد والد مروة أن يُجنِّب نفسه وابنته الفضيحة، فأذعن تحت إلحاح زوجته وقام بزيارة عائلة جاد، راجياً إقناع ولدهم بأن يتزوج ابنته .

كان الأب يعيش في عزلة مَقيتة بعد الخزي الذي لحقه إثر هروب ابنته الكبرى مع من تحب، هيمنتْ زوجته على شؤون البيت منذ ذلك الوقت، بعدما مرَّغتْ اعتداده بنفسه في الطين، مما دفعه إلى الانزواء عن الجميع كمريض أُصيبَ بالجذام بعد الجنون، كان يدرك أنَّ عَرْضَ الأمرِ مِنْ قبله على أهل جاد لن يجلب إلا النتائج السلبية بمختلف الأحوال، لكنه كان مُجبَراً على ذلك .

وبالمقابل، فقد استمرأ جاد العنف وسيلة للتملُّص من الزواج بمروة، كانت من ضمن محاولاته لإبعاد والده عما يُفكّر فيه أنْ هدَّدَ بإلحاق الأذى بها وبالجنين، لم يتوانَ عن وصفها وعائلتها بأقذع الصفات وأحطِّها قَدْراً، لكنه وبعد عدة محاولات، استجاب مُكرَهاً لطلب والده الذي اعتبر أن فضيحة مروة إنما ستؤثر أيضاً على سمعة عائلته وعلى مستقبل ابنه الأدبي، كما اعتبر زواجه منها إنقاذاً له من عَالَمٍ يضجُّ بخطر الإصابة بالأمراض إنِ استمرَّ بما كان هو يمارسه عندما كان شاباً، لكن جاد لم يهتم إلا بمستقبله الأدبي المنشود، ولكي يخفف من وطأة هذا الزواج على نفسه قرَّر أن يتخذه أداة لإطفاء شبقه في جسد مروة المغري، عازماً على حَرْثِهِ كل ليلة، فارضاً شرطاً وحيداً مقابل قبوله بالزواج منها .. بأنْ يُطلِّقها خلال عام .

حافظَ جاد على علاقاته مع الفتيات اللواتي يزرنه في داره، حتى بعد زواجه، فكان يُرسل مروة إلى بيت أهله بعد أن يخبرها بأن إحدى صديقاته ستزوره، إمعاناً بإذلالها وإيذائها، أذاقها من صنوف العذاب ما لم تكن تُطيقه وتحتمله، تعمَّد ضربها مرات عديدة بقصد إسقاط الجنين، وقد حدث بُعيدَ سهرة أمضاها مع ثُلَّةٍ من صَحْبِه أن عادت لتجد المناديل الورقية وقد غصَّتْ بها سلَّة القاذورات، وفيها آثار ليلتهم الماجنة، لم تستطع زجر نفسها عن مكاشفته بالأمر، وقد حملتْ إليه السلَّة بيدٍ مرتجفة، هاج وماج ما إنْ نطقتْ بما اعتبره تجاوزاً لما حرَّمه عليها،

أوسعها ضرباً على أنحاء جسدها، و رفساً على بطنها، كانت تصرخ وتستغيث عبثاً بالجيران، حاولت صدَّ لكماته الموجهة نحو أنحاء جسدها بقبضة يده القوية، دونما امتلاكها القدرة على الهرب منه بعدما حشرها في زاوية معتمة من الغرفة، إلى أن فقدت الوعي وهي تنزف، ابتعد عنها واتصل بوالدته يخبرها بأن تأتي حالاً .

اتصل أيضاً بصديقه الطبيب الذي أشار بضرورة نقلها فوراً إلى عيادته المجهزة لإجراء عمليات جراحية بسيطة، وهناك .. أجهضت ما كانت تحمله في أحشائها، حاول الطبيب بكل ما أوتي لكي ينقذ حياتها بعدما نزفت كميات كبيرة من الدم، أشار إلى جاد أن يذهب فوراً إلى بنك الدم لتعويض ما فقدته

كانت المرة الأولى التي يظهر فيها جاد مُتهالِكاً مُضطرباً، وقد شعر بخطورة ما ارتكبه، وقف أمام صديقه الطبيب صاغراً عندما انبرى يُؤنّبه ويصرخ في وجهه، مُهدّداً إياه بإخبار الشرطة إن لم تنجو زوجته من الموت، كان يدرك أنها تعدَّتْ مرحلة الخطر لكنه اعتبرها فرصة لن تتكرر ليوجّه له كلاماً قاسياً ما كان ليتقبَّله في الأحوال العادية .

لما عادت مروة لتقيم في بيت أهله، علم بأنها كانت تحمل في أحشائها توأمين ذَكَرين، هزأ مُتفاخِراً بفحولته، وقد استردَّ عنجهيته، قال لأهله بصفاقة :

– عندما أقرر أن أنجب .. فلن أُنجبُ ممَّن رخَّصتْ بنفسها، كما لن أنجِبَ إلا التوائم .

استنكرتْ مي فعلته أيُّما استنكار، فقد ذكَّرها بما ارتكبه زوجها بعد عامين من زواجهما، وقد استبدَّت به لوثة أتت على الحب الذي استمات يدافع عنه فكان زواجهما سرياً ولم يبح به لأهله الذين كانوا رافضين حبهما منذ البداية

بعد مرور عامين، فاجأها بانقلابه على كل مشاعره نحوها، وانبرى يُحدِّث المقرَّبين منه بأنَّ حَمْلَها كاذب، بات يخبر البعض بأن لا رحم لها، وبسبب ما أبداه تجاهها من ظلم وافتراء، طلبت الطلاق بعد أن وعدته بالتنازل عن كامل حقوقها الشرعية والقانونية، لكنه أبى أن يفعل، فكان أن حملت منه وأنجبتْ طفلاً، ساءت إذ ذاك علاقتها به، عندما اتهمها بالخيانة .

منذ ذلك الوقت، بات اهتمامها مُنصبَّاً على عملها وطفلها، من دون أن يكترث زوجها لحالها .

ذكرتْ له تلك الحادثة عندما اجتمعتْ به في الزاوية القصية المخصَّصة له والبعيدة عن أعين رواد مقهى الروضة، اعتبرت أنَّ ما روته له غيضاً من فيضِ إرهاصات حياتها التي تحدّثه عنها كما جرت العادة .

لم تكن مروة تمتلك العزيمة لمواجهته أو رد الأذى عن نفسها، حيث أتبعَ جرمه بحقها وبحق روحين كان من المفترض أن يعيشا فأزهقهما عن عمد، بأن قام بنظم قصائد شعرية تُصوِّر حرمانه من مشاعر الأبوّة وقتل ولديه قبل أن يولدا، دون تصريح منه في شعره عمَّنْ قتلهما، لكنه أذاع خبراً لدى كل من يعرفه بأن زوجته هي من أجرمتْ بحقه وحرمته من طفليه، لكي يبرر أمام الجميع قراره بالانفصال عنها وليغدو الأمر مقبولاً ويخرج هو بصورة المجني عليه .

رغم ذلك، فلم يكن بحاجة لتبرير فعلته أمام أهله، فقد تولَّتْ والدته الدفاع عنه أمام جاراتها، أبرزتْ لهن وصفات طبية مُزوَّرة تثبت أنَّ طليقته كانت تُعالَج من مرض نفسي، وهي من أجهضت دونما مبرر، وفي مرحلة لاحقة .. باتت ترمي السهام على دريئة الشرف، فتصيبها، لتعلن أن سلوكها شائن ومن فضل الله على ابنها أنه ارتاح من وصمة عار كادت أن تلحق به لو أنه استمر معها وأنجب منها .

-9-

في غمرة إمعانه بخطوط لوحتها التي رسمتها منذ ما يقارب الخمسة أعوام، بعد شجار كان الشرارة الأولى لبدء تَغيُّرهما معاً، دَهِمته علاماتٍ موسيقيةٍ غريبةِ التكوين، سرعان ما انهزم مُنصِتاً لها، لكأنَّ أصابع الشيطان تعزف كيما تسيطر على حواسه بطغيان مُستبد، وحين تتوقف، تَصمُّ أذنيه عن سماع أي صوت آخر

مشى بتثاقل إلى غرفة نومه، تقوقعَ في فراشه، إرباكٌ مُمضٌّ أصابه فجأة، إثر مُداهَمة صور الكابوس اللعين لرأسه المضمَّخ برائحة اللعنات، عرقٌ تنضحُ به جهته رغم برودة الطقس، رجفةٌ عبثتْ بأعصاب أصابعه فاستطالتْ حتى نطحتِ السماءَ بقرونِ رؤوسها النارية، انفرجتْ عضلات وجهه وأفرجت عن طيفِ قَهْرٍ مُوشًّى بأسى يُعمِّق داخله إحساساً بالهزيمة .

فرَّ من غرفة نومه، خَشيةَ أنْ تُمعنَ أسرابُ الخيالات المَسْخ في اقتحام دماغه وما تضمُّ في ثَنَاياها مِنْ رُؤى مُقيَّدةً بالكابوس اللعين، رؤى عمَّرتْ له مَسكناً فوقَ الغيمِ لتتساقط حجارته كسجّيل .
مِنْ زُرقةِ الخوفِ يدنو، كمنديل يحملُ دموعَ فُراق، يَنبجِسُ منه الألم لينتثر على مخدَّةِ الوهم .

ساعات تمضي، و بَعْدَ وَميض، يَنسحبُ مُردِّداً كلاماً لا ناطقَ له، لا حروفَ فيه، لا رَسْمَ له .. لا شَبيه .

يتكاثفُ عَرَقه حينَ يَلهجُ لسانه بابتهالاتٍ تمسك بثوب السكينة من دُبُرٍ قبلَ أن تَفِرَّ منه، ما غَادرته الكوابيس، يصحو كل يوم كَمَنْ يُساقُ إلى مِقْصَلةِ الوقت، فاقِداً أيَّ قدْرَةٍ على غَزْلِ البَوحِ بماءِ الفجر .. مُسْتَسلِمَاً لضجيجِ المرايا .

نهض متوتراً، خرج إلى الصالة، بخطى وئيدة مشى حافياً فوق أرضيتها الخشبية الصلبة، اقترب من المكتبة، أمسك بأوراق صغيرة احتفظت بها آديت ضمن الرفوف، لوحات بقلم الباستيل لوجوه آدمية مُتشظِّية، حرصتْ على حَمْلِها طوال الوقت في المطارات التي توقَّفتْ فيها الطائرة التي أقلَّتها قادمة من ماليزيا منذ عشرة أعوام .

طيّرها في الهواء، التقطَ ورقةً منها قبل أن تسقط مَيْتة، عَصَرَ ماءَها بيده قابضاً على جثث الألوان الصارخة ألماً فاتَّحدتْ لينفجر الأحمر وتنبثق علامة " الدو " موحِّدةً وجامعة لعزف الشيطان .

لم تُعْفِهِ الصلاة من واقع الهزيمة التي لحقتْ به، يكاد أن يجتاز عتبة الجنون، قفزة واحدة ويمسي صريعاً .

- أهي نبوءة .. أم هي ملامح النهاية تلوح ومن ثم تختفي ؟

تساءل وهو يمعن النظر في لوحة أخرى رسمتها بخطوط نافرة أبرزتْ فيها يديه الممدودتين والمستسلمتين لوخز إبرٍ توزَّعتْ على ساعديه، وقد يمَّم وجهه صوب البحر مُبعِداً أشرعة البكاء عن مآقي الأسماك المتيبِّسة .

ما الذي يعنيه تشظّيها الآن في عينيه ؟

أهي محاولة من اللا وعي أملاً في التخفيف من وطأة ما يُطْبِقُ على صدره إزاء الخسارات المتتابعة التي يُمنى بها ؟!

تساءلَ وصوت عقارب الساعة يتردَّدَ في أذنيه فيبعث شعوراً مُمضَّاً لديه، دفعه الصوت للغوص في لوحة أخرى لمستنقع آسن، النيلوفر فيه يُهدْهِدُ بُقَعَ الألوان التي رمتها كطُعْمٍ لتغرِّرَ من جمود السطح، لكن ما في جوفه بقي على حاله .

" هذا ما تفعله بي ألوان آديت في مساراتها السطحية "

همس بحنق، ثم أتبع دونما صوت :

" لا تدرك ما تفعله بي ألوانها الغائرة في روحي كالسكاكين " .

انحاز إلى الصمت لئلا تفتك به الأسئلة، صاغ قراراً داخلياً من حمأة المهادنة، ومضى نحو ما يبعثر الرؤى المتوالدة فيُفتِّتُها علَّ الفاجعة تغفل عنه، التجأ إلى غرفة نومه مُجدَّداً وانكبَّ فوق السرير .

obeikandl.com

- ليس ثمة من يعتبر نفسه مُخطِئاً، وهو يَتخبَّط في أتون ما يُبعده عن إنسانيته .

جاد .. هل تُصلح القصيدة ما أفسَدْتَهُ في حيواتِ مَنْ تَعقد على أعناقهن حبائلك المُنشَّاةِ بالمجون ؟

الشهوة أشدُّ تأثيراً من الحب على من يكون كاذباً في هواه، فيمرُّ الهوى حاملاً بضاعةَ الشهوة ليبيعها في أقرب سوق، ويخلو إلى نفسه في صحراء الادعاءات الكاذبة حيث لا يكون الصدق بحاملٍ قوي، ليجرَّ الخيبة من ذيلها ويخفي بسترتها لحظات الوجد حتى يختنق، خواء .. خواء، أين أنت منه ؟ للأسف، أنت في نقطة المركز .

تذكَّر ما قاله مُلهَم بعد أن تَمكَّن منه السُكْر، لم يغضب منه بقدر ما ندم على تركه في الدار وعدم طرده، لم ينطق بحرف عندما توصَّل مُتأخّراً لما أخفاه ملهم وراء سؤاله ذاك، وما تبعه من مكاشفة، لم يتصوَّر يوماً أن يمتلك الجرأة على مواجهته، استنتج بذات الوقت بأنه كان ينوي قول شيء مختلف إلا أنَّ سياق الحديث فرض أن يسكت عنه، ولأن من عادته أن يجعل من الصمت لساناً يمدّه في وجه من يتطاول عليه ليستفزّه أكثر مما يعمل على إراحته بإطلاق ريح الحروف

والإفصاح بكلام مباشر، فقد آثر استخدام سلاحه هذا مُعتبراً أنه إنْ لم يَقُلْ ملهم ما لديه فليمُتْ بغيظه، خاصة أنه سدَّد بفمه ما يفوق فعل الرصاص من بندقية أدمنتْ على الصعلكة .

عركَ أوراق قصائده، جذب جسد شيرين إلى صدره، لحظةَ سدَّدتْ ذاكرتُه فاتورة المشاهد التي تسترجعها، أبعدَ كل ما من شأنه أن يبعده عن اللحظة .

في خضم عبثه بصدرها المرمري، وثبتْ إلى ذاكرته صورة آديت، ابتسامتها، أصابعها النحيلة والطويلة .

للأصابع عيون، حين تتلامس وتتبادل فيما بينها نظرات تصل إلى أعصاب العين المجردة في وجهين سعى أحدهما للقاء مثمر، نظرة دافئة فيها عطش وجوع لقلب ذابَ وَجْداً بملامسة أصابع مَنْ يريد رمي شباكه عليها، أطلق قلبه إذ ذاك غزلاً رقيقاً، وما وجد إلا الصمت رداً .

قلم جاد يكاد يفرغ من حبره، كما دمع شيرين النازف من جدران قلبها، سؤال قفز إلى رأس القلم لينبّه النهايات الحسّية المتأثّرة من جسده، وليس ثمة رد منه أمام الدمع المنهمر .

صورٌ كساها غبار الوحشة، أفقدها اللهو ذاك البريق المتقد في أعماق الحقيقة التي يغيّبها عنه وعن كل من شاركنه السرير .

لم يمتلك ملهم صبراً على الاحتفاظ بما يريد قوله لجاد، كان حميمياً و ودوداً عندما زاره ليلاً، لكنه كان قلقاً ومضطرباً أيضاً .

التفت جاد يحدّثه عن آديت التي لم تغادر صندوق رأسه، أكد له بأن فكرة الوصول إليها تؤرقه، اقترح عليه أن يتصل بها ما دام رقم هاتفها بحوزته، قال له :

- لا .. لا ، يجب أن أتعرَّف إليها بطريقة تليق بمقامي الأدبي، وتتناسب مع مركزي الاجتماعي .

أطرق جاد قليلاً وهو يفكر بطريقة مختلفة، فلابد من مَكيدة يدبّرها ليوقع آديت في حبائله ويفوز بها، اهتدى ملهم بعد قليل من الوقت إلى فكرة مختلفة فقال له :

- لِمَ لا تدعو صديقك الصحفي ليتفق معها على لقاء بحجة إجراء حوار صحفي معها بمناسبة مشاركتها في المعرض الأخير، وتحضر أنت بذريعة عملك الجديد في الصحيفة كمتدرّب ؟

برقتْ عينا جاد، لكنه استهتر بفكرة ملهم من أجل ألا يسقط تحت فكرة إخفاقه بإيجاد طريقة مناسبة فينتشي صديقه، أجابه :

- متدرّب ؟! عليك اللعنة، لا .. لا .

استطرد قائلاً سِرَّاً في نفسه :

- لقد وجدتَها أيها المأفون، وسأتعرَّف إليكِ يا آديت قريباً، حتى لو كان مقابل ذلك أن أُنهي علاقاتي مع كل من أعرفهنَّ من النساء، يجب أن تشعري بثراء روحي، ورجولتي القَدَرية، وستدركين جيداً من جانب آخر أنني رجل أعرف كيف أُمتع النساء .

لـمَّا أحسَّ ملهم بأن ملامح جاد ارتاحت وسكنت، كانت النار ما تزال تستعر في داخله فتكاد تأتي على ما بقي فيه من سكينة وطمأنينة، ولم يهدئ إلا عندما أفرغ ما يعتمل في داخله، أسرَّ له بأنه مُعجَبٌ بأخته، وبأنه يريدها زوجةً له تُعوّضه عن خيبته السابقة في الزواج، لم يُفاجئه بطرحه هذا، كان قد تَلمَّس أثناء زياراتهما معاً لبيت أهله بريقاً في عينيه كلما رأى أخته وهي تُقدّم لهما القهوة، لكنه عزم على إيهام ملهم بأنه خارج هذه الدائرة ولا يريد التدخُّل بهذا الشأن، فضلاً عن علاقته

بأهله والتي ازدادت سوءاً بعد انفصاله عن مروة، مما سينعكس سلباً على طلبه، فوعده بأن يطرح الموضوع على أخيه ليبادر بدوره إلى إخبار الأهل .
كان ملهم قد حظي باحترام أفراد العائلة عبر زياراته المتكررة برفقة جاد، كان الأب يستغرب صداقتهما، معتبراً أن ملهم نقيض ابنه في كل شيء، كان يعتبره شاعراً عظيماً وإن لم يعبّر له عن ذلك توخياً لإثارة غيرة ابنه وغضبه

تشاغل جاد فيما تلا من أيام بالتظاهر في إعداد طباعة الديوان الشعري الجديد، لينقطع عن أهله، ويتركهم يواجهون أمر طلاقه من مروة، ولم يفته أن ينبّه أخاه إلى ضرورة رفض طلب ملهم، وهذا ما كان، إذ سرعان ما أخبره بذلك، ولم يكن أمام ملهم إلا الانصياع للأمر .

حاول أن يتخطى عتبة الإرهاق الممض الذي تنازعه إثر رفض بشرى له، إلا أنها لم تكن لتفارق صندوق رأسه، فقد بدا مُنشغلاً بها أكثر مما سبق، ينظم القصائد التي تُصوّر لوعة قلبه في غيابه عنها، وعندما شارك وجاد في إحياء أمسية شعرية، وكانت بشرى حاضرة مع أهلها، ألقى كل ما كتبه لها، وعندما اجتمع بجاد في بيته، كان مُمتقع الوجه طوال السهرة، إذ لم يكن من الصعب عليه فهم ما احتوته رسائل ملهم الشعرية .

أيقن ملهم أن الرفض لم يتأتى من الفتاة، فإما أن تكون قد دُفعت دفعاً إليه، أو أنها اتخذت قرارها بعد أن لجأت إلى تفسير صداقته بأخيها وهي مدركة لسوء سلوكياته وفرط مجونه بأنه يشبهه في ذلك، كان قد ترك لها رقم هاتفه على ورقة صغيرة دسَّها في يدها أثناء خروجهم من المركز الثقافي بُعيد الأمسية الشعرية .

كان الأمر أشبه بشعلة منذ الهاتف الأول، أنيرت لتحيي قلبين شعرا أن كلاً منهما وُجدَ من أجل الآخر .

ومنذ تلك الليلة باتا يتواصلان عبر برنامج دردشة من جهازي هاتفهما المحمول، رجته ألا يعلم جاد بالأمر وإلا قُضيَ عليها، أخبرته بأنها لا تعرفه جيداً ولأجل جهلها به رفضت طلبه بالزواج، لكنه أوضح لها الفروق الجوهرية بينه وبين جاد، طالباً منها أن تمنحه فرصة أخرى لكي تتعرف إليه، بادر يكتب لها على صفحة الدردشة:

- أحببتك بكل القوى التي تحتويها ضلوع إنسان يبحث عن الحب والاستقرار .

- هل يمكن أن أتعلَّق بقلب غائب حاضر، سكب في روحي الاطمئنان والسكينة ؟

- حبك يجري هادراً في دمي كطوفان لا يُلجَم .

- بكلامك هذا تُلهب فيَّ مشاعر تكويني كل حين، تشرد خواطري في متاهات القلق حين تغيب عني، ولكن ...

- لكن ماذا ؟

- جاد !!

- سأحادثه قريباً، لا تقلقي .

اتفقا على أن يعرض الموضوع مُجدَّداً على جاد، دعاه إلى مقهى الروضة لأجل ذلك.

كان الوقت يمر بطيئاً مُملاً أثناء انتظاره له، الريح القوية زادتْ من توتر أعصابه، السحب الداكنة تلوح من بعيد، تَعِدُ بعطاء وفير، تمنَّى أن تدفع بجاد ليصل بسرعة ويقتل البرد القارس الساكن نقي عظامه، ومساحات الشعور لديه، يرمق الكأس الفارغة بنظرة سريعة ثم تتعلق عيناه بالباب يترقب دخوله، يبتكر خياله الخصب الصور البهية لاهياً بوقت يمر بتمهل وتؤدة، وينثر الخيال قطرات الندى فوق وريقات خضر وأزهار ملونة تتراءى له وحده، الوقت يستنزف صبره ويؤكد معاكسته لآماله وأمانيه، يجهد في قذف بذور القلق بعيداً عن تربة أحزانه الخصبة، يدخل جاد بعد لحظات وقد تجلَّل وجهه بغيوم النكران .

كادت سلّة الأفكار أن تفرغ أمام سطوة حضوره الثقيل، لولا أن اعتمل في صدره إحساس بالقهر دهمه لحظة تلقيه إشعاعاً خفي المصدر ليرى بشرى ماثلة أمامه على جدار المقهى المليء بالصور، عاجل بتقديم ورقة طالباً منه أن يقرأ ما فيها، أمسك جاد بالورقة ظاناً أنه نظم قصيدة شعر جديدة، ولما وجد نصاً طويلاً سأله عمَّا يكون، أخبره بأنه كتب قصة قصيرة ويريد رأيه فيها، عاجله بالقول :

- ألهذا السبب طلبت مني أن أوافيك هنا ؟

- لا .. لا اقرأ الآن قصتي .

- هل قررت أن تُخلي الساحة الشعرية لي ؟ أشجعك يا صاح فكتابة القصة تليق بك أكثر .

قهقها معاً وأمعن جاد يقرأ العنوان ثم قال :

- اللسان .. مممم يبدو أني سأقطع لسانك إنْ توصَّلتُ إلى أنك تقصدني بهذه القصة .

- اقرأ الآن ومن ثم سيكون لنا موضوعاً آخر نتكلم فيه .

" أذعنتُ لأمره، وقبلتُ بما كنتُ أناكفه به وأرفضه منه، تواطأتُ معه على الغياب دونما تفكير مني ولأيٍ منه، حين أردتُ الانقلاب عليه بتُّ كمن يحاول فتح باب شقته بمفتاحه الذي كان للتو يلجم اللسان فيبعده ويترك للمزلاج أن يتحرر، لكن المفتاح هذه المرة لم يستجب رغم أنه ولج بسهولة مكانه من القفل الذي مضى عليه ردحاً وهو من أصل الباب .

أعدتُ المحاولة مراراً، وفي كل مرة تبوء محاولتي بالفشل .

شيء ما يجعل الباب مُوصَدَاً في وجهي، المفتاح يدور في مكانه بيسر لكن الباب يظل يعارك صبري ويكافح محاولاتي لفتحه، استغربتُ الأمر فما من سبب يبدو طبيعياً، لابد أن السبب لا يعود للقفل ولا للمفتاح، يبدو أن الأمر ينحصر باللسان .

زاد من حنقي مع تكرار محاولاتي الفاشلة، ارتفع مؤشر الغضب وتوترتُ أكثر مع مرور جاري الذي اكتشف إخفاقي في محاولة فتح باب شقتي، رمقني بنظرة ارتياب أفقدتني السيطرة على المفتاح العقيم، بادر بالقول :

" مشكلتك قديمة فلماذا تركتَ نفسك تواجه هذا الموقف ؟ "

همهمتُ باحثاً عن إجابة تسكته وتدلقه كتلة مُتورّمة حتى مدخل البناء، لم ينتظر جوابي، غاب مسرعاً بعدما لمح في عينيَّ الشرر يكاد يشعله، زفرتُ بحنق وتركتُ المفتاح في موضعه، ابتعدتُ قليلاً عن الباب و ركلته بقدمي بعنف أسقط المفتاح، خمس ركلات كانت كفيلة بخلع الباب .

لحظات مُمضّة وكريهة تلك التي تمر دونما أن تجد تفسيراً لإغلاق باب شقتك في وجهك دونما سبب، صفقت الباب الموارب بعد خلعه فلم ينغلق، استدرتُ لأتفحَّصَ القبضة فلم أجد اللسان في مكانه، نظرتُ إلى ما وراء الباب فلم أعثر عليه، الأحداث الصغيرة غالباً ما ترهقني للحظات تتبع وقوعها، أفتش عن مبررات حدوثها، أرى الغموض يسكن التفاصيل، وسرعان ما أنشغل بما تخبئه أبواب الحياة وراءها .

ما زلتُ أبحث عن اللسان، لا لكي أصلح ما أفسدته في الباب المخلوع، بل لنزقي المعتاد وإحساسي بالهزيمة إن اعترضني أي عائق يحول دون تحقيق ما أريده .

بات لزاماً عليَّ أن أقفل الباب بالمفتاح لكي أضمن بقاءه مغلقاً، واللسان اللعين اختفى فأسقط باختفائه ورقة التوت عن شقتي، سأتعرّى أمام الخلق، وسأكون عرضة للكشف المجاني والفضول الغبي للكثيرين، أدركتُ في تلك اللحظة أهمية أن يكون باب البيت موصداً أمام تحرشات الريح والبشر .

رفعتُ الأشياء الصغيرة من أماكنها ولم أرَ اللسان، انبطحتُ أرضاً مادَّاً يدي لأتلمَّس بأصابعي المهتاجة الفراغ المعتم لكل قطعة من الأثاث الموجود في الصالة ولم أجد اللسان، قلبتُ السجّاد وسرعان ما تطايرت ذرات الغبار صارخة ومستقرة في رأسي وأنحاء جسدي ولم أعثر على اللسان .

أكادُ أُجنُّ من ضياع اللسان إثر خلعي الباب، شعرتُ فجأة بأن شيئاً في فمي لا يتحرك، لا يعمل، وبات إحداث فرجة صغيرة بين شفتي كفيلة بأن تسمح للغبار ولبكتيريا الهواء أن تلج فمي دونما حاجز، لذا كان عليَّ أن أغلق فمي طويلاً .

ما عدتُ مُذعِناً لأمره، رفضتُ ما كنت أستسلمُ له، مرَّت أيام دون تواطؤ مني أو محاولة منه للانقلاب عليّ، احترفتُ الصمت ونسيتُ وجوده كما نسيتُ ضياع لسان قفل الباب، بتُّ أقفلهما كلما دخلتُ إلى البيت حتى غدت عادة تمرَّستُ عليها وأصبحتْ جزءاً مني .

أعترف أن طعم الحياة اختلف كما هو الإحساس في داخلي، لكنني ارتحتُ مع مرور الوقت، جنَّبتُ نفسي مغبَّة الوقوع أسيراً لقبضته .

بعد مرور ما يقارب الشهرين، وكنت قد قمتُ بترتيب البيت وتنظيفه مراراً، عثرتُ على لسان قفل الباب غافياً وسط منديل ورقي خلف أصيص الورد المسترخي في زاوية الصالة وعليه بقعة حمراء تفشَّتْ ألوانها وتدرَّجتْ بين الحمرة القانية واللون الزهري الشفاف بتدرجات غريبة وجميلة، أمسكتُ بالمنديل ووضعته فوق الطاولة، حملقتُ فيه طويلاً ومن ثم حملته لأضعه في برواز خشبي وفي زاويته علَّقت اللسان بحاملة متينة كي لا يفر مرة أخرى أو يضيع مني، هذا ما يجب عليَّ فعله على الدوام . "

فرغ جاد من قراءة القصة، رنا نحوه ببرود وقد تجمَّدت النظرة في عينيه، قال له :

- وماذا بعد ؟ ما الذي تريد قوله لي الآن ؟

- ألن تخبرني رأيك بالقصة ؟

- القصة يتبعها حكاية شفهية، سوف تسردها بلسانك القذر .

ما إن حدَّثه برغبته في معاودة طلب أخته حتى عاود الرفض، مُذكّراً إياه بموقفها السابق وبأن لا جديد يبرر ذلك، ولما أصرَّ ملهم على طلبه بضرورة مُفاتحة بشرى بالأمر، أعلن جاد رفضه الشخصي له، اندهش ملهم قائلاً له:

- كيف لكَ أن ترفضني صِهْرَاً وتقبلني صديقاً ؟!

ببرود جَمّ أجابه وقد ألبسَ وجهَهُ لوحَ ثلجٍ :

- أنا أعرفك تمام المعرفة، كما أعرف أختي وطباعها، لن تلتقيا أبداً، لستما مناسبين لبعضكما البعض، سوف تفشلان في علاقتكما إذا ما ارتبطتَ بها، أنا أدرى منك في هذه المسائل .

- لكن هذا لا يعفي من شرف المحاولة بالتقرُّب منها وتعرّفنا أكثر على بعضنا البعض، ولن أسبّب لكَ حرجاً في الأمر إذ سبق لي أن رافقتك مراراً في زياراتك إلى بيت أهلك .

- قلتُ لك لن تنجحا .. إنسَ الموضوع، قصتك جميلة، أنصحك بكتابة القصة عوضاً عن نظم الشعر .

لما علمتْ بشرى بموقف جاد وعدته أن تصرّح بموافقتها إذا ما تقدَّم مجدداً، طلبت منه أن يزور أهلها ولو بمفرده، أكد لها أنه لا يستطيع تجاوز جاد في الأمر ما دام قد أخبره منذ البداية انطلاقاً من مبدأ دخول البيوت من أبوابها، وعدها بأنه سيحاول مجدداً .

استغرب ملهم رفض جاد له، سحب التفاؤل وشاحه عنه وألبسه لبوس القانطين، شعر إذ ذاك أنَّ الهوَّة بينهما تتسع، وشِقَّة الخلاف تزداد، وبأنه بات

يعامله كمنافس له وقد صدَّق كذبه المتلاحق على كل مَنْ هُمْ حوله، بأنه يمتلك الأدوات الشعرية التي تؤهله ليكون بمصاف الشعراء الكبار .

obeikandl.com

-11-

أرادتْ أن تشكِّلَهُ كما تريد، كما تراه بعينيها، اعتبرتْ أنه صورة ما تريد، حقيقةً تصنعها بيديها .

بدوره .. لوَّنه بنصل لسانه، استغلَّ شُحَّ ريشتها منذ أعوام مضت، فشحذه بما أراد، تركه في بَرْدِه يرتجف، تَشظَّى بموتٍ لا يُشبه الموت .

جعلتْ من نظرتها رداءً له، في نداء قلبها استمراره، عَبَرتْ به نحو شاطئ السكينة.

اعتبر أنَّ اللونَ يمتهنُ الخديعة، وأنَّ المطرَ انقلابٌ حَتميٌّ عليه ليمحوَ حقيقته.

أكَّدتْ له بأنها كثيرةٌ به، فكان فقيراً بروحه .

" ما أتعسنا عندما نُصدِّقُ ألاعيبه، وحين نموت، ندرك أنه هناك وحده ينتظرنا " .

قالت في سرّها حين قال لها ذات خديعة : أنا كونك .

ردَّتْ عليه في مواجهتها له : إنه الكون، لا كما تراه وتريده أنت .

باتت في الفترة الأخيرة تمضي جُلَّ أوقاتها في المطبخ، اعتنت به حتى كاد يبدو كصالة استقبال الزائرين، جعلت منه حاضنة مميزة وزَّعتْ فيها اللوحات الصغيرة على جدرانه وخزائنه، جعلت للياسمينة كوَّة صغيرة محاذية لشبَّاكه المطل على حديقتها الصغيرة، وجَّهت بعض أغصانها لتكون ستارة لولبية لقضبان الحديد المتشابكة مع بعضها مؤلفة سيمفونية موسيقية رشيقة تتناسب وتغريد

العصافير التي تحط على لوح خشبي ملاصق للإطار الرخامي السفلي للشباك العريض .

بعد فوضى حركاتها المحصورة بإعداد طعام الفطور، جلست إلى طاولة المطبخ تمعن في برواز يحتوي على صورة لعائلتها، انحناءة تقوم بها وهي تزحزح الخزانة الخشبية المحاذية لمكان جلوسها، تفتح الدرج القريب منها وتتناول حبة مُسكّنة، تصادف ألبوم الصور فتشرع في تقليبه .

عادت آديت إلى دمشق بعد سنين من الغربة، قدَّرها والدها عندما اتخذ قراره في ثمانينات القرن الماضي فهاجر وعائلته إلى ماليزيا، لكنه، وافق على أن تعود بمفردها إلى دمشق، لم تَعُدْ إليها للدراسة، فقد أنهت دراسة الفن التشكيلي هناك، عادت لتتزوج من ابن عمها، حين عبَّر له والده عن رغبته في تزويج ابنه منها، تواصلت معه عبر برامج الدردشة الإلكترونية، شجَّعها على المضي بزواجها منه ما أظهره تجاهها من حب .

في خِضَمِّ حياتها في دمشق، نسيتْ آديت نفسها، كما نسيتْ أنَّ مَنْ تعيش معه هو زوجها، أمست دمشق الحاضن والمهدِّئ الفعلي لها، بعد نفورٍ أصابها وأبعدها عنه رغم أن البيت الذي تسكنه منذ عامين جميل، لكنه بحاجة في أجزاء منه إلى بعض الترميم، ذكَّرته بذلك مراراً فلم يهتم، ما دفعها لتولّي الأمر قدر ما تستطيع، خمس غرف أكسبتها لمسات فنية رائعة، تتصدَّر الصالة الكبيرة واجهةٌ زجاجيةٌ مُطلَّةٌ على حديقة صغيرة كستها بالورود والرياحين لتُذكِّرها بحديقة منزل عائلتها في ماليزيا، تنبجس وسطها نافورة مغطاة بالموزاييك الملون

عندما خرجت في نزهتها الصباحية في أحياء دمشق القديمة، لم يكن مزاجها مُتفاعِلاً مع المحيط، بدتْ مشاعرها في تناقضٍ أقلقها، تارة تأخذ بعمقِ ما يحرِّرها من الداخل، وتارة أخرى يسيطر عليها الشعور بالذنبِ تجاه نفسها .

أرادت الابتعاد عن محيط المكان الذي تتنزه فيه كل صباح، استقلَّتْ سيارة تاكسي وأشارت للسائق أن يتوجَّه إلى قاسيون .

وقفتْ على هدبه، بسطتْ ذراعيها، أغمضتْ عينيها، وفكَّرتْ في اللا شيء .

التأمل، هو الرياضة الذهنية المحببة لديها والتي كانت تمارسها على شاطئ البحر في كوالالمبور، كان البحر صديقها الودود، لم تغضب منه مرة، وما مَكَرَ لها لثباتها أمامه فهاج أو ثار .

لم ينطفئ ذلك التوقُ المُمسكُ بتلابيبِ آديت لاكتشاف ما بعدَ الطوق الآسر، لم يعد يعنيها خفوت الأضواء وتلاشيها في بيتها بوقتٍ مُبكرٍ من مساء كل يوم، وكما في الحلم الصغير الذي ينمو داخلها دونما إرادة منها، تبدو الآن كالبذرة الصغيرة التي نضجتْ بعد إطلالتها الأولى على مساحاتِ دمشق الممتدة أمامها، كثيراً ما بدتْ مُتيقِّظة لكل نأمة تصدر فيها، وكثيراً ما بثَّ الصفاءُ مَصْلَهُ في أوردتها، فكان صديقاً وفياً هو الآخر .

الصخب المتماوج على هُدْبِ قاسيون، حرَّضَ ذاكرتها على استعادة وَقْعِ خطواتها على امتدادِ الشاطئ الرملي في كوالالمبور، مُتناغِمةً مع موج الحنين بعد الملامسة الأولى، والنظرة الأولى، بعد غياب قسري عن الحياة التي عشقتها هنا، فكانت دمشق الصورة الأكثر حضوراً في ذاكرتها الطفولية الحية التي ما استطاعت أن ترشقها الغربة بغبار النأي، لذا .. ظلَّتْ وفية للصور الأولى .. فتزوجت، وعادت إلى دمشق .

طيلة سنوات اغترابها عن دمشق، كانت على ثقة أكيدة من أن لحظة الولادة الجديدة آتية، هذا ما كانت دائماً تُقنعُ نفسها به لتنمّي قدرتها على بناء الحلم،

اعتبرت أن كل ما كان يمضي من عمرها ما هو إلا إحياءٌ مُتجدِّدٌ لخلايا الحياة الضاربة في عمق التاريخ .

أما اليوم، فالقهرُ أكبرَ مِنْ الحُروف، ما دعاها لتركِ بياض قلبها للحنين وسطوته، حمَّلتْ النسائم حبها، غابتْ، وربما يطول غيابها حتى إشعارِ قلبها المسافر مَعَ صخب الموج الآتي من قلب العاصمة، صار الخيط الفاصل بين الإقدام على مواجهة الآخر والقبول بدروبه الملتوية مُعرَّضاً للاحتراق .
مع علوّها في قاسيون، وفي لحظة هاربة من الزمن، رأتْ نفسها عندما كانت طفلة صغيرة، ابتسمت لها، طفلة تَبلَّلَ شعرها بماءٍ باركته الشمس، وقبل أن تغادر بيتها نحو المدرسة كانت تمر بها بياضُ الثلجِ لتودِعَ في عينيها قُبلَةً لكلِّ فَجْر، وتزيّن ضفيرتها بزهر الياسمين .

لم تكن بياضُ الثلجِ الوحيدة التي زارتها، فقد تلاها موكبٌ من أبطال الأفلام الكرتونية التي كانت تَنشدُّ إليهم، وتحلم أنها رفيقتهم، تخبّئُ في صدرها أسرارهم وأحداث حيواتهم بعد انتهاء بثِّ قصصهم على الشاشة الصغيرة، وفي جيب مريولها، كثيراً ما خبَّأت أسراراً وحكايات، ضحكات وابتسامات صافية كالثلج .

لكنها مُذْ كانت طفلة، عانتْ من الضعف في مواجهة الآخر إنْ أخطأ بحقها، كثيراً ما اختارت الصمت حلاً لما يعترضها أو بمواجهة من يتعرَّض لها، وهو ما يدفع الآخر للتمادي والإجحاف بحقها أو هضمه، ولأن سريرتها نقية فقد كانت تغفر لمن يسيء إليها، وتنسى، تنسى كل ما يرتكبه بحقها، هذا النسيان كثيراً ما أوقعها في مطبّات أثَّرتْ على اعتبار الآخر لها، وبذات الوقت كان العامل الأساس في منحها له ما لا يستحقه .

أدركت ذلك بعد فترة من زواجها، لم يَحُلْ ذاك دون استمرارها بالطريقة عينها في التعاطي مع أشرف، ولم ترضخ بذات الوقت له، عندما أراد هدم ما كان بناؤه مَتيناً في نفسها .

قبل انقضاء الخمس الأُوَل من زواجهما، كانت تعتبره آخر الرجال الأتقياء، لذا اتسقتْ خطواتها الأولى برفقته مع خيال جامح، عزَّزه التوق لملاقاة كل ما يبهج ويحقق الحلم البعيد، كثيراً ما رسَّخَ تلك الخطوات بكلمات جمَّلت البدايات سعياً منه لمحوِ مفرداتِ حياةٍ استغرقها في تناقضات غريبة، وما إن بدأتْ تكتشف أن هناك الكثير مما يخفيه عنها، وبأنه سلك درب الصمت عَمْدَاً، أدركتْ أنه إنما أراد التخلُّصَ من قيود أدران شهواته، فكان انقلابه سلبياً بمواجهتها ولم تحصل منه إلا على المعاملة الباردة، أدركتْ أنَّ استغراقه في الصمت ما هو إلا انغماسٌ في حياة أخرى يخشى أن تكشف تفاصيلها يوماً .

كانت تبوح له بما تفكر فيه ويُرهِقُها، بما يبعدها عنه وما يرتكبه بحقها، لكنه في كل مرة، يعاود الكرَّة في تبرير كل ما يصدر عنه، وفي لومها على ما توهم نفسها به فتستسلم لسطوته، كان يجهد كعادته في استنهاض التقوى واستحضارها كيما يثبت لها أنه بعيد كل البعد عن غواية الشيطان، فتسكن إليه، جَهِدَ بأن تكون ذريعته اليتيمة، تقواه، ليسوق بها السكينة والهدوء فيخدِّر إحساسها بهما، كيما يتفرَّغ لنفسه ويزداد توغُّلاً في صمته .

تنحدر الهوينى من قمة قاسيون الأجرد نحو حارات دمشق، عبر مسارٍ لسراب مسكون بصمت الأمداء داخلها، تنفردُ في تجوالها، أكثر من أي يوم مضى، بمحاكاة البصماتِ المتلألئة تحتَ أجنحةِ النورِ الساطع التي تبرع الشمس بصنعها، لترفعَ يدَها وقد خُيِّلَ لها فرشاة ألوانها في مواجهةِ اللهبِ الأحمر الذي

تـراه دون أشـرف، الحاضـر بطيفـه، المهـيمن بصـمته، العـاجز عـن تَحمُّـل وهـج الحقيقة المتصاعد مع فرشاتها، وطغيان لـون اللهب على كل ما تحمله من حقيقة صارخة للألوان .

طيفـه المتمـاوج أمامهـا، ولشـدَّة مـا كـان مُتحفِّـزاً في بداياتـه معهـا لأن يجـد فيمـا يمارسـه مـن صـمت خلاصـاً لـه وإعتاقـاً لروحـه، راح يغـرز أظافره في لحـم شـهوته، ظانَّـاً أنـه يسـعى بصـورة أكيـدة للتطهُّـر مـن الخطايـا، لتنـدمج قطـرات الـدم مع مـا ينسرب من جسدها من توق، فتهدأ رغبتها الجامحة بعد ثورة، لينزوي بعيداً عنها مُتسربلاً بالصمت، أما هي، فما كان منها إلا الأنين من وجع الصبر .

تنمـو الأفكـار في رأسـها مـع نزهتهـا اليوميـة ومـا تقـرأ مـن كتـب تشـتريها مـن مكتبـات دمشـق وما لـم تكـن تجـده متـوفراً توصـي عـاصـم بـه فيحضـره لهـا مـن بيروت، كانـت تعتبر الكتب ملاجئ لها من ضجيج الصمت المتمسك بجدران البيت، واليوم، تبدو فكرة التخلُّص مما يُقيّد الحلم متينة كما تبدو هي، مُتشبِّثة بها .

دوران، دوران .. بصمات أرواحٍ تُمْطِرُ أملاً فوق مسار العبور، تسبحُ فـوقَ الأمـواج غيـومٌ سـابحةٌ في فضـاءٍ رحـب، لـن تُـذعِنَ لمـن يريـد سـحقَ حلمهـا، فلهـذا الحلـم هَسيسٌ مُقيم، تُنْصِتُ لـه، وتسـتعدُّ لجعلـه عَزْفـاً يصـدحُ في أرجـاء الكـون، هـذا مـا قررته في نهاية مشوارها لهذا اليوم .

تخطـو برشـاقة فـوق الطريـق المرصـوفة بالأحجـار القديمـة، تمـر وسـط الأسـواق الشـعبية مخترقـة عبـق سـحر الشـرق، بلهـف حـار تتقـدَّمُ راسـمةً دوائـر في الهـواء تُبهِج الأطفال التي تمر بمحاذاتهم فتدغدغهم، تشتري ما تراه فريداً من أحجار، لترصّع بـه عُلَـب المجـوهرات الصـغيرة وتزيّنهـا، تُنصتُ لأجمل مـا سـمعته مـن أغـانٍ لفيروز، لتحلِّق مع حمائم الجامع الأموي .

بمحاذاة قلعة دمشق تمرُّ، ويمرُّ عاشقان، يبدو الشاب مُستلَبٌ بعشقه وبعطر الفتاة النافذ، ربما دوَّخَه، يبدو أنه طيَّره، وباتا معاً كراقصين على مسرح تحيط به الشموع، أضفى مرورهما سحراً مُحبَّباً لديها فابتسمت، ولجا معاً الحديقة البيئية، أحسَّتْ أنها تعرف الفتاة، وكأنها خرجت من قماش إحدى لوحاتها القديمة وقد تركتْ لها البياض بعدما امتلأت ألوانها بالشوق.

تنشَّقت عطرهما حين مرَّا، عطر الحب الذي يجمعهما يبدو صورة عنهما، بعينين طفليتين فيهما الصفاء آية، تمادت في تفكيرها بالعطر الذي ينتشي به الهواء فلا تختلط به أية رائحة، العطر بصمة سابحة في الأثير، كلما كان أخَّاذاً ونافذاً أسرَ الحواس، ليس بالضرورة أن يكون حادَّاً وصادماً، فكم من العطور برهافتها وانسيابها أسرت الحواس وامتلكتها، العطر لوحة سرية وسوريالية لا يفكُّ شيفرتها إلا من كان يماثلها في رائحته الجوّانية، وإن خلا من جاذب محسوس يتطاير عبقاً بما تحمله النسائم من رائحة روحه .

" في لحظات عابرة نجعل القدر مفتوناً بجنوننا، فإن حدث وحاول ثنينا عنه باتباع درب التعقُّل، ازددنا ولوجاً في جنون اللحظات المشتهاة، فازداد جنوناً بنا "

كتبتْ عبارتها في سجِّل ملاحظات هاتفها المحمول بعد اختفاء أثر العاشقين، وعطرهما، و مضت نحو البيت .

تحاول في نزهتها الصباحية كل يوم استعادة الهناءة بشتى الطرق، اعتادتْ أن تكون المهادنة مَطيّتها للوصول إلى لحظات الصفاء، لكنها، ورغم غلوّها في محاولة استرجاع ما فقدته من حياة تشاركية مع أشرف، يحدث أن تؤوب إلى منطقة الوسط الباهت، ولولا التأمل الذي تمارسه لكانت في الدرك الأسفل من اليأس،

تحنو بنظراتها على الكون فيدركها الحنين لماضٍ فات بعد أن ترك لها الدمع لتسقي به مخدَّتها حين تزيد الفجوات في عُمْقِ ما يربطها به .

ما استعذبت الأنين، ولا استسلمت له، ترى نفسها تفرُّ منه كيلا يتمكَّن من السيطرة عليها، فيخفُّ بريقها أو يتلاشى، يأوي الندم المتسرِّب لروحها إلى المُزْنِ السابح فيُطرَد، وما إنْ يهبط إلى مستوى ما تطأه قدماها يضمحل، فيختفي قليلاً ويتوه مع الخطوات الشاردة في مهبِّ ضياعه عنها .

في طريق عودتها، وفي حارات دمشق القديمة، توقفت قليلاً بمحاذاة الشجرة الباسقة الملاصقة للبيت، استطاعت هذه الشجرة أن توفّر مساحةً كبيرةً من الظِلِّ تحت أغصانها الكثيفة، لم تعرف اسمها، ولم تهتم بسؤال أشرف عنه، كانت تكتفي بمشاهدة صلابتها وتجذُّرِها الراسخ، في حنوّها على ترابٍ هو موطنها الراسخ أبداً، لا تبدو في حالة استعارة من شيء أو من أحد لتجعل من وجودها مجازاً مُستبدَّاً، هي حقيقة مطلقة، وما عداها يدور في فلك الممكن المستجير بالوجود ليماثلها، لكن هذا الممكن كثيراً ما أخفق، مُتذرِّعاً بمبرراتٍ يخلقها للمماطلة أو لإخفاء أثر ما يدهمه فيعرّيه، وحدها الشجرة لا تتجاهل الحقيقة، وكل من يتجاهل الحقيقة إما حاقد حاسد، أو فاشل جبان .

تدرك أنَّ قوةَ هذه الشجرة مُهيمنة ما دامتْ بمنأى عن الخطر أو العبث أو الاجتثاث، بقيت جذورها مُتشبِّثة بالتربة، وما تمكَّن أحدٌ من جعلها تختفي أو تضمحل أو تذوب .

كلَّمتها كما كل يوم، وقد أصاختِ السمعَ لها، فأدركتْ أنها تُباركُ ما تفكر فيه، بحفيفٍ قُدسيٍّ يُلقي على مسامعها البُشرى، دونما مُواربة، يُستعادُ تاريخٌ كامل لإحساس مُسيطر، والكتابةُ كالرسمِ، حِفْظٌ لما يُتلى من الروح بما تضمُّهُ مِنْ سَرْدٍ

لأحلامٍ صغيرة تُجسِّدها رؤى، في بهائها تشبه اللوحة، يُعادُ إحياؤها عَمْداً، لتكون فيها العبرةُ والفكرة، وهي بحضورها، تَستلُّ مِنْ نبض الحلم وجودها الحي، تمتثلُ طواعيةً لأمرٍ فيه السِرُّ والذكرى .

ما إن وطئت أرضية الصالة حافية القدمين وقد حملت صندلها بيدها، حتى تناهى إلى سمعها نشيج مُنبعِث من غرفة ورد، اضطربت فسارعت باتجاهه، استوقفها أشرف وهو مضطجع بمنامته يتابع برنامجاً دينياً، التفتت نحوه بنظرة مُتفحّصةٍ تريد أن تعرف من تعابير وجهه ما الذي حدث أثناء غيابها، لم تقرأ فيه أيَّ تعبير، ناداها بحزم طالباً منها أن تترك ورد الآن، عاجلت تسأله عما إذا كان هناك خطب ما فانبرى يقول بعصبية :

- ابنك عروة، أراد أن يعبّر عن رجولته المبكرة فتشاجر مع ابن الجيران، لأنه ضرب ورد .

بُهتت، فسألته :

- هل ضربتَهُ ؟
- لاااا .. اعتذرتُ منه .

كادت أن تُجنّ، امتقع وجهها، أطبقت فكّيها بقوة خشية أن توبّخه فتهزُّ عرشه

كيف له أن يضرب عروة، وابن الجيران هو من أخطأ بحق ورد ؟!

لماذا لا يريد أن يستوعب أن عروة طفل هو الآخر ولم يُخطِئ عندما أراد أن يدافع عن أخته ؟

قالت له وقد محتِ الدهشة كل ما جهدتْ بزرعه من سكينة في روحها :

- لماذا فعلت ذلك ؟! ألم تدرك بعد أنهم أطفال ومن البديهي أن يتشاجروا مع بعضهم البعض ؟
- هل تدافعين عن ابنك وهو مذنب ؟ طبعاً فنحن في زمن العنتريات، وحضرتك تريدين لطفلكِ أن يكون مثل بقية الأطفال .
- أتعلم .. ؟! الأولى بك أن تحافظ على صمتك .

ابتعدتْ عنه ونظرتها تكاد أن تُفتّته، اتجهتْ صوب غرفة ورد، كان عروة يجلس إلى جانبها يطيّبُ خاطرها، احتضنتهما وقالت :

- أنت ما غلطت حبيبي، بس كان لازم تمنع الولد يضرب أختك بدون ما تضربه .
- بعرف ماما، بس ..

غصَّ عروة بدمعه ولم يستطع أن يتابع حديثه .

- عروة .. انسى يلّي صار حبيبي .

أمسكت بيده وبيد ورد، ضغطت عليهما لتقويهما، قال عروة :

- مو من عادتي أضرب حدا، انتي بتعرفيني، بس الولد ضرب ورد وأنا ما تحمّلت شوفها عم تبكي ..
- ولا يهمك يا قلبي، لا تفكر هلأ بشي .. اتفقنا ؟ .
- بدّو كون نسخة عنه، وأنا ما بدّي .

اندهشت آديت مما تفوه به ابنها، بألم تلقَّفتْ أذناها كلماته، أدركتْ أن وعيه قد تجاوز ما كان في ظنها، وبأنه يدرك سطوة والده الفارغة، قالت :

- خلص أنا بحكي مع بابا، ما تزعلو .

-12-

تقِفُ أمامَ مرآتِها، تتراءى لها رغوةُ ثَرثرتِه، تَفيضُ مِنْ ألسنةِ الهياكل كسجّادةٍ تَعبثُ فيها ديدانٌ ومَخالب، تمشي فترتجفُ صورتُه، وينتحرُ الوجهُ في انفعالاتٍ مُفتَعَلة .

- انجرافكِ لجاد، ما كان ليتحقق، لولا كُتيّب السحر الموجود هنا، أؤكد لكِ ذلك، ابتعدي عنه إنْ كنتِ تحرصين على راحة نفسك .

همس لها ملهم عبارته، مُتمّماً أنَّ جاد نفسه أكَّدَ له اعتماده على تعويذة شيطانية في كل مرة يريد إخضاع شخص ما ليصبح طوع أمره، تتحقق غاياته بفعل السحر حتى يكاد يتملَّك الشخص، أبلغها أنه قرر أن يُسْقِطَ عن نفسه تأثير عبثه وجنونه الفاضح، ويبتعد عنه، سألته عن بشرى، فأجابها :

- لم تكن بأفضل حال منه، إذ قيَّض لها القدر أحاسيس شؤم أبعدتها عن دربي وقذفت بها نحو شاطئ التمزق والحيرة، تفاعلات شتى كانت تُحْدِثُ في داخلها اضطراباتٍ استغربتُ كنهها، ومع ذلك كانت تتوق للتحدث معي عبر برنامج الدردشة، انتهى كل ما بيننا، فالحب لا يمكن أن يُبنى ويثمر بهذه الطريقة من التواصل .

تنهد بعمق، رنا نحو البعيد ثم ختم بالقول :

- غايتُكِ مرآة نفسك، إذا ما أزالتِ الريحُ ما تكدَّس عليها من غبار، بانتْ صورتُكِ الحقيقية، إن تكلَّفتِ وتكفَّلتِ باستجلاب الغبار لتخفي

حقيقةَ سعيك وراء هدف غير محمود كان لكِ الخسران، إن لم يكن هدفُكِ مُخجِلاً، أزيحي طبقات الألوان البرَّاقة وما أخفيتِهِ بها من صدأ، دَعي الباقي على الآخرين، الخجلُ لن يعفيكِ .

إذا ما تحطَّمتْ مرآتُكِ، لا عليكِ، فالمرايا تُباع في الأسواق، اعرفي ما الذي يجب عليكِ أن تشتريه، لئلا تدفعي الثمن، ومن ثم تضعي العلَّة فيمن باعكِ بضاعته .

مي .. ما قلته ينطبق جملة وتفصيلاً على جاد، وسيكون غيابي عنه كساد أعمى، أما حضوري فلن يكون إلا اعتراف به، مي .. لن يكون جاد سوى ظلٌّ مُحترقٌ بشمس .

لم تستغرب أن يلجأ جاد لكتيب السحر، إذ لم يكن هناك مبرر لوجوده بين كتبه إلا استخدامه له، لكن ما لم تكن تتصوَّره أن يعمد إلى ربط تعويذة سحر لها .

معرفتها تلك كادت تُكلّفها ثمناً باهظاً، لولا أنها كانت مُتيقّظة ساعةَ أحاق بها لكي يستخدمها أداة رخيصة لتحقيق غاياته الدنيئة، فقد عزم على أن يقود عُقْبَة لكي ينال منها، فدعاها إلى داره بعد أن أخبرها أنْ ليس في البيت سواه، وما إن دخلت حتى اكتشفت كذبه، فادَّعى أن صديقه أتى بلا موعد مُسبَق .

بعد لحظات أصرَّ أن تشاركهما مُعاقَرةَ الخمرة، رفضتْ بشدة، فانبرى يُهدّدها بالضرب أمام صديقه، أحسَّتْ بجرحٍ كبير، أرادت اتقاء شرّه، فأمسكتْ بالكأس، ثم نهضتْ مُمتثلةً لأمره لتجلس إلى جانب عُقْبَة، غافلتهما أكثر من مرة وألقتْ ما في الكأس في أصيص الورد المحاذي لها، كانت ترفع الكأس وتُدنيها من شفتيها لتتظاهر بأنها تشرب، ثم نهضت بتثاقل مُتعمَّد، وما إن استقامت واقفة حتى

ترنَّحتْ وكأنها على وشك السقوط من تأثير الخمر، أطلقتْ ضحكةً تشغلهما بها، غمزتْ جاد بأنها تريد دخول الحمام، تركتهما يضحكان وغافلتهما لتهرب من الدار

اتصل بها بعد لحظات، غاضباً يلوك كلمات الوعيد مُمتزجةً بالشتائم واللعنات، هدَّدها بضرورة أن تتصل يوم غد بصديقه وتسأله فيمَ إذا كان قد " انبسط " معها، إذ سيوهمه بأنه من كثرة معاقرته الخمر لم يدرِ بما فعله بعد أن ساح في خلايا دماغه فاستحال إلى حيوان جامح، ما أراد أن تُصوِّره لعُقْبَة .. لم يكن أكثر من مضاجعة .

أدركتْ أنها لن تستطيع الفِكاك من جاد بسهولة ويُسر، كما لم تكن لتجرؤ على إخبار أحد بأمره، لكن ما تأكَّدتْ منه أنها يجب أن تتخلَّصَ منه، حين أمعنتْ في أمره، وجدتْ أنَّ قدرتها على التفكير على هذا النحو ما هو إلا بداية النهاية، إذ لم تكن لتتمكن من ذلك لو أن سحره ما يزال مُسيطراً عليها، لكن ما كانت واثقة منه أن إحساسها بالسحر لم يكن وهماً، كما لم يكن تبريراً لنفسها على السقوط في علاقة مع إنسان امتهن الخسّة .

مُذْ ذاك .. أحسَّتْ مي أن الغشاوة بدأت تنزاح عن عينيها وباتت تُبصِرُ ما كانت تَغفل عنه، إثر تفكيرها على هذا النحو رأتْ مَنْ كان ماثلاً أمام عينيها حقيقة لا وهماً .. إنها .. آديت .

كانت تسيرُ بمحاذاتها من دون أن تلحظ وجودها، إلى أن تناهى إليها صوتها وهي تتحدَّث مع بائع في سوق " القيميرية " وسط دمشق، أحسَّتْ أن الصوت ليس غريباً عنها، أرادت معرفة صاحبة الصوت فالتفتتْ نحوها، وما إن رأتها حتى تذكَّرت يوم تقابلتا في صالة الفن التشكيلي وكانت برفقة جاد، دنتْ منها تُلقي عليها التحية، ردَّت آديت بلُطْفٍ جَمّ، لم تعرفها بداية، لكن ما إنْ ذكَّرتها مي

بالمكان الذي جمعهما معاً حتى اقتربت منها وضمَّتها إلى صدرها، قالت لها بعفوية ومحبة :

- كانت فرصة سعيدة أنِ التقيتُ بكِ في ذلك اليوم، كنتِ برفقة ...
- جاد، ألم يتواصل معك بعد ذاك اللقاء ؟
- حاول، لكني لم أرتح له بصراحة، هل أؤذيكِ بقولي هذا ؟
- لا أبداً .

أكملت سيرها برفقتها بعد أن اشترت آديت ما تحتاجه من المحل التجاري، تنشَّقتْ رائحة ما في الكيس الذي تناولته من البائع، قالت :

- يا الله .. كم أعشق التوابل هنا !! .
- هل كنتِ مسافرة ؟
- أنا وُلدتُ هنا وأمضيتُ طفولتي في دمشق، ثم هاجر أبي إلى ماليزيا، لكن الزواج أعادني مُجدَّداً إلى دمشق، هل أنتِ متزوجة ؟
- أجل، لكنه زواج مع وقف التنفيذ .

ضحكتا معاً، وضربتا كفاً بكف، قالت مي :

- هل تمانعين في لقاء آخر يجمعنا ؟
- لا أبداً .. على العكس، يسرني ذلك .
- إذن .. إليك رقم هاتفي .

obeikandl.com

-13-

رنتْ بيأس نحوه وهو مُسترخٍ في كرسيَّه الهزاز يُمعنُ في لوحتها الكبيرة، وقفتْ خلفه للحظات، تردَّدتْ في سؤاله عن سبب انقضاض الكوابيس عليه كل ليلة، وعن الكلمات المتشظية التي يختنق بها لترافق صرخاته الممتدة مع صفير الريح، تدرك أنها لن تلقى جواباً واضحاً منه، وليس من المستغرب أن يستتبع السؤال صراخ يعمُّ أرجاء الحي .

" يمكن أنْ يُقدِمَ الأسير، إن استطاع، على رد الألم للسجَّان بأكثر مما ألحقه به، لكن، من الضرورة بمكان ألا يكون ذاك الأسير .. عبداً " .

هزأتْ مِنْ تَصوُّرٍ مُباغتٍ دهمها، لكن الأقسى من صراخها في وجهه، أنْ يستيقظ أشرف ذات صباح ليجدها إلى جانبه جثة هامدة وقد خنقها بكلتا يديه إثر نوبة هياج بعد كابوس، ما عزَّزَ هذا التصوُّر المفجع لديها، هو واقعُ جَعلِها دريئةً تستقبلُ صفعاتٍ مُفاجئة منه أو ركلاتٍ مُباغتةٍ تُوقِظُها وقد حطَّمَ الرعب السكينة في روحها، وفي ظنِّها أنَّ زلزالاً ضرب دمشق .

استمرأ أشرف العيش ضمن عالمه الخاص، وكوابيسه المخيفة، تَهرَّبَ مما ينتابها ويعذبها، تعامل معها وكأنها لم تعد تشكِّل لديه أكثر من متمم لموجودات البيت، أو

جزءاً من الأشياء الموضوعة في أماكنها، حتى غدا جسدها يُشكّل سينوغرافيا مكانية جامدة، أما الروح فقد أراد لها أن تدخل في كهف مظلم ليس فيه متسع لفكرة واحدة تبرق في رأسها .

استطاع بمهارة أن يدع الأيام تمضي بها دونما هدف أو غاية، لقد جعل الإشارة تهيمن على أجواء حياتهما متناسياً أن اللغة حية والنطق زاد، سار في مجرى الفراغ ولم يعد يهتم إلا بنفسه .

أيُّ تناقضٍ هذا الذي يجمعهما في مكان واحد ؟

لطالما استغربتْ استسلامه لروتين حياته على هذا النحو، بذلتْ جهوداً كبيرة في محاولة تغيير نمط الحياة التي فرضها، لكنها في كل مرة تفشل، رغم غيابه المتكرر عنها في مقر عمله، إلا أنه لم يُعوّضها يوماً بحضوره عن ذاك الغياب.

فصولها الزاهية تستصرخ صمته الذابل، يتأكد لها يوماً بعد يوم أنه غارقٌ في مستنقع حياة أخرى ويُصرُّ على إبقاء أبوابها موصدة في وجهها، أيُّ أنانيةٍ هذه التي لم تكتشفها فيه إلا مُتأخِّرة ؟ وأيُّ غباءٍ سيطر عليها فانقادتْ له ؟!!

استرجعتْ المشهد بالكامل، حين أصرَّ والدها بشدة على تزويجها منه ليجنّبها، حسب قناعته، الوقوع في أتون علاقات الغرب القائمة على الانحلال الأخلاقي، وضعت الأمر بين يديه ليتَّخذَ القرارَ المناسب، كان بإمكانه أن يرفض لو أنه كان واثقاً بحُسْنِ تربيته لها، لكنه لم يفعل، لقد اعتبر موافقتها هامشاً يحيط ببياض الفكرة، لم يكن قد تشكَّل لديها الوعي الكافي لترفض، حتى أنه لم يفكر في حاجتها له وهي في طور الانطلاق لبناء عائلة جديدة تخصُّها، لم يقدّر أنها لا تستطيع الاستغناء عنه ولا عن بقية أفراد العائلة .

قَدِمَتْ إلى دمشق التي أحبَّتْ، فأراد أشرف أن يُكمِلَ بوجودها هامشاً يحتاج إليه، لكنه أراد مُتعمّداً أن يحيط الهامش بسواد الفكرة، وهو العارف بما تحتاج إليه وأي فَقْدٍ يؤلّب عليها المواجع بغياب أهلها عنها، ورغم ذلك لم يهتم بهذا الجانب يوماً ولم يعوّضها عما تفتقده .

حاولت مراراً أن تشرع شبابيك بيتها لتطرد رائحة الخديعة التي تفوح فيه، لم تُرِدْ أن يتمادى في إحكام الطوق على سرّه، شجَّعته على البوح فأبى أن يفعل، ومع انقضاء الأعوام العشرة وانقضاض ذاك الإحساس عليها باستحالة استمرار حياتها معه، باتت تعتبر رغبة والدها جريمة، أما قبولها بالزواج به، فلم تكن إلا مُقامرة خاسرة، تَوصَّلت بعد فوات الأوان إلى نتيجة مؤكدة :

" ما دامت الرغبة تُجمِّلُ الأشياء، فإنها إلى حدٍّ كبير تُقبِّح الأقدار " .

أطلقتْ زفرةً قصيرةً شحذتها بابتسامة بائسة دفعتها للدنو منه آنَ تحركت بعد وقفتها القصيرة وراءه .. أيُّ امرأة خرقاء أنتِ يا آديت ؟!!

التفتَ نحوها، وبإيماءة من عينيه استفسر عمَّا قالته، أجابت :

– لم أقل شيئاً، عُدْ إلى محراب صمتك يا أشرف .

أردفتْ في سرِّها :

– خمسة أعوام ولم تسمع صرختي، هل سمعتَ الآن ما أقوله في سرِّي؟

دنتْ من لوحة أخرى رسمتها قبل أن تهجر ريشتها والألوان، وقد أحكم بألوان صمته وخداعه الخناق عليها، السلام المنتشر في لوحاتها، لا يشبه ما يضجُّ في روحها الآن من حزنٍ تجرَّأ على خضرة روحها فأحاله يباساً .

جُلَّ ما احتواه البيت من لوحات، نفَّذتها خلال السنوات الأولى من زواجهما، وما إن تَعرَّى من عيوبه، تشظَّى بكذبه، تمدَّدَ واستبدَّ بخدعه المتلاحقة، حتى غدا مجرد ظل مُشوَّه للونٍ قاتم، ثابت وراسخ، ارتدَّ عليها اللون دون الظل، ليصنع منها ألوان قوس قزح، انعكست على لحظاتها معه لتكوُّن لوناً وحيداً، طغى ثم استبد .

اعتبرتْ أنَّ في عينيه المنشغلتين بالتقاطِ صورٍ تختزنها ذاكرة الكاميرا المثبَّتة في جوف جبينه، عَطبٌ وجمود، تكاد النظرة منهما تمحو من عينيها كل بارقة أمل تتجرأ على الظهور، آلة التصوير تعطَّلت كما آلة رجولته، بات جسده الهزيل أمامها كمحرك لا ينفع نفضَ الغبار عنه لانعدام استخدامه وليس لعلَّةٍ أصابته .

هل يبدو في تَوغُّلِهِ بعمق اللوحة مُستكشِفاً لأسرار جديدة فيها ؟

ضحكتْ هازئةً من تصوّرها هذا، لاشك أنه مَسْحٌ خالٍ مِنْ أيَّةِ غاية، ما دام تحديقه في اللوحة لا يُحفِّزه على إعادة الحياة إلى تفاصيلهما معاً، ألوان روحه ما عادت قادرة على تشكيل خطوط جديدة لحياةٍ تجمعهما، وبالمقابل، تجد نفسها تأبى المكوث في مفازات الخنوع .

إنِ استطاعتْ احتواء برودة تجاه كل ما يخصُّها كامرأة، وإهماله لكل ما تحتاج إليه، وتساهلتْ في اعتباره لأي عملٍ تقوم به على أنه عمل باهت اعتيادي ولا تستحق معه حتى ابتسامة أو كلمة، فإنَّ وجوده الكئيب ما إن يلج البيت بعد يومي غياب في مقرّ عمله، لم يُنتِج محسوساً أو ملموساً، وهي في الحقيقة لم تثمر إلا الفراغ الذي يحاول من خلال إشاعته وتعزيزه إراقة طاقتها وتبديدها فيجعل له السطوة المثلى على أجوائهما معاً .

كان غيابه عنها وإن حضر، مِهمازاً دالاً على عجزه عن إتيان كل ما من شأنه أن يعزز حضوره، مما يؤكد انصهاره في أتون ذاتيته القاهرة، استمر على هذا المنوال مُتعمّداً تفريغها من أيّ محتوى إنساني، مُعتبراً أن الأنثى بعيدة كل البعد عمَّا يمكن للرجل الوصول إليه، لم يكن ليفرج عن حروفه ويخرج عن صمته إلا وقد أتى برطانة مُتخَمةٍ بالكذب، معجونةٍ بِسَقْطِ مَتاع لكل ما تحاول إخراجه منه، فلا تراه إلا وقد أنجز ما يخرجها مِنْ طوق أسرها به .

السَكينة التي امتهنتْ صُنْعَها شارفتْ على الذوبان .

لقد افتقدتْ أيَّ حِسٍّ تجاهه، بعدما نضبتْ الفرشاة من الألوان، استخدمها مراراً لتحديد بُعْده عن حافة الجنون، بضعة مليمترات فقط تفصلها عن جائحة الجنون، فهل تستكين لخداعه المعهود، بعدما وصل مؤشر الخط البياني لتمازج ألوان عبثه بحياتها وكذبه عليها إلى الذروة ؟

بدتْ عجينةُ الصرخةِ الأولى صَلْدة مُتشبِّثة بالمادة الخام بعدما خلَّفها في مركز روحها اللا مرئي، امَّحتْ جميعُ الصور الباهتة في صفحات تاريخه المُدان، كثيراً ما استسلمتْ لحساباته الظالمة فور تلقّيها أوامره، فما كان منه إلا أن رمى بها كعلامة دالَّةٍ على طريق الجنون، وهنا .. في هذه النقطة بالذات التي وصل إليها، تراهُ يُلقي بحمولة نفسه الموغلة في السفر نحو المجهول .

لم يستوعب أنها مهما حقَّقتْ من نجاحات في حياتها فهي تعتبرها صفراً أمام إخفاقها معه، حدَّثت نفسها :

يجب أن يعود الأبيض يسود ألوان حياتي، يجب أن تؤوب تلك الطفلة من رحلتها، ما دامت ترفض سقوطها في أتون الخديعة، أما آن لي أن أتحرَّرَ من الروح التي استعمرتني وعزلتني عن العالم ؟

استعادت ذاكرتها صورةُ ذلك الشاب الإسباني الذي حضر إلى معرض الفن التشكيلي مُرافقاً لمجموعة من أصدقائها الفنانين .

أليخاندرو .. لم يكن طارئاً على المقهى كما بدا لها، كان رجلاً مُفعماً بالجاذبية، وسامته جعلته محطَّ أنظار الجميع، ارتاح لهدوئها وحزن عينيها، سألها عنهما، ابتسمت لتُبعد عنه أي تصوُّرٍ لديه بأنها امرأة غير سعيدة في حياتها، لكنها لم تذهب بعيداً لتعتبر سؤاله نوعاً من اختراق خصوصيتها، فحاولت أن تجعل من ابتسامتها درعاً واقياً لما تخفيه في صدرها من حزن، ولكي تتجنَّبَ أسئلة لا تريد أن يطرحها في تلك العجالة وهي ما تزال تجهله، غلَّفت نظرتها نحوه بغموض مقصود، لكن، شجَّعها هدوءه، وصوته الرقيق، ومحياه البسيط، كانت نظرته صريحة تبعث على الارتياح .

قال أليخاندرو يومذاك ما استغربتْ الدافعَ وراء قوله :

- جَرِّبي احتضانَ المُبَعْثَر، كُوني حَقيبةً تحملُ الحلم على دربِ الشمس، المطرُ حِبرُ السماء، والغبارُ دَفترُ الحزين .

لم تَفه بكلمة بعد عبارته التي أدهشتها، ولم ينهِ زيارته للمعرض قبل أن يختم بالقول :

- تذكّري دائماً، في زمن الأحلام الموءودة، تخسري ما تَهبينه للفراغ وللعابثين بها .

لِمَ تتذكَّره الآن وهي في خِضمّ تفكيرها بمن يبدو غيرُ راضٍ عن نفسه وعنها، وفي ذات الوقت لا يكترث لعذابات روحه وروحها، لا بل يتراءى لها أنه يتقلَّب على جمر اللعنات التي تفضح خواءه من الداخل، إنه بلا شك كتلة تناقضات تَعيثُ جنوناً أمامها، لقد أوصلها إلى مفترقٍ أرضي في ظاهره، سماوي في حقيقته، وليس ثمة من يدرك ذلك سواها .

ثمة أخطاء وخطايا يرتكبها، واثقةٌ هي من ذلك، حرَّمَ عليها مناقشة الكثير من التفاصيل معه فيما يخص معتقداته وما يؤمن به، منعها من الغوص عميقاً في مسائل اعتبرها تتعلق بالخاصَّة، ولا يحق لمثلها أن تخوض فيها، لو كان يعتبر نفسه على دراية ومعرفة كافية بما يتبنَّاه من أفكار تقوم عليها مسألة إيمانه لكان واضحاً وشفافاً معها، يُدركُ أنها لا تأخذ الأمور على عواهنها، ولا تُسلّم بالموروث إلا بعد إحكام العقل وإعمال الفكر، حاولتْ مراراً الدخول معه في نقاشات بدتْ لها عقيمة، ورغم ذلك ما ارتضتِ الصمت، أو سلَّمت بما يبديه من طقوسٍ حافظَ عليها طوال السنين الماضية، يدرك تماماً أنها سوف تواجهه وتكشف سلبية ما لديه، لأنه ببساطة مُختَرقٌ وربما لا أساس له من الصحة، فمنعها عنه، وحجب عنها ما لديه بتعنُّتٍ واضح .

كثيراً ما تساءلتْ في سرّها عن بَسْطِه الخديعة زاداً في حياتهما معاً، وعن رفضه بذات الوقت الانحلال الأخلاقي في المجتمع، مُعوّلاً على أمور غيبية رسَّختْ التخلف، وأرستْ دعائم الجهل، بتسليمٍ كاملٍ لكل ما تركه السلف دونما إعمال للعقل .

- أوَ ليس الله هو أول من مجَّد العقل ودعا الخَلْقَ ليكون إماماً لهم احترازاً من الانزلاق في هاوية الادعاء الأجوف ؟

تساءلتْ عبثاً، أيقنتْ أنه يريد، وبإصرار، أن يأخذ بالطرق على اختلافها تبعاً لمصالحه وأهوائه، ولأنه لا يُعْمِلُ عقلَه فهي تخشى وصوله إلى درك التطرُّف سريعاً، لم يأبه بفكرة صلدة عميقة التأثير، أن التعصُّب يقود إلى التطرُّف، ابتداء بالفكرة وانتهاء بالإنسان .

obeikandl.com

-14-

فكرة مُروّعة انقضَّتْ عليها، بدأتْ تنهشها من الداخل، وتعارك روحها بكثير من الجرأة التي ما اعتادت عليها يوماً بمواجهة أشرف .

تحلَّق الجميع حول مائدة الطعام، كانت أخته سمية في زيارتهم منذ ليل أمس، سرعان ما نطقتْ بما فاجأ الجميع، لدرجة أن آديت نسيت كل ما يعجُّ في رأسها من أفكار .

- أخي، أنت عم تمشي بنومك من دون ما تكون واعي، لازم تنتبه ما تأذي حالك شي مرة .

ارتعدتْ آديت خوفاً آنَ تلفَّظَتْ سمية بعبارتها، تأكدت إذ ذاك أن المرحلة التي يمر بها باتت حرجة، سارعت تسألها عمَّا رأته، كان يهمُّ بقذف اللقمة إلى فمه، جمد للحظات، رمق أخته بنظرة استغراب واستنكار، أجابت :

- فقت الفجر بدي اشرب، طلعت من غرفتي، شفتو عم يمشي بالصالون، وقف شوي جنب المكتبة، قرَّبتْ منه، كان في عتمة، شغلت النيون وما تحرك، قرَّبت منه أكتر وناديت عليه .. ما رد، تركني ورجع لغرفته .

شهقتْ ورد وأمسكتْ بيد عروة طالبةً منه أن ينهضا ليمثّلا المشهد، حاولت أن تكبتَ ضحكتها واكتفتْ بالقول :

- هي ما شفتا بأي فيلم تابعتو، يا ريتني كنت مكانك يا عمتو .

رمقها والدها بغضب، فاستدركتْ :

- احم احم .. اي عادي، بتصير .

ببرجوازية راح أشرف يرطن باستعراض أفكاره عن وجوب الصلاة وعدم الانقطاع عنها، حاولت سمية صدّه ومنعه من مناقشة الموضوع أمام طفليه، سارع يتهمها بالجبن والمخاتلة، بالكفر والتفكير الأعمى، طلبت آديت من طفلها أن يمضيا إلى غرفتهما حين بادرت سمية تقول له :

- بأي حق تكفّرني ؟!

- في كل مرة نلتقي هنا، أراكِ تستمرين في رفض أي نقاش بالموضوع، تحاولين منعي من النطق بما يتوجب عليَّ قوله، تصدّين كل كرة أوجّهها إلى مرمى التقوى في نفسك علّي أسجّل هدفاً ينير قلبك، فأجد نفسك الأمّارة بالسوء تزداد توغلاً في شباك الرفض، سأمُزّقها وسترين .

انبرت آديت تردُّ عليه محاولة التخفيف من وقع كلامه على سمية :

- ولماذا ترهق نفسك بنا ؟ الله هو من سوف يحاسبنا ولستَ أنت .

رفع إصبعه أمام وجهه مُحذّراً، تكلَّم وهو يطيل النظر إلى رأس الإصبع بأمارة تشي بتوجيه إنذار أخير :

- لا تظنّي أنكِ بمنأى عما قلته لأختي، ذنبك أكبر منها لأنك تسمعين هذا القول مني باستمرار وتأبينَ الانصياع إلى أمري، أنتما الاثنتان لابد من أن يأتي يوم ويصيبكما الهلاك .

- جميل أن تطهّر قلبك قبل أن تلتفت إلى طهر من هم حولك، تأكد أن ما ترمي إليه وإن حققته، فلن تحيد قيد أنملة عن إشباعك لملذاتك التي أغرقت نفسك في لجتها، وما حديثك الآن معنا إلا هروب مما لا تريد مواجهة نفسك به .

لم تفلح فيما رمت إليه بقولها، فقد نهضت سمية لترتدي ملابسها وتغادر البيت، طلبت من آديت أن يرافقها عروة و ورد، ولكي تطيّب خاطرها، وافقت.

قالت سمية وهي تنظر إلى حقيبة يدها وتحرك الأشياء فيها، تبحث عما تريد قوله، في الوقت الذي كانت فيه أصابعها تنزلق بسهولة فوق الماضي العابر أمام عينيها بعد أن فتحت باب النسيان على مصراعيه :

- رغم القبح الذي كنتُ أراه فيه، كان هناك ما يجعلني أصبر وأدفع بي إلى اختلاق الأعذار والمبررات له كيما أستطيع المتابعة، كنتُ أمتلك المقدرة على احتمال ذاك القبح، لكن الآن، لم أعد كسابق عهدي بنفسي، أما هو فليكن كيفما شاء، ما عاد القبح بحاجة إلى أقنعة ليداري سَوْءَةَ صاحبه، وما عدنا بحاجة إلى حمل أقنعة الغير ريثما يُغيّرون ما يرتدونه فوق وجوههم، أراحونا من هذه المهمة السمجة، لكنهم بالمقابل، رمونا بنار التكفير .

- أرأيتِ ؟ كيف لي أن أتحمَّل منه المزيد بعد ؟ تخيَّلي لو أنَّ عاصم كان بهذه الصفات، أكنتِ احتملتِ العيش معه ؟

- لا أعرف آديت، كان الله في عونك .

- للأسف، ذُبنا حتى تهنا في بحثنا المحموم عن المسرّات، انكشفنا حتى اخترَقَنا وهج الشمس الحارقة التي كشفت نفاقنا و زيفنا، فتجرّعنا الحسرات والخيبات والانكسارات .

انبثقت ذكرى قديمة لرجل مُسن صادفته مرة أثناء تجوالها في حارات دمشق القديمة، روت لسمية ما قاله لها يومذاك :

- لا يعوَّل على تاريخ يا ابنتي، عندما يريد الإنسان أن يصل إلى غاية ما، تراه يخفي ما يريد، يجتزئ ما يدعم ادعاءه والصورة التي يُصرُّ على إظهارها، محاولة منه في إقناع الآخر بأن هذه الصورة هي الحقيقة الراسخة، إن انسحبت على الماضي أم حاكت الحاضر أم استشرفت المستقبل، وبأن التاريخ الرقمي للصورة هو الحق .
يا ابنتي، تذكَّري دائماً أنه ليس ثمة وجه واحد للحقيقة وكذا للحق، وهذا ما يُفسّر الصراع المستمر في الحياة على مر العصور .

obeikandl.com

قبل أن تبتعد عنه لتلزم غرفتها بقية النهار بعد مغادرة سمية منكسرة وحزينة، قالت له :

- لستَ مُضطراً للسيرِ فوقَ جَمْرِ الكذب، إنْ كنتَ تَراهُ وَرْداً أحمرَ للحظات، سَيحرقكَ .. وربما يُذيبُ لحمَ قَدميك، الكذبُ يأكلُ الأخضرَ في قلبي، ويحرقُ اليابسَ في قدميك .

دلفتْ إلى غرفتها من باب الحمام الداخلي، جلست أمام المرآة تجفف شعرها. حاولت إقصاء تلك الفكرة التي راودتها مؤخراً، نحَّتها جانباً بأنْ فكَّرتْ في إعادة ترتيب مرسمها والعودة مُجدَّداً إلى الألوان وقماش اللوحات والرؤى التي تعيدها إلى الحياة التي تهوى، لن يعيق ذلك اهتمامها بطفليها، سيكون بإمكانها تحريك الراكد في حياتها وعدم الاستسلام لما يحاول أشرف زجَّها فيه من وحدة و وحشة

" عندما نثرثر فإننا نسلِّم الآخر مفاتيح استغلاله لنا ليغلق علينا، فتنةٌ ترسم درباً، البداية كلمة سوء والنهاية مقصلة " .

كتبت عبارتها تلك في دفترها الصغير واسترختْ فوق السرير مُستسلمةً لتدفُّقِ الذكريات بعد أن تلقَّفت ألبوم الصور .

كانت تجهل كل شيء عن أشرف، أكثر ما انشدَّتْ إليه هو تَعلُّقه بدمشق ورفضه مغادرتها، فسَّرتْ ذلك بأنَّ علاقته بها لم تقم على طمعٍ في السفر، لكنها اكتشفتْ مع مرور الأيام أنَّ ما جمعهما ليس حباً، بل كان هدفه إرضاء والده، طمعاً بما هو موعود به منه .

لم يكن الزواج هاجساً لديها، بل كانت في بحث مستمر عن حالة حب تُحرِّضها على إحالة بياض القماش إلى لوحاتٍ تُجسِّدُ الحياة، ولم تكن دمشق سوى المسرح الكبير الذي أرادت أن تنشر فيه القماش الأبيض ليحمل عبر ألوانها وفنّها معنى الحياة كما تراها .

كثيراً ما عبَّر لها أشرف في تلك الفترة عن تَمكُّنها من فتح باب قلبه، بالمقابل، اكتشفت أنه سرعان ما أطبقه عليها، فارضاً الحصار بديكتاتورية مُبطَّنة، وبتعصُّبٍ بَيّن، اكتشفتْ فيما بعد الأخطر من ذلك، مشاعره نحوها زائفة، وحبه كان مجرد وسيلة، حينما تأكَّد لها ذلك، واجهته بعبارة ما تزال حتى الآن مُصانة في رأسه، لدرجة أنه يذكّرها بها فيعيب عليها قولها، من دون أن يجرؤ على إتيان ما ينفيها، حتى غدت تلك العبارة تؤكد حتمية المآل الذي تنتهي إليه اليوم :

- لـن تُكمِـلَ مـا ينقصُـكَ، بـي، سـأزيدُكَ فراغـاً إنِ اقتربـت، لا لرغبتي في سـلبِكَ شـيء، بـل لأنَّ غايتَـكَ أنْ تُـنقِصَ مـا لـدي، ومـن ثـم تعمـل على سحقه، محال أن أسمح بتحقيق مرامك .

بُعَيد مواجهتها له بذلك استرعى انتباهها التغيُّر الذي طرأ عليه، حتى كادت تنسى كيف كانت صورته قبل ذلك، لكنه كان تغيُّر مُفتَعل وكاذب، امتهن الصمت المخاتل سريعاً، ليكمل ما بدأ به .

تَفقَّدتْ الصُّورَ المعلَّقة على جدارِ حياتها، وجدتْ وَجهها غائِباً، لم تكتشفْ بسهولةٍ خيطَ الحياةِ المرفوعِ إلى السَّماء، رذاذُ الدَّمعِ يُغازلُ نَدى الأشخاص الحالمين المبتسمين في بقيّةِ الصُّور المنتشرة على الجدار، في زحمةِ الوجوهِ .. أضاعتْ وَجهها، تَملَّكتها غريزةُ الوجود، تجاسرتْ على فَقْدها الأنا، أما الوجه الآخر الذي تراءى لها على سقف غرفتها فقد تفنَّنَ في استبدال وجهه وفقاً لما يتناسب مع أهوائه ورغباته .

كانت تستغرب سبب تغيُّره بين الحين والآخر، تسأله فلا تحصل على جواب، في كل مرة ينكفئُ في عزلته، يتركها لصخب الجدران، رغم ذلك كانت تزداد يقيناً بأن الله ينظر في أعماق قلبها، ليجعل من الحب ترياقاً يُطهّره، بقيتْ ثابتة على أنَّ حياةً أخرى تنتظرها، وبأن ما من شيء في الحياة سيبقى على حاله .

اخترق أشرف عزلتها، يدعوها إلى التوجه نحو المطبخ لتعدَّ له وجبة العشاء، من دون أن يسألها عن سبب اختفائها عنه طيلة ساعات النهار .

بالكاد استطاعت الإفراج عن كلمات بعثر غبار الحزن الطللي حروفها ما إن جلست إلى طاولة الطعام .

– أرغب في السفر .. أريد زيارة أهلي .

جرعةً من الخلّ أضافتها بعبارتها على اللقمة التي تناولها، قال :

– لماذا ؟

– ربما أكون قد اشتقت لرؤيتهم .

تبرَّمتْ هازئة من سؤاله واستطردت :

- سوف أسأل عن حجز لي بمكتب الطيران، إن كنتَ ترغب بمرافقتي أخبرني الآن .
- اوف اوف اوف ولِمَ الاستعجال ؟ تمهَّلي قليلاً لنناقش الأمر ونتفق على التفاصيل، ربما لا يكون الوقت مناسباً للسفر .

رمته بنظرة باردة، ثم أردفت :

- أريد أن أعمل، يجب أن أبحث عن وظيفة .
- لماذا ؟ هل أنقص عليكِ ما تطلبينه من مال ؟!
- العمل سيحقق لي الكثير، لن يكون من أجل المال فقط .

رمقها بنظرة قاسية وقال :

- هل تُلقينَ عليّ نتائج عزلتك منذ الصباح ؟
- لا .. أطرح أفكاراً لأرى إن كان بالإمكان تنفيذها خلال عام .

لم تستطع أن تكمل وجبتها، خُيِّلَ إليها أن عروة و ورد يجلسان معها حول مائدة الطعام، نهضت وقد غصَّتْ بدمعها .

أحسَّتْ أنها تفتقدهما حولها وتشتاق إليهما، ولكن حتى بعد عودتهما، ما الذي سيتغير هنا وما فائدة البقاء في هذا البيت ما دام البؤس منتشر في أرجائه ؟ الفكرة تتشبث برأسها بمخالب قوية .

كثيراً ما حاول إقناعها بأن الحلم كذبة كبيرة، يسخر المرء من نفسه، تحت شمس مؤدلجة لا تخرج عن سيناريو مُحْكَم التفاصيل بدراماتيكية تغازل الغياب، نتف ثلج تبدو الأحلام، تذوب سريعاً، ليبقى اللا شيء عبثياً رجراجاً يدّعي المثول ومن ثم السيطرة كيما يهيمن الإحساس وحده، فارغاً من أي محسوس، مُخاتِلاً لكل ملموس، ليفتعل السطوة التي تُمكِّنه من حجب الحضور ليغيره، وليسيطر على

المجاز فيبقى الممكن مُشرَّداً، مُشرَعاً على الخيال دونَهُ الواقعُ واقِعاً في أزمات كبيرة .. كالحلم .

انشغلت بتطريز ستارة مرسمها، أثناء متابعتها لفيلم يتناول قصة اجتماعية، حين أنهى جولة شروده ومضى إلى غرفة النوم، تبعته على الفور، اندسَّتْ تحت اللحاف، أحاطتْ وسطه بيدها، همست وهي ترتعد :

- أنا بردانة .
- وهل أكون مدفأة لكِ لكي تنعمي بالدفء وأنا أبرد ؟
- ما بالُكَ فَجَّاً معي ؟
- سأنام في الصالة .
- ألا ترى أنك تقسو عليَّ كثيراً ؟
- سارعتِ نحوي لتسحبي الدفء من أوصالي، فأين الخطأ فيمَ قلت؟
- حاشاك .. أنتَ لا تُخطِئ أبداً .

بعد لحظات، دنت منه تعانقه، همست في أذنه :

- هل ما زلتَ تشكو من نفس الأعراض ؟
- وكيف لي أن أعرف ولم ألمسك بعد تلك الليلة ؟

لم تكن ترى ملامحه، لكنها خمَّنتْ أنَّ حدقتي عينيه تحومان كخفّاشين في سماء الغرفة هرباً مما ترمي إليه، قالت له باستخفاف :

- ألا تريد أن تجرِّب ؟ ربما الوقت الذي مرَّ قد نفعك ما دمت رفضت العلاج، أم أنك تكتفي بعادتك التي تمارسها في الحمام بعد أن تكون قد استمتعت بأحلامك الإيروتيكية ؟

همهم قبل أن يجيب :

- أريد أن أنام الآن، آديت .. كنتُ أعاني من احتقان لحظةَ فاجأتني بدخولك الحمام بحجة أخذ ملابسي الداخلية لتضعها في الغسالة، كما ..
- ماذا أيضاً ؟
- كما أردتُ اختبار قدرتي على الانتصاب، ولكن .. ألا ترينَ أنَّ هذا الموضوع أمسى هاجساً لديكِ ؟!

ابتعدتْ عنه وهي تزفر حنقاً وتلوك حروفاً لم يستطع التقاطها، رفع عنها الغطاء وأصرَّ على معرفة ما كانت تهذي به، قالت له وهي تشدُّ الغطاء إليها :

- لا أبداً .. ولماذا يُشكِّلُ هاجساً لديَّ ؟ أنت تنعم بالدفء وأنا أسبح في صحراء سريرك هذا، الحياة برفقتك لا تُعاب بهذا التفصيل الساذج
- ما الذي تقصدينه بقولك هذا ؟ أتريدين أن نتشاجر قبل النوم ؟

التفتتْ نحوه، استوت في السرير والدم يغلي في عروقها حنقاً من إجاباته الباردة، قالت له وصوتها يتهدَّجُ غضباً :

- أجل أريد أن أتشاجر معك وأُسْمِعَ الجيرانَ حديثَنا الفاحش .

نهض حاملاً غطاءه وخرج من الغرفة مُحتدماً وهو يقول :

- قلتُ لكِ أريد النوم في الصالة .

أقعت في السرير وفي الذهن طنين عشري، حاولتْ مراراً إيقاف تَدفُّق الحزن في صدرها والذي أضحى من دون علمها جزءاً من كيانها فما استطاعت، عشرة أعوام لم تزدد فيها إلا حزناً وكمداً، أما هو فما أكسبته إلا بُعداً عنها وانغماساً في أتون الجنون .

تذكُرُ تماماً أنه ومنذ خمس سنوات، يكاد لا يقترب من جسدها حتى يكتفي بحركات خاطفة فيها من الشعور بالمخاتلة أكثر مما فيها من الإحساس بها، سرعان ما انتصب حائط العجز بينهما، وزاد من تباعدهما ما هو أدهى مما أُصيبَ به، وكأنه مُذْ ذاك قرَّر التلذُّذ بعذابها النفسي .

دفنتْ وجهها في الوسادة، بكتْ، نشجت، غضبت، حاصرها الغيظ فتأبَّط ذراعيها، شعرت بالأسى والحزن، ومن ثم غرقت في حالة يأس تام، وخلال ساعة من الزمن استُنزِفَ جسدها بالكامل، خنقتها نوبة من الاكتئاب، أصبح عقلها فارغاً ولم يعد بمقدورها أن تقرر شيئاً أو تشعر بشيء، بقيت ترتعش كالأشجار الخائفة من قدوم العاصفة .

وكما في كل ليلة تمر .. الكابوس وحده ما يجعلها تهبُّ نحوه لتخلِّصه من براثنه قبل أن يتمكَّن منه فيرديه صريعاً، كان في تلك اللحظات يسمع الشياطين تجأر في أعماقه وتغير على باب بيته لكي تحطمه .

لم تُخفي قلقها عنه حيال الكابوس الذي يراوده في كل ليلة، وما تحدَّثت عنه سمية زاد من خوفها أكثر، إلا أنه لم يفعل شيئاً ولم يفكر حتى بمراجعة الطبيب .

obeikandi.com

obeikandl.com

-16-

للمَرايا حِكاياتٌ تُتلى على مَسامعِ الغُبار، والغيابُ يَرسمُ ظِلالاً على جِدارِ القلب، يَنوءُ بحملِ ابتسامة، يَثورُ لبقعةِ دَمْع ..

هل تَنسى المرايا ما أودَعَتهُ في الصَّهيل ؟!

لابد من انتظار بوح الغُبار، لابدَّ أنْ يَأتي بخبرٍ عما يجول في الروح، بعدَ تَحليقِ الوَجيب .

- وماذا بعد ؟

سؤال واجهتْ به نفسها وهي تُحدِّق في المرآة قبل خروجها إلى نزهتها الصباحية.

نسيتْ سؤالها عندما أمعنتْ النظر في وجهها المسكون بالأسى، آلمها انسحاب أثر الشعيرات الدموية الواقعة تحت الجلد حيث كانت تصبغ بشرتها باللون الوردي، وقد حلَّتْ مكانها طبقات قاسية، كأنها دروع انتشرتْ لتواجه الهواء ولفحاته، بشرة قَسَتْ وجَفَّتْ، وجه لا حياة فيه .

- لماذا أهملتُ نفسي؟ هل يُعقل أن يكون هذا وجه امرأة في الثلاثين؟

وهنت النظرة في عينيها وبدت منكسرة وعميقة في حزنها .

رغم ما استرعى انتباهها، تَيقَّنتْ أنَّ شكلها الخارجي يبدو بحال أفضل بالمقارنة مع ما تشعر به .

مرَّ أشرف بمحاذاتها وهي ماتزال واقفة أمام المرآة، همس بصوت خفيض وبنبرة ساخرة استفزتها :

- هل تُحصينَ خطوط التجاعيد في وجهك ؟

رشقته بنظرة قاسية مُبتلَّة بالكراهية، تهدَّج صوتها بنبرة تشي بأنها أُهينتْ :

- أجل، أظن أنها أكثر عدداً مما يحتويه وجهك .

اتجهتْ صوب غرفة النوم لترتدي ملابسها، خرجتْ بعد دقائق، بادرها بالقول :

- هل ستخرجين إلى نزهتك الصباحية وحديقتك الغنَّاء وأنت ترتدين هذه الثياب؟
- سأزور صديقة تعرَّفتُ عليها خلال المعرض .

حدَّق فيها مُتعجِّباً، قال :

- ومن تكون هذه الصديقة الجديدة ؟!!
- هل أنت مهتم حقاً بمعرفة من تكون ؟
- الطقس سيء في الخارج .
- وهل تخاف عليَّ أيضاً ؟!! قُلْ كلاماً غير هذا يا رجل .
- آديت .. لن تخرجي، أنت تعلمين أنه يوم راحتي في البيت .
- مهملةٌ أمسيتُ معك، فلماذا تلومني على الغياب ؟!

دنتْ منه أكثر، وهي تنطق كلماتها ببطء وكأنها آلة لتجعل بين الكلمة والأخرى فاصلاً زمنياً لم يتعدَّ الثانية :

- أنا . لم . أَعُدْ . أطيقُ . الحياة . معك . على . هذا . النحو . افهم . أرجوك .

حدَّجها بغضب، قال وهو يتلعثم بحروفه :

- أعلم أن كل ما يصدر عنك بسبب عدم مُقاربتي لكِ في السرير ؟

رمقته بازدراء، استدارت حوله لتتجه نحو باب البيت، تبعها صارخاً :

- لماذا تُصرّين على التمرُّد والمعاندة ؟

أسرع نحو الباب ليقف أمامها مادَّاً يده كمزلاجٍ خشبي، طلب منها أن تبقى لتسمعه، كانت تنظر إليه بتحدٍّ، واجهته وقالت :

- عندما أنزوي في المطبخ لا أكون متمردة، لكن إذا ما نظرتُ إلى الحياة وحاولتُ التمسُّك بما يثبت وجودي فيها أغدو آثمة بنظرك وعنيدة .

بُحَّ صوته وغَلُظَ وهو يصرخ قائلاً :

- لم أتلاعب بكِ كما تتوهمين، كنتِ على الدوام عارفة بما هو قائم بيننا، ولستِ من النساءِ الساذجات لأسمعَ منك الآن تذمُّراً أو اتهاماً بأني كنتُ أستغلّك .

بهدوء أثاره واستفزه .. قالت وهي تحدق في عينيه :

- نتناسى مُتعمّدين ما اتفقنا عليه، وحين يريد أحد الهروب فإنه يثبّتْ خطوته الأولى في قلب من كان يحبّه، هل ترانا نتنكَّر لما بدأنا به ونجعل النسيان حجة واهية لما نريد الوصول إليه ؟ ذرائع ومبررات يُغلِّفُها صمتٌ مَقيتٌ يُبعدني عن طريقك .

بانهزام قال :

- آديت، أنا مُنهَك، يجب أن تشعري بي .

استدارتْ لتقف أمام الواجهة الزجاجية، همست :

- أنت العارف بخفايا نفسك وما تضمره، أنت تملك مفاتيح راحتك لكنك تُصِرُّ على رميها بعيداً عنك .

أطلقتْ تنهيدة عميقة واستطردت :

- ما دمت تكرر الشكوى ذاتها فلن أتألم لحالك .

أنتَ الذي وضعتَ القيود داخلك، فكبَّلتَ روحك وجعلت من جسدك عكازاً ضعيفاً مُتهالِكاً يتكئ عليه العجز، أسرتَ كل أحاسيسك فصددتها عن الحياة الحقيقية، استسلمتَ بجبن وخوف لحالة تدَّعيها، حالة زهد وتفرُّغ للعبادة وكأن الله يأمرك أن تهمل شؤون بيتك وتغلق عليك باب قلبك، أما عرفت أن الله .. محبة .

أغمضتْ عينيها، بدت مُنهَكة القوى، تعتمل في داخلها مشاعر غضب مكبوتة على وشك الانفجار .. أفرجتْ عن عينين دامعتين ونظرتها تبحر فيما فات .

انقضَّتْ عليها الصور منذ عشرة أعوام خلت، في كل مرة كانت تتحاور معه في مشكلاتهما لا يجدان لها حلاً، كانت الأحاديث ترافق حجر الرحى والعصبة السوداء مُحكَمة تخفي عينيه، والدوران طلل حي، ذاك الدوران المنفلت عن دورة الزمن، اجتاحها .

بدتْ لحظتئذ وكأنها تهوي في رمال متحركة، تعجُّ نفسها بحِمْلٍ أنهكها وتريد قذفه لترتاح منه، قال بحزم وكأنه لملم شتات أفكاره :

- كل ما في الحياة فارغ ولا قيمة له، أنتِ دائمة التذمُّر والتهجُّم عليّ، والأولى أن تشكريني لأني أُقصيكِ عن نفاق الآخرين .

كانت تذرع الصالة جيئة وذهاباً وتحرّكُ يديها في الهواء بعصبية واضحة :

- قبل أن يعنيك التحدث عن قُبْحٍ تراهُ وحدك في الآخرين، انتبه لابتساماتهم، ثمة صدقٌ فيها تفتقده، أشرف .. أنت من تبدَّل وتلوَّن حسب توجُّهات ومعتقدات وقناعات من تجالس، لقد شهدتُ هذا الأمر بنفسي مراراً، وعندما واجهتُكَ به مرة بعد زيارتنا لأهلك منذ سنين خلت، امتنعتَ عن زيارتهم كي لا أكتشفُ فيك المزيد، وربما لأسباب أخرى أجهلها، قل لي بالله عليك، بماذا يعنيني أمر الآخرين إن تحدَّثوا بصدق أم بكذب ؟ من أهتم لأمره هو أنت، لأنني أعيش معك لا معهم، لكنك أردتَ أن تكون حياتنا معاً كما تريد أنت وتهوى، وكأن الحياة مشاركة في المكان فقط .
- هل عدتِ مُجدَّداً إلى ذاك الزمن ؟! هل تُؤلِّبينَ نفسك عليّ لكي تبرِّري سواد قلبك تجاهي ؟
- أوَ تتهمني أيضاً بسواد القلب يا رجل ؟!! لو كنتُ كما تقول لما صبرتُ كل تلك السنين، صحَّ القولُ بأنَّ الطيب لا يؤذي الآخرين بل يؤذي نفسه، جعلتني مصدر راحتك ولم تكترث يوماً لحالي، دفعتني للانشغال بالاهتمام بك ومراعاة احتياجاتك على أنه واجب والتزام أخلاقي وديني، من فرط أنانيتك لم تستطع أن تتصور أن هناك حياة لمخلوق آخر يشاركك فيها، لم تستطع أن تنظر إلى الأشياء إلا بمنظارك أنت، جعلت من حياتك نظاماً متماسكاً، حياة ممتلئة كاملة اعتبرتها الوحيدة الجديرة بأن تُعاش، أما حياتي معك فسحقتها بكل برود .

زمجر قائلاً :

- آديت، لن تخرجي وتتركيني وحيداً .. لن أسمح لكِ بمغادرة البيت .

ثمة رائحة تسربت إلى أنفها، أيقظت فيها السبات الطويل لأحاسيس كانت غافية فيها، رائحة بيت أهلها، لا يمكن أن تخطئ فيها أبداً أو يخالطها ما يُشتِّتُ حواسها

تجاهها، أهو افتقاد النشوة في مكان حُرمت فيه من عنفوان الشباب المفعم بالأماني والغبطة ؟ أم هو الحنين الخفي الذي ينبلج كصباح بهي فيخترق مراكز الإحساس ليبعث فيها الحياة ثم فجأة تكتشف أنه لم يبقَ لها غير صدى الأنين الموجع الذي احترف الصمت ؟

قالت بأسى :

- بِتُّ أعتبره قبراً، هل تدرك ذلك ؟ أهذا ما أردتَ زرعه بي ؟ إن كنتُ اعتمدتُ صيغةً مختلفةً عنك في قراءتي للأشياء وفهمي للحياة، وتأقلمتُ على العيش هنا وبادلتني دمشق حباً بحب، فقد حقَّقتُ ذلك بمفردي، أين كنتَ أنت ؟ في عالمك الخاص وصمتك المريب، دمشق هي من راعت ضعفي في وقوفي بمفردي في كل ما يعني هذا البيت، أنا في حالةِ مواجهةٍ دائمةٍ لريح نفسك العنيفة والمتناقضة، وإنْ تظاهرتَ بالرقة والهدوء، فقد غلبتَ الريح بقسوتك، لا أعرف إن كنتَ تدرك أن الإنسان لا يغدو إنساناً حين يجعل القسوة صنو وجوده .

دنتْ منه، أمسكتْ يده، أزاحتها عن طريقها برفق واتجهت إلى الخارج، تبعها ليقف أمام باب البيت ضارباً فخذه بيده، مُتحرّقاً .

ناداها بصوت مجروح، التفتتْ نحوه قائلة :

- كثيراً ما سألتُ نفسي إذا كنتُ ما زلتُ أحبك أم بتُّ أكرهك، وما أصعبه من سؤال !

دنا منها بسرعة، يريد منعها من الرحيل، ابتلع جمرات الغضب ثم قال هامساً:

- آديت .. هل بت تكرهينني ؟

كانت نظرته مزيجاً غير متجانس من الندم واليأس والحزن والخيبة والصدمة

رنتْ نحوه بتَهَكُم، ثم انطلقت .

أثناء سيرها في شوارع دمشق، فكَّرتْ مُطوَّلاً بحياتها، ما كان يؤرقها حقيقة الأمر هو تعامله مع طبيعتها الإنسانية على أساس الجنس، فجنس العقل لديه ذكوري محض، وجنس القلب وفق قناعته أنثوي صرف، لذا فقد كان من العسير أن يتفقا في كثير من الأمور، ولم يكن اختلافهما وخلافاتهما الناشبة بينهما حديثة العهد، إحساس الأنثى لا يخطئ أبداً، وقد أيقنت منذ البداية أنه يرتدي الكثير من الأقنعة .

زفرت بحنق وهي تنشب أظافر نظراتها في إسفلت الشارع الممتد أمامها، يترنح في شوارع المدينة ضوء أحمر وحيد يرهو فينتشر في مساماتها ليغرقها في السواد، دمها يغلي في عروقها، وليس بمقدورها فعل شيء، شلل مباغت قدَّرته لنفسها بالابتعاد عن حلمها، فكرة مجنونة راودتها بقوة، ذات الفكرة تنقض عليها بشراسة .

لاحت لها عن بُعْد صورة كبيرة لفيروز كُتب عليها عنوان ألبومها الغنائي الجديد : " ايه في أمل " .

تدرك أنَّ الزمنَ عاملٌ مساعِدٌ في تحقيق الأحلام، لكنه لا يكون أبداً مُحطِّماً لها، بل ثمة مَنْ يحتجز أدواتها ليوقفها ويمنع الحالم عن تحقيق حلمه، وهذا ما فعله أشرف تماماً، أوقف كل طموح لديها عندما استسلم لفكر غيره، يوم حكموا على عقله بالحجر وارتضى ذلك لنفسه، و زاد عليه بأن أراد تنفيذ ذات الحكم عليها

لم يعِ أنه الملاذ الآمن والأوحد لها منذ قدمت إلى سورية، فأبعدها عن كل ما يُبهجُها في الحياة، أقفل عليها على الرغم من المساحات الشاسعة التي تحيط بها، لم يفكر إلا بنفسه، أهمل كل شؤونها ولم يلتفت إلا لما يريده هو وما يرغب به .

إن كانت قد تنازلت عن حلمها فهذا لا يعني أن تستمر بخضوعها له، أيقنت أن من يتنازل عن حلمه يخسر معنى الحياة وجدوى وجوده فيها .

بكت بحرقة وقهر حين تذكَّرتْ عجزه، وأنانيته في اعتبار هذا الأمر هامشياً في حياتها، يدرك أن جُلَّ إحساسها مقيَّدٌ بالفراغ واللا جدوى، وقد قَبِلَ بذلك، حارتْ بتناقضات شخصيته وتقلُّباتها، وأكثر ما تجلَّى ذلك في عجزه، فتارة يرميها بسهامه ويتهمها بأنها السبب فيه لبرودها وعدم تفاعلها معه، وتارة أخرى يعيدُ رفضها لمسارِ حياتهما المزمن في بلادته إلى عجزه فيسلّم بالأمر الواقع ويدعوها للقبول به رافضاً اعتراضها، وما إن تهادنه فتصمت حتى يعاود الحديث فيه فيرتدّ عن موقفه ويحاول البحث عن طريقة تعيد إليه أمجاده الذكورية، فإن شجعته على مراجعة طبيب يُسارع في اتهامها بأن هذا الموضوع يشغل الحيز الأكبر من تفكيرها، وبأنه الأساس الذي تعتمده في تمرُّدها المباغت وتغيُّرها المستهجن، ومن ثم يُنكر وجود أية مشكلة من ناحيته، فيلوذ بالصمت لينهي موسم الكلام، ويغط في سباتٍ يوقظه بموقف جديد ينقلب فيه على ما أبداه سابقاً .

النسائم تلامس وجهها وهي تمعن في الطريق المؤدية إلى مقهى النوفرة، تجوسُ عيناها بحثاً عن الفرح في عيون من يمر بها، دنت منها عجوز، دسَّتْ في يدها منديلاً وقالت لها بصوت خفيض :

- طولي بالك يا بنتي، ما في شي بيستاهل .

شكرتها بعمق، ومشت تكمل طريقها في أزقة دمشق القديمة .

تلوبُ باحثة في مُدُنِ روحها، بحثاً عن تضاريسها، تَوْقاً يُنشدُ التلاقي، إنشاداً لبوحِ عَاصفة الحنين، عَزْفاً على أوتارِ شَغَفها بالحب الذي تحلم به .

تجوسُ وتَصهل المسافات بردّ الريح خائبة من دونها، هديل الحمائم يُخدِّرُ أنينَ البُعْد لتلثمَ في مَساماتِ عِشقها معنى الحنين، دنت من واجهة محل متخصص ببيع الآلات الموسيقية، تراءى لها صولجان مغروز في عمقه رمح، تُرْبَة روحها تَبتلُ بأنغام ما تشتهيه نفسها، تعرُّق أصاب أصابعها في اندماج بلوحة للعذراء رُسمت بلون الطهر، لمسة للغة الحب التي تحنُّ لها .

" أمي .. أستعيدُ صوركِ في دمشق، وأنتِ التي ما برحتِ الذاكرة "

بتأثُّرٍ عميقٍ همستْ لنفسها وقد وصلت إلى مقهى النوفرة .

حنينٌ جارفٌ طالما استبدَّ بها وأيقظ فيها معرفةً مُستتِرةً مُغلَّفةً بلزوجةِ الحلم الساكن فيها

تستمر النسائم في الهبوب مُضمَّخةً بأريج الما وراء، والوعود المقطوعة من ثغر الزمان الآفل .

ليس موتاً ما تضمَّنَهُ حنينها إلى ذاك الحلم الذي يحيا من جديد، ليس وَهْماً تَغذَّى على مَصْلٍ وحيد، بل هو المخاض الأكيد لولادةٍ جديدةٍ تُنحّي الترابَ الغامضَ الذي اعتلى جذورَ الحلم، ليكشف عن المجهول المتشبِّث بتفاصيل الحياة .

لم يكن لنظرتها الممعنة في جهالة المآل من فكاك، غموضُ العبيرِ الآخذِ في الامتداد، في نقطة تتوزَّع فيها محاور جديدة لطرق مُعبَّدة بإسفلت الحنين،

اختارت منها طريقاً وحيدةً لتسلكها، ولتذرو من حولها حروف الحكاية المترامية على جانبيّ الطريق المتعرِّجة لينجلي الضباب كاشفاً السبيل .

حواسٌّ تنافس السماء في رِقَّتها، صمتٌ يلتصقُ بحواف الأحجار التي تتركها خلفها مما يحيط بالجامع الأموي، كَثْرَةٌ في كل ما حولها، تجعل للموجود بُعْداً آخر، تُبصِرُ عيناها طيف أثرِ الأُلفة مِنَ بعد الوحدة بلقاء مي، تُبصِرُ أكثر من ذلك، فاليوم بصرها حديد، وفي لهفةِ ما تقعُ عليه عيناها رأتْ مي في انتظارها .

obeikandl.com

-17-

مضى النهار إلا قليله وقد نال منها التعب، أرادت العودة وبرفقتها عروة و ورد، رغم معرفتها أن سمية بحاجة وجودهما معها لمؤانستها في وحشتها، إلا أنها لم تعد تمتلك صبراً على غيابهما عن البيت .

حين التقت بها، سألتها عن أحوالها مع أشرف، لم تُردْ أن تتحدث عنه بوجود طفليها، فاقترح عليهما عاصم أن يلعب معهما في حديقة البيت، كان يحبُّ ظُرْفَ عروة وذكاء ورد ومرحهما الذي ينسجم مع مزاجه الطفولي المنطلق وينبجس في كل لحظة يلتقي فيها بطفل .

تهكَّمتْ قائلة :

- افترضتُ أن يكون ضاجَّاً بالحياة والحب كما أي رجل تجاوز الثلاثين من عمره، لكنه، دفعني لأعتاد على طقوسٍ غريبة عني، أسلوب حياته مُنفّر، يُمضي الوقت وكأنه يرزح في قيعان شيخوخة جرَّها جرَّاً ليدسَّها بحذر وخفاء، كما لو كان يريد أن تكون سُمَّاً زعافاً .

- لاحظت، ولهذا أسألك الآن لنعرف ما الذي يجب أن نفعله .

- هل يُخيَّل لك أني ادخرتُ أسلوباً في سبيل تغييره ؟ ذاكرتي تعجُّ بالصور، سمية أنا تعبت، ولم أعد أحتمل المزيد، كنتُ غضَّةً، فاقدةً لأيّة تجربة في الحياة، انجرفتُ إلى ما أراد، فشكَّلني كما لو كنتُ تمثالاً حدَّدَ مادته وتضاريسه، وغدا النحَّات الذي اكتشفَ ثِقَلَ ما أنجزه فألقاه في جدول بؤس .

تدرك أنها مُحقَّةٌ، لم تجد قولاً يُخفّفُ عنها ما تعاني منه، أتبعت آديت :

- لم يرعوِ مرة عن تجريحي، وما فتأ يُحدّثني بصمته المجبول بصرخاتٍ تُنفّرني حدَّ الموت، أنْ لا فرار منه ومن صمته، يرقبني في تحركاتي أنّى اتجهت، يلاحقني في كل صغيرة وكبيرة، يُجادِلُني في كل أمر يتعلق بحياتي، لم أعد أمتلك أدنى درجة من الخصوصية، طوال عشرة أعوام وأنا أتكبَّدُ عناء تحمُّلي لتسلّطه الذي يضغط على أعصابي بصورة مُنفّرة، وأمام فيض بوحي له، أجده صندوقاً أسود مُحتفظاً بما لديه، مُراوغِاً فيما يُبديه ويتحدَّث به، مُسوّفاً كل قضية، مُستهتراً بكل تفصيل، ساخراً بكل حاجة .

تُنصِتُ لها بحزن وقد آلمها ذاك التناقض الغريب بينهما، تدرك أن ثمة مشاعر تنقضُّ على آديت لتعرّي حقيقة أخيها، فقد حدَّثتها عن مشاعر كانت أشبه بإعصار، لكنها انقلبت للضد ما إنْ تكشَّفَ لها كذبه، أتى على كل ما اختزنته روحها على مدار سنين، تَشظَّتْ، تَطايرتْ، التصقتْ أجزاؤها مُشكِّلةً عجينة متماسكة، سرعان ما تحجَّرت، مؤلّفة كائناً مشوَّهاً فوق أرض مستوية لا يعلوها سوى نتوءات الجفاف المشوَّه، لم يكن يشبه سوى أشرف، وليس ثمة خيال له .

قالت سمية :

- كم هو بارع الإنسان في جمع المتناقضات داخله ! هل لي أن أسألك عن علاقتكما كزوجين ؟

- أماتَ كل شيء منذ خمسة أعوام، رفض كل محاولاتي في حثّه على إيجاد حل، وحين أجنح للصمت بعد اليأس، أراه يعود إلى طرح المشكلة دونما جدوى، ليتَّهمني بأنَّ عَجْزه هو ما يُسبّب نفوري منه، وفي كل مرة أؤكد له عبثاً بأني لم أعد أفكر في الأمر، رغم أحقيتي فيما حرمني منه، لكنه يعتبر نفسه دائماً على صواب، وأنا المُخطِئة .

أحست بالانكسار وهي تتحدث عن معاناتها، استطردت :

- غرَّب الصلصال عن مادته الأولى، واللون عن القماش، والأمل عن الحياة، سيطر عليَّ تَرقُّبي للأقسى، وفي التَرقُّبِ ألم مزدوج، خيال ورهبة، يضاف إليهما تَيقُّظ لكل نأمة أو ثرثرة لريح قادمة، ما أهتمُّ لأجله ولا يمكن لي تحمُّله هو إحساسي بالوحدة، السكون الرتيب، هل تكوَّنت لديكِ الآن صورة الحياة التي أعيشها معه ؟

تنهَّتْ إلى عاصم يدخل مع طفلها، بعد انتهائهم من اللعب في حديقة البيت المُطلَّة على مكان جلوسهما، كسر اليأس ابتسامتها الحزينة، التزمتِ الصمت لدقائق، دنا منها عروة يسألها إن كان بإمكانه أن يبقى عند عمَّته، ضمَّتهُ إلى صدرها وهي تجول ببصرها على جدران الصالة، التفتتْ كأنها تريد التأكد من أن ما يحيط بها أربعة جدران لا أكثر، وما إن وقع بصرها على لوحة سبق أن أهدتها لسمية حتى أمسكتْ عن مُهادنة ينبوع عينها لتكفَّ عن زجر الفيض، كان الصمتُ لغةً يَتيمةً للحظات، طلبتْ من عروة أن يعود إلى الحديقة مع أخته، وما إن خرجا، قالت :

- سعيتُ أُقنِعُ نفسي أنَّ لديه مشاعر حقيقية نحوي، عندما التقطتُ ذيلها تَشبَّثتُ بما يدعم غايته، فاتَّكأتُ عليه، وتَفنَّنتُ باختلاق مُوجبات

ما ادَّعى، أكان صاحب حاجة، والحاجةُ بارعةٌ في خَلْطِ ألوانِ الخديعة ؟! هو اليباسُ يا سمية، سرعان ما ظهر بعد حين ضارباً الجذور، مُعلِناً الإفلاس .

- لا أعرف ماذا أقول لك، والله لم يكن بهذا السوء، ما الذي أصابه ؟! من ذا الذي يؤثر فيه إلى هذا الحد ؟! ليتني أعرف .
- لم أعد أطيق الحياة معه، صارحته بذلك أكثر من مرة، صار يفتعل التغير ليوم أو يومين ومن ثم يعود إلى ما اعتاد عليه، كأني لم أنبس بحرف، جدران البيت تكاد تطبق عليّ، جدران باردة يعلوها سقف يجمعنا، لكن هناك الكثير مما يفرِّق بيننا، أمزجة مختلفة وطبائع متناقضة، أُقسِمُ إنه يدرك مشاعري تجاهه لكنه يأبى تصديق ما يراه ويشهده، فقد اعتاد النكران في كل ما يتعلق بحياتي معه .

صمتت لبرهة، بدتْ مُتحفِّزةً لتطلق العنان لفكرتها التي باتت مسيطرة على تفكيرها، أتبعت تصارحها عمَّا يجولُ في رأسها :

- أفكِّرُ في الطلاق .

لم تندهش سمية لما وصلت إليه آديت، كانت تتوقع أن تصل إلى هذا المستوى من التفكير، بيد أنها لا تريد أن ينتهيا إلى ذلك وبما يسيء إلى تربية عروة و ورد، قالت :

- وما جدواه بعد الآن ؟ هل فكرتِ بالنتائج على مستوى العائلة والمحيط والأهم من ذلك كله على حياة عروة و ولاد ؟ وما يحققه لك الطلاق من قدرة على جعل حلمك حقيقة ؟ ما الذي سيحصل إن استبعدتِ صورته من حياتك ؟ يجب أن تجدي الإجابات المباشرة على هذه الأسئلة وغيرها .

أبحرتْ في عمق الماضي، بدت وكأنها تلوكُ الفضاء الذي يعجُّ بالقهر والحزن وانعدام الفائدة من الوجود على هامش الحياة، أجابتْ :

- ما أعرفه أنني إذا ما بقيتُ معه سأكون ظِلاً لأوراق الروزنامة المتطايرة من حولنا لا أكثر .

بدا التأثُّر جليَّاً في وجه سمية، أتبعت آديت تسألها :

- أكاد أجزم أن ثمة امرأة أخرى في حياته .

لم تُعلِّق سمية بكلمة، دنا منهما عاصم لحظتئذ، بعد إنصاته لهما، قال :

- يؤسفني ما قلته يا آديت، استمعتُ لكل حرفٍ بُحتِ به لسمية، وفكَّرتُ، فكرتُ بأنه لو كانت سمية تشكو مما تعانين منه، ما الذي يمكن أن أتخذه حيال ذلك .

بحزن عميق رنتْ نحوه فالتقتْ عيناها بعينيه، سألته :

- ما الذي كنت ستفعله يا عاصم ؟
- الفراق، أجل الفراق، لاشك أنه مؤلم وقاسٍ عليّ، لكن لابد منه .
- والآن .. من سيقنعه بأن يحرِّرني من قيوده ؟
- كيف له أن يفعل ذلك وهو أسير لنوازع نفسه ؟ أعتقد جازماً بأنه يدرك التناقض بينكما، ولم يجد حلاً إلا بمحاولة جعله مُستحيلاً، ولكي يحقق ما يريد قام بإلغائك، آديت .. لا يمكن لأحد أن يتدخَّلَ في شؤونكما، فما تطرحينه خطير للغاية، يجب أن يعي أن ما تطلبينه حق لك ولا يمكن نكرانه .
- أدرك أني مخطئة في بعض التفاصيل الصغيرة، لا يمكن أن أحمّله تبعات كل الأخطاء التي وقعت، بيد أنه لن يدرك أن ما أطالب به حق

obeikandl.com

لي، قماشةُ أناه امتدَّتْ وسيطرتْ على كل مفصل في حياتنا معاً، ما حاكه لم يكن بيتاً لعنكبوت .

بنبرة هادئة وباتزان قال عاصم :

- لابد أن تحين اللحظة الذي يستوعب فيها ما يجب عليه فعله، بيته واهن وإن بدا لكِ أنه متين ومتماسك، الضعف قد نال منه مُذْ بدأتِ بصنع الدرع الواقي، أراهُ يترنَّح الآنَ قبل السقوط المدوّي، سوف تتلاشى شهوةُ تلاشيه فيكِ وتنوس إلى حدِّ الذوبان، الإغواءُ لن يكون قراراً مِنْ صُنْعِه يبدأ به وينهيه متى شاء، لابدَّ مِنْ نهايةٍ يَجهدُ في الهروب منها وهي بدورها تقترب منه، إنْ عاجلاً أم آجلاً ستحضر لتضع نقطة في آخر السطر، استمعي إليَّ آديت .. أشرف لم يكن وفياً لما منحتِه إياه، فحقٌ لك أن تتخذي القرار الذي يريح ضميرك اتجاه نفسك وتجاهه .

تدّخلت سمية بعد أن رنت نحو عاصم وقد حمَّلتْ نظرتها اللوم على ما تفوَّه به، قالت :

- سوف تُحلُّ الأمور بينكما قريباً إن شاء الله، لا تنسي عروة و ورد .

انبرى عاصم يقول بدوره :

- فكِّري جيداً فيما يجلب لك الراحة والسعادة، آديت .. المشاعر التي تنتابك أحياناً انفعالية وليست مستقرة وواضحة .

قالت سمية :

- لا شك أنك ستتجاوزين كل ما تعانين منه بإبداعك و فنّك .

لاحت ابتسامة صفراء على وجهها وقالت بأسى :

- عن أي إبداع تتحدَّثينَ يا سمية ؟ لستُ فنانة ولا يحق لي أن أدّعي ذلك وقد هجرت الألوان خمسة أعوام متتالية .

- لماذا تصرّين على جلد ذاتك ؟ أنتِ بذلك تُرسّخين المرارة التي تجرَّعتِها طوال السنوات الماضية، أرى نتاج ما عشتِهِ من فراغ، لكن يجب علينا أن نستوعب الحياة لا أن نطالب على الدوام بأن تستوعبنا وتقدّم لنا كل ما نرغب به، وإلا فما نحن إلا في حالة انهزام، هل تريدين ذلك ؟

انهمرت دمعة حارة على خدّها، قالت :

- لا لن أنهزم، ولكن اعذروني، لم أعد أهتم بما يمكن أن يقوله الآخرون، نقرأ المثالية في الكتب، نسمع الموجات الصوتية لها تتردد ملتصقة بالحروف والكلمات، وفي ممارساتنا، نجدها أثراً بعد عين مع من نحيا برفقتهم، بعد تجربتي مع أشرف بات من الغباء أن أعتبر كلمات مثل: تفاؤل، أمل، إشراق، حياة جديدة، تؤثر إيجاباً في الإنسان المكدَّر المصاب بروحه .

ختم عاصم بالقول :

- حاولي من جديد، إن لم يتحقق ما ترغبين به فلن يعارضك أحد إنْ استمر على هذا النحو وطلبتِ الانفصالَ عنه .

قبيل وداعها لهما، اقتربت منها سمية وقالت لها :

- ألم يخبرك أشرف عن شجاره مع والدي بشأن الأرض ؟

- إنه لا يحدّثني بأي أمر يخص عائلتكم .

- قريباً سيحادثكم أبي، ويريد أن تكوني حاضرة معه، فاستعدي .

على شفا الانهيار أمستْ، تُمسِكُ الشمسَ بيدٍ، وفي اليد الأخرى تُهدهِدُ القمر، خرجت مع عروة و ورد وهي تصارعُ الماضي في هجومه المباغت، وتردُّ عن الدرب مسيل الندم، لحظات تؤلّفُ شبكة من وهن مُستدام، أسئلةٌ تتبارزُ في مدٍّ وجزر، كالأخطبوط حين يُلدَغُ من أفعى، وما للحكمة من وجود .

obeikandl.com

-18-

انطلقت آديت عائدة بسيارة التاكسي، عازمة على إسكات أي صوت قد يُثنيها عن قرارها، لن تُنصت لأي نداء من أشرف لكي يُبقيها معه، تنبَّهتْ إلى أنَّ المُتغيّرات التي تطرأ في الحياة، تستلزم منها درجة عالية من التركيز والمثابرة، وإلا فإن التخاذل سوف يتسبَّب بافتقادها لكل ما تعوّل عليه للوصول إلى جدوى وجودها الفعلي في الحياة، أدركتْ أنَّ الرجوع عن القرار يُعادِلُ فَقْدَ التوازن المؤدي بدوره إلى السقوط .

أيقنتْ بأنها إن لم تُنفِّذْ ما عزمتْ عليه، سوف تشهد في غَدِها ما يؤكد سقوط الأمس فيه، بكل ما يجترح أحاسيسها، ولن يتناهى إلى سمعها إذ ذاك إلا صوت الخديعة وحروف الادعاء .

" لا بأحلامك لا بأوهامك، رح ترجع يوم تلاقيني، لا سلامك لا كلامك ولا منّك نظرة بترضيني، نسيت الماضي ويلي كان بقلبي ما عندك مكان ياما وياما من زمان . من زمان، معك ضيّعت سنيني "

أغنية " جوليا بطرس " عدَّلت مزاجها، بالقدر نفسه الذي حقَّقتْ لها الثبات على قرارها، رافقتها الأغنية في طريق عودتها، وكلما انتهتْ، طلبت من السائق إعادة تشغيلها، أغنية كان لها الشرارة التي أحيتْ ومضة يستدرجها الظلام ليوقعها في

حلكته، خفوتها لم يُذْهِبها للفناء، ضآلتها لم تمحو أثرها المتشبث بالوجود، قاومت الانطفاء المميت، فأماتت ما واجهها من أسباب العدم .

تمسَّكتْ بقوة الذكرى، جرفها الحنين إلى فضاءٍ آخر، وكأنها كانت تنتظر ما يعيد للأشياء توازنها، لتدرك بدورها خيط النجاة مما كاد يُسقِطُها في بؤر الانهيار، هناك ما يمكن أن يغير الوجهة في لحظة .

عند مفترق طرق تأرجحتْ السيارة قليلاً، سرعان ما سمعت صوتاً قوياً انبعث من أحد جوانبها، خوفها من قوة الصوت لم يُمكِّنها من تحديد مكانه، تسبَّبَ على الفور بهزَّاتٍ عنيفة أصابت العجلات حتى كاد السائق يفقد السيطرة، شدَّتْ إليها عروة و ورد اللذين يجلسان إلى جانبها في المقعد الخلفي، اكتستْ عيناهما بنظرة خوف وهما يحدّقان بعينيها ليستمدَّا منها ما يثبت الشعور لديهما بالاطمئنان، لم تكن قادرة على فعل شيء إلا احتضانهما بقوة، لحظات قليلة مرَّتْ، لكن الرعب الذي واجهته كثَّفها وأطالها، كان السائق مُتيقِّظاً تماماً لما يحدث، فلم يضغط على المكابح بقوة، رغم ذلك واجهته صعوبة في التحكُّم بمسار السيارة نحو منتصف الطريق .

انحرف نحو أقصى اليمين وتوقف على مهل، كانت الطريق خالية، ما جنَّبه الوقوع في حادث محتم، ترجَّلَ ليرى ما حدث بالسيارة، أظهرت ورد عين واحدة لها من مخبئها، بعد أن أخفت وجهها في حضن أمها، قالت بعفوية ملائكية :

– نجينا ؟ ما صار شي ؟

عاد السائق ليخبرها بأن العجلة الخلفية قد انفجرت، وهو مضطر للتوقف لاستبدال العجلة، هرول مُسرعاً ليفتح صندوق السيارة، ترجَّلت وراحت تتلمَّس

الجسدين الغضَّين لتتأكد أن لا ضرر أصابهما، أكملت الطريق إلى بيتها مشياً، كان الهواءُ عاصفاً والمطر ينهمر بقوة .

الولع بالحياة شدَّها لتسلك ما تبقَّى لها من مسافة مشياً، قبضت على أصابع طفلها بقوة فيما نظراتها تجول في المكان باحثة عن نقاط دعم تؤكد لها سلامتهم، كانت كلمات عاصم تتردَّد في أذنها عندما مهرتْ قرارها بخاتم الوحدة والألم اللذين لم يفارقا أيامها طوال حياتها المنقضية مع أشرف .

أغصانُ خَافقها تَغضُّ الشُّوقَ أملاً، يُسافرُ جَسَدُ الظِّلِ مَعَ بياضِ الرّيح، وَجهُ الأمل هادئٌ، هانئٌ، هاربٌ إلى موانئ الصهيل .
المسافةُ تَعدو أمامها، تُلقِّنُها دَرْساً في الإياب، يمطرُ قَلبها أغنية الأمل، السماءُ تَتثاءبُ فتَنهمرُ النجوم ضاحكة، صَولجانُ الحُلْمِ يُغازِلُها، يُبعثرُها، يُلمْلِمُها ومِنْ ثَمَّ يُقبّلُها، والصهيلُ أغنيةُ القلبِ يُشذِّبُ دمعَ الحنين، يَسكبُ الشمسَ في سَلَّةِ الأوجاع ليُسكِتَها ويَنْثُرَ الأنين .
ثمة ضحكة مرمية مِنْ قِنديلِ طفلةٍ تبكي على وَمضةٍ أُزهِقَتْ، صور الماضي مُبعثَرة في قَهقهةٍ مُنفلتةٍ، رسائله سِهامٌ في مخرزِ النسيان، والأمنياتُ البيضُ ثَرثرةً لذاكرةٍ تمضي بها الأيام، لم يَبقَ مِنْ أوراقِ الدّفلى في حديقتها سوى خيالاتِ الحريق، يقطرُ مِنْ دَمعها ماءُ الحياة، تزيدُ على البحرِ مِنْ مِلْحِ الغيابِ الحاضر، وتشربُ مِنْ قَدَحِ الزنابق نَبيذَ اللون .
على وَقْعِ الطُبولِ في مُنتصَفِ النهدين، تجهشُ بالعُمْرِ، بالعصافيرِ، بالأغنياتِ وبالياسمين، تمتطي صَهوةَ الحلم، لتُجْلِسَ الوداعَ على ساحلِ السِّكين، تضاهي الغُموضَ، ترفعُ عنِ الجسدِ فوضاه، وتوسِعُ للنوارسِ رَحابةَ فجرٍ و رصيف ليل لتسأل: مِنْ أيّ ظِلٍّ استلَّ القلبُ أنينَهُ ؟ مِنْ أيّ عُمْرٍ مَضى ؟

تُغْرِقُ الصَّهيلَ في سريرِ الهَديل، تُفتِّشُ طويلاً عن رسائلِ الوداع، لا تجدُ في صدرها سوى حقولُ الجراح، وعناكبُ الوقتِ تَلتهمُ عقاربِ البكاء، فتسيلُ، وتسيل .

كان الهاتف يرن لحظة دخولها البيت، عاجلت بالرد، كانت سمية على الطرف الآخر :

- سأزورك بعد ساعة من الآن ؟
- هل حصل مكروه بينك وبين عاصم بسبب ما قلته ؟
- لا .. لا أبداً، نحن بخير، ولكن أردت أن نتابع حديثنا، ولدي رغبة بالتحدث مع أشرف قليلاً .
- جيد، سأتصل به حالاً .

عندما أخبرته باتصال سمية، زفر بعمق، أراد التملُّص من الموعد بحجة ارتباطه بعشاء عمل بعد قليل، عندما سألته عن سبب عدم رغبته بلقاء أخته وزوجها، تحجَّجَ بأنه لا يرغب برؤية أحد بعد انقضاء يوم عمل كان مُتعباً للغاية .

ألحَّتْ عليه أن يجد طريقة أخرى ليعتذر منهما بنفسه، لكنه أبى، اقترحتْ عليه أن تدعوهما إلى العشاء في مطعم " أهل الشام " كبديل عن اجتماعهما في البيت، على أن يلتحق بهم فور انتهائه من موعده، وافق على مضض، عاجلت تخبره بأنها سوف تتصل حالاً بسمية لتتفق معها .

قُرابة العاشرة ليلاً عادت إلى البيت، لتجده وقد استبدَّ به الغضب لتأخُّرها، حاولتْ تَفادي الصِدام معه، لكنه أبى إلا أن يفتعل مشكلة بينهما، ناقشها وكأنه لم يَعِدها بالانضمام إليهم في المطعم، فامتنعت عن إخباره بمن صادفته في المطعم .

-19-

ببطء وحذر فتحت باب المرسم، وبهدوء أعدَّت ما يلزم للبدء برسم لوحتها الأولى بعد انقطاع طويل، ارتجفت يدها فور ملامستها الفرشاة، تصبَّبتْ عرقاً، دهمها إحساس بالخجل من الألوان التي راحت تصرخ مُحذِّرةً اللون الأسود من الاقتراب منها، كانت صرخة الألوان مُحرِّضاً لها على الابتسام، شدَّتْ من عزيمتها، سارعتْ بتنحية أنبوبة اللون الأسود جانباً لتحرِّرَ عقدة غضب ارتسمت على وجوه بقية الألوان فبادلتها الابتسامة وأصبحت طيِّعةً ليِّنةً بين أصابع تخلَّصتْ من حالة تشظٍ وأعادتْ بناء ما يجعلها حية ومبدعة

تناهى إلى سمعها شخيره، دسَّتْ قرصاً ليزرياً في القارئ يضم مقطوعات موسيقية وباشرت بالرسم، انتقلت من الواقعي إلى التجريدي، إذ لم يعد الواقع يعني لها شيئاً بعدما استعادت روحها ما افتقدته طوال السنين الماضية .

ترسمُ الدوائرَ لنداءٍ يحيكُ مِنَ اللون خَلاصَاً مِنْ أنين، تَسْتَعِرُ النَّارُ لتُحْكِمَ الطَّوْقَ حول المشنقة، خطَّتْ بريشتها عنق صَفيح يُؤلِّبُ الصدى ليرجع إلى المدى ما افتقده فيَرتَدُّ عَنْ قِيامتِه .

دوائر تُحدِّدُ صرخة المصيرَ و وِجْهَة المآل، تهمي بحروف تشكّل أسئلة تُرجِعُ صدى الصهيل لسنين عجاف مرَّتْ فما ارتضت الهشيم : كيفَ اتَّسَعَ الخواء واستطال فغمرَ الدَّوائرَ حتى كاد يبتلعها ؟! يُحدِّثها اليقين بارتيابٍ مُجلجل عَنْ وَهْمِ دائرةٍ

مفتوحة على مدى الحنين، خَرجتْ عَنِ سُّرب الأنين لتكونَ المرعى للخِرافِ التائهة عن جدوى الصهيل، كيف لريشةٍ أنْ ترسمَ فِكْرَة صلدة، خشنة، قاسية كليلٍ أبكم، هل تُسْقِط الدَّوائر في عَيْنِ الشمس لتعود من بعد موتٍ للحياة ؟

أثارها السؤال، استلَّتْ من عمق اللون عزيمة شرسة، تشبَّثتْ بها : ما هكذا أريدُ أنْ يكون شكل الموت .

ساعات مرَّتْ لم تتوقف خلالها عن الرسم، أحسَّتْ أنَّ شيئاً ما قد تغيَّر في الأجواء التي أعدَّتها بداية، تراجعتْ خطوة إلى الوراء تُمعن في لوحتها، انثنتْ قليلاً نحو اليمين، أمسكتْ بخاصرتها بباطن كفها الأيمن ولم تكن قد حرَّرتْ فرشاة الألوان من بين أصابعها، التفتتْ حولها تمعن فيما يبدو قد غاب عن ساحةِ ما هيأته مُذْ بدأتْ ترسم، وما إن تنبَّهتْ إلى توقُّفِ صوت الموسيقى حتى تناهى إلى سمعها صوت حركة غريبة في حديقة البيت، جمدت للحظات في مكانها، خشيت إنْ تحرَّكت أن تُصدرَ صوتاً ينبّه لوجودها، شيء ما يعبث في الخارج، ثمة خطوات متلصصة تحاصر البيت، وأصابع محاذرة تعبث في الحديقة، لم تجرؤ أن تقترب من نافذة المرسم، خَطَتْ نحو الصالة، دنتْ من الباب، أمسكتْ بقبضته، أدارته على مهلٍ لتنسلَّ مُتجهةً صوب الواجهة الزجاجية لتكون بمحاذاة الحديقة من جهة اليمين، أزاحت الستارة قليلاً، كانت القناديل المعلَّقة على السور تسمح لها بكشف فناء البيت كاملاً والحديقة المحاذية له، لم يتطابق ما وقعت عليه عيناها مع أي تصوُّر قفز إلى رأسها مذ سمعتْ الصوت، ليس قِطَّاً ولا كلباً، لم يكن سارقاً أو معتدياً، شهقتْ إذ ذاك، إنه أشرف .. أتى على كل ما زرعته من نباتات وأزهار .

ركضت باتجاه الباب وما إنْ وصلتْ عتبته لمحته خارجاً من البوابة ثم انعطِف يساراً، رَمَتِ الحديقة بنظرة يائسة، خطتْ نحو البوابة، كان الرأس في خياله الذي يبتعد بخطى واثقة وسريعة قد وصل حافة قدميها، أيقنتْ أنه يخبطُ الليلَ وهو نائم .

دنت من الشجرة العملاقة المحاذية للبيت، اتكأت بيدها اليمنى على جذعها العريض وهي تنظر بذهول نحو البوابة، أسندت ظهرها إلى الشجرة، ثمة دفء سرَّبته لها، عاتبتها بهمس محترق :

- لماذا تركتِهِ يعبث بحديقتي ؟ ألم يكن بمقدورك منعه من تخريبها وتشويهها ؟

اتجهتْ ببطء صوب البيت، وقفتْ تحت القوس الحديدي للبوابة المزيَّن بالياسمين، اقتربت من الحديقة، أقعتْ وسط الخراب وقد أتت المجزرة التي خلَّفها وراءه على ما احتوته من نباتات وأزهار، سقت الأشلاء الموزعة هنا وهناك من دموع عينيها، أسقطتها علَّها تُهندسُ الدرب نحو الورود أملاً في استنباتها من جديد .

حين عاد، كان الفجر يرسم لوحته على قماشة الكون، بدا أنه سقط على الأرض، بانت ندبة فوق جبينه وقد اتسخت ثيابه، اقتربتْ منه، تأبَّطتْ ذراعه، ومشتْ به نحو الحمام، أرادتْ أن تساعده في خلع ملابسه، رفع كفه المرتجفة وقال :

- لا بأس، أنا بخير لا تقلقي .

رنت نحوه بحنو وقد آلمها ما تعرَّض له، همستْ بصوت مجروح :

- أشرف .. أرجوك راجع الطبيب .

- سأفعل، سأفعل لا تقلقي عليّ .

استدارتْ لتخرج من الحمام، عاجلها بالقول :

- آديت .. احجزي لنسافر معاً .

لم يكن من السهل عليها أن ترى كل ما زرعته واعتنت به في حديقتها وقد أمسى أشلاء، لم تدرك ما كانت عليه حال أشرف لحظة أزهق روح شتلات الورد في حديقتها .

أطلَّ بعد دقائق، دعاها لشرب فنجان من القهوة معه، فاجأها عندما قال :

- إذا ما كنت تريدين أن أنسحب من حياتك، لن أتردد .

يبدو أنه قد حان الوقت لكي أسلِّم بالأمر الواقع، وإن لم يكن لي شرف المحاولة سابقاً في استرجاع ما كان بيننا وإنقاذ ما يمكن إنقاذه في علاقتنا معاً .

لم تكن تمتلك الرد المعادل لما تفوَّه به، غاب في غرفة النوم بضع لحظات، ثم عاد يحمل في يده كيساً صغيراً .

- سأغادر البيت .

ضحكتْ حتى كاد يُغشى عليها، ثم بكتْ، بكتْ بحرقة وألم، بقي بعيداً عنها، لم تدرك سبب بقائه بعيداً عنها في تلك اللحظة، أحسَّتْ أنها بحاجة إلى لمسة من يده .. لكنه لم يفعل، أسقطَ الكيس من يده، وغادر .

ارتفع صوت أذان الفجر، فأيقنت أنه خرج قاصداً المسجد .

-20-

لم يغب عن البيت أكثر من ساعة، عاد ليخبرها بأن والده طلب رؤيتهما ويجب أن يتوجها إلى القرية .

بقي صامتاً، مُكدَّراً، مُتهيّباً من رؤية والده، سألته عن سبب هذا الكدر الظاهر عليه، فلم ينطق بحرف .

منذ وصولها بيت العائلة الكبير، تأكَّدَ لها أنها لن تنال الراحة والهدوء، لم تكن الأسباب تقتصر على ما كانت تعانيه مع أشرف، فقد تبين لها أن مشكلته الحالية معهم قد تجاوزت خلافاته القديمة بأشواط، بدا وكأنه أوجد سبباً ليخاصم به كل فردٍ من أفراد عائلته ويتشاجر معه، وبات استحضار الماضي ونبش فتاته عملية آلية مرافقة لكل حديث يتعلق به .

ذكَّرتها سمية، في حديث جانبي بينهما، بأن السبب في تماديه بارتكاب الأخطاء إنما يعود إلى عدم محاسبته عما ارتكبه من أخطاء، فالسكوت عن تجاوزاته بحق الجميع، وتحدّثه بالخلافات الحاصلة ضمن العائلة في أوساط مختلفة، كان لهما تأثيراً سلبياً كبيراً أحدث شرخاً في علاقته معهم .

كانت تدرك أن ما يشوب علاقته بأهله من توتر وتباعد سببه غياب الوعي وافتقاد التسامح، وفي تَخطّيه لحدود ما يجب مراعاته واحترامه لخصوصيات أخوته، أيقنتْ أن الداء القديم مازال مُتغلغِلاً في أسلوب مناقشاتهم، حيث لا حوار ينتهي بقرار، كل ما في الأمر أنها ثرثرة لا طائل منها .

كان عمَّها مُحافِظاً على بنيته القوية، صامداً أمام نوائب الحياة ومصاعبها، رغم كل ما عاناه، في حين كان أشرف طوال السنين الماضية مُتخاذلاً في الارتقاء بعلاقته معه .

علمت أنه عازم على بيع حصته من الأرض التي سجَّلها والده باسمه، كان من الصعب عليه القبول بأن يأتي أحد الغرباء ليجاوره في أرض منحها لابنه

الألم يوخزه في أعماقه، يرنو ببصره نحو الأرض التي وزَّعها على أولاده، والندم يكاد يفتك به، فالكبير من أبنائه ينوي بيع أرضه، و جُلَّ ما يخشاه أن يمتد هذا الداء إلى غيره من الأخوة .

- مَنْ يُفرِّط بأرضه، يُفرِّط بعرضه، هذا ما علَّمَنيه المرحوم جدّك .

اختنق بحروفه حين ذكر والده وبالكاد أكمل عبارته :

- لم يستوعب أشرف معنى هذا القول، بل سخر منه، اعتبرني قادم من عصور عفا عليها الزمن، لم ولن يدرك أن كل ما يتصل بوجود الإنسان وبانتمائه إلى أرضه لا يخضع لمتغيرات الحياة .

غصَّ بدمعه، اقتربت منه وضمَّته، رجته أن يدعو الله أن يهدي أشرف إلى سبيل الرشاد والتعقُّل .

- ليس ثمة من فرَّط بذرَّة تراب من أخوتي أو أولادهم، حتى والدك، فعلى الرغم من أنه هاجر إلى ماليزيا منذ سنين إلا أنه لم يفرط بأرضه، فلماذا يريد ابني البكر أن يحرق قلبي ؟ أخشى أن يصل إلى درب مسدودة فأغضب عليه لا أن أدعو له بالهداية .
- لا يا عمّي، لا تفعلها، أرجوك .

رنا نحو أرضه بحزن، التقط حفنة من ترابها، قبض عليها بقوة، انهمرت دمعة من عينه، بكى ..

- كم هو مؤلم وجارح للروح أن ترى والدك يبكي، ارتضيتَ على نفسك أن تقهر قلبه وروحه، ألا تخشى أن يصل به ألمه إلى الغضب إنْ بقيت مُصرَّاً على قرارك أو نفذّته في يوم ما ؟ هل تصوَّرت أن نفقده بسبب ما أنت عازم عليه ؟

ابتدأتْ حديثها معه بهذه الأسئلة، كان يبدو أمامها كطفل مُستسلم لنوبة حَرَد، وينتظر أحداً ما ليخرجه منها، حاولت أن تُخفي دهشتها من تغيُّر نظرة عينيه، فالغضب فيهما عمَّق في وجهه البؤس .

تابعت تقول :

- لا أعلم أهي نبوءة أم أن شدة حزنه وألمه دفعاه للنطق بعبارته تلك، لو رأيته وهو يرنو نحو الأرض بكثير من العاطفة المجبولة بالقهر وهو يقول : إنْ فرَّط أشرف بالأرض فقد حكم عليَّ بالموت قهراً، فما رأيك؟

احتقن وجهه غضباً، استنفرت أعصابه بسرعة مفاجئة، بدا مُقيَّداً إلى صخرة أفكاره المجنونة التي تعصف به، ثم قال :

- أنتِ لا تعلمين كم يكرهونني، لا أحد يفكر بي .

- كُنْ صادقاً مع نفسك قبل أن تصدق معي، والدك لم يتخلَّ عنك يوماً، وما انتفعتَ به منه لم يمنحه لأحد من أخوتك، فلماذا تنكر كل هذا ولا ترى إلا ما يُفْرِغُ كأسَ والدك في عينيك ؟
- آديت، أنتِ رافقتِني في زيارتي لأهلي لا لتتدخلي فيما لا شأن لكِ فيه، دعي الأمور كما هي، ولا تظنّي أنَّ تَدخُّلَكِ سيحلُّ المشكلات بيننا، ولستُ بحاجة إلى من يذكّرني بكل ما مضى .
- أيعقل بعد مرور كل تلك السنين أن أراك رافضاً الاعتراف بأخطائك ؟ طيب، لا فائدة من التقوُّل بما مضى، الآن تواجهنا مشكلة ويجب حلَّها

انتفض بشراسة وبعنف، برقت عيناه بحدَّةٍ ولؤم، قال :

- لا علاقة لكِ بما يجري، اهتمي بشؤوني وشؤون طفليك فقط، لا تُظهِري نفسك الآن على أنك مُتأثِّرة لأحوالنا وحزينة لما وصلنا إليه .

حاولتْ أن تكتمَ غيظها، وتكبتَ انفعالها، كانت واثقة أنها إنْ فشلتْ في محاورته فلن تُحلَّ أية مشكلة لا بل ستزداد الأمور تعقيداً، قالت :

- بعيداً عني، إنسَ مشكلاتنا الآن أرجوك وانظر في حل مشكلتك مع أهلك، مهما جرى بينكم فيجب ألا يصل الخلاف بينكم إلى القطيعة، ولا تنسى أنه من الصعب عليهم تَحمُّل الغرباء هنا إلى جوارهم، هل تدرك ما تفعله أنت ببيعك الأرض لمن هو غريب ومجهول تماماً عن المنطقة بأسرها .
- لستُ الوحيد الذي يريد بيع أرضه في القرية، وقد سبقني إلى ذلك الكثير من أهل القرية .
- هذا خطأ كبير ارتكبه كل من باع أرضه، يجب أن يتنبَّه أهل القرية والقرى المحيطة إلى ذلك، ما سِرُّ الاندفاع المستميت لشراء الأراضي هنا

من قبل غرباء لا يَمتُّونَ إلى هذه الأرض بصلة ؟ ما أدراكم من يقف وراء هذه الحملة المسعورة لشراء الأراضي بمبالغ طائلة ؟

قاطعها قائلاً :

- لن أدعكِ تُكملينَ ما بدأتِ به وأنا مصرٌّ على ما أنوي عليه، فلا تُتْعِبي نفسك .

" النيّات الطيبة لا تترك لنا من الأولاد رصيدَ شُكْرٍ مُبين، الصمت الطويل، يترك لنا الأشباح والمشوَّهين في كل الأماكن " .

هذا ما قاله العم عندما أخبرته آديت بتفاصيل ما جرى بينها وبين أشرف .

obeikandl.com

obeikandl.com

-21-

النهار في أوله، استيقظت آديت مرعوبة، انتزعت نفسها من السرير كمن مسَّته أصابع الشيطان، هرولت مُتَّجهةً نحو مصدر الأصوات الصاخبة والمنبعثة في الخارج، كانت الحجارة المرصوفة في مدخل البيت تتلامع، أوراق الأشجار مُثقَلة بدموع السماء، وحده الحمق كان يدفع الأمل المتبقي ليطرده شرَّ طردة .

رنتْ إلى وجه عمّها المتغضّن والمكسو بالعرق المكافح والمعفَّر بالخيبة، كان أشرف يقف أمامه وعيناه تنتشيان بلهب الغضب، صارماً يبدو، بشفتيه المضمومتين بعد احتراق، غيمة مارقة تدفعها الريح بعيداً لتؤكد أنْ لا خلاص، وأنَّ ما ارتوتْ به الأرض كان دماً لا ماء، الجنون يضحك ساخراً، مُسترخياً، وقد أقفل على حدود الأرض بزنار من نار .

– لماذا تتشاجرون ؟ ما الذي حصل ؟

نطقتْ رغماً عنها، أشاح أشرف بوجهه بعيداً، لم تستطع التفوه بأكثر من ذلك، لسانها التصق بحلقها ما إنِ ارتختْ ركبتا عمّها و خرَّ على الأرض، مدَّتْ يديها إليه وتحلَّق أبناؤه حوله مسرعين نحوه، تمسَّكَ بهم ملهوفاً كأنما يريد النجاة من الغرق، اكتسب قوة أنهضته، مُثقلاً كان بعناقيد الغضب، صار قادراً على الكلام :

– الله يغضه..

- لا يا عمّي .. أرجوك .
- إنْ لم أتلفَّظ بها فقلبي يقولها، زوجك باع حصته من الأرض منذ زمن ولم يخبرني بالأمر، واليوم .. استغل سواد الليل فاقتلع الأشجار كلها من الأرض .

تغلَّبَ الغضب على ملامح أشرف فاستلَّ من جوفه كلمات صدئة وأفرغها دفعة واحدة :

- أنت لا تملك الحق بمنعي من بيع أرضي، فعلامَ ترهق نفسك ؟ لقد قبضتُ ثمن الأرض ولم يعد بمقدورك فعل شيء، سوف ترون عمارة كبيرة أمام بيتكم هذا، ولن يستطيع أحدكم أن يمنع المشتري من إقامة مشروعه، هل سمعتم ما أقول ؟؟ لن يملك أحد حق الوقوف في وجهه، وسأرى ما أنتم فاعلون .

دنا أمجد من أخيه قابضاً على ذراعه واقتاده بعيداً عن البيت، كانت عيناه تُحدّقان بمن كان واقفاً حول الأب، ثم أدار ظهره وهو يكافح يد أخيه، همس الأب لآديت أن تنظر إلى ما فعله أشرف بالأرض، دنتْ من حافة الشرفة لترى الأشجار وقد اقتُلِعَتْ من جذورها .

- لا يخاف الله .

همستْ في سرّها ولم تنطق بحرف، لم تستطع تحمُّل المنظر فابتعدت .

آبت إلى حيث أقعى عمّها، كانت زوجته تنتحب، قال بغضب :

- اسكتي ولا تُسمعيني صوتك أبداً، غَيّبْنا الله فأُسقِطنا في جُبّ الخيبات واللعنات .

عاد أمجد شاحباً وجسده يرتعش .

" حلَّ البلاءُ في بيتنا " كان يدمدم والسخط المخيف يقطر من عينيه، رنا إلى أبيه وقال :

- لا تَعُدْ إلى تباهيكَ بأبنائِكَ بعد اليوم، نحن نستحق أن نُرمى بكلمات السخط والسخرية فقط .

تلفَّتَ الأب وقد برقت الدمعة على خدّه، بيأسٍ قال :

- معك حق، انظر إلى من تجمهر حول بيتنا بعدما سمعتِ القرية بما حلَّ فينا .

مرَّ بعض الوقت، استعاد الأب تماسكه قليلاً، صعد إلى سطح بيته فلحق به أبناؤه، لم يَحُلْ ذلك دون أن يُلقي ما بداخله من أصوات تتصارع معه، لم يسبق له أن تفتَّقَ جرحه بهذا الشكل، أعاد على مسامعهم قصص الخيبات المتلاحقة لأشرف، بدا وكأنه يقدّم تقريراً إخبارياً عن تاريخ فشله، أثارته تعليقات زوجته، فانبرى يؤنبها على ما تتفوَّهُ به، تَصفَّحتْ آديت بنظرها وجوه الحاضرين، تكوَّرتْ في جلستها كجنين يتمسَّكُ بجدار الرحم رَفْضَاً للانزلاق، بكتْ، التفتَ الحاضرونَ إليها، وبالكاد استطاعت النطق :

- ما الذي جعله يقسو إلى هذا الحد ؟

خيَّم الصمت على الجميع، ومنذ ذلك الحين، لم يعد الأب يتحدَّث إلا نادراً، كما لم تعد الضحكة تُناور في إشراق وجهه كعادتها .

- آلمني إصرار أشرف على الخديعة كما في كل مرة، أرسل بدايةً من يُقلّم الأشجار فبالغ في التقليم، وحين سألتُهُ عن ذلك، أخبرني بأنَّ المهندس الزراعي أشار له بضرورة التقليم على هذا النحو، طلبته لأمنعه عن بيع الأرض وأنهي الجدل في الموضوع فمنع عني الشعور بالراحة، غافلني ليقطع الأشجار وكأنه بفعلته قطع أوردة الحياة فيَّ .

أوغل في حزنه، شرد قليلاً ثم تابع قائلاً :

- يا ابنتي، ما أجده حقيقيّاً الآن في حياتي هو الموت، نحاول أن نقنع أنفسنا بأنه لن يطالنا ونحن بعيدون عنه، لكن إحساسي بسطوته لا

يغيب، لا خلاصاً به من حياتي ولا رهاباً، لا تأخيراً له ولا استقداماً، لا احتراماً ولا احتقاراً، الحمد لله على كل حال .

كان هذا آخر ما قاله الأب لآديت قبل أن يلتزم الصمت .

obeikandl.com

-22-

" عندما نستسلم للروتين فإننا نغدو مجرد آلات، كثيراً ما نبتعد في الحياة عمَّا يُجمّلها في أعيننا، وحين نريد أن نعتب أو نعيب أحداً أو شيئاً ما، ترانا نهاجمها ونكيل لها التهم، غافلين عن كل ما نرتكبه بحقها وبحق أنفسنا " .

بإرادة صلبة واجهتْ نفسها، توصَّلت إلى أنها استسلمتْ لما أراده أشرف بضعف لا مبرر له، ودونما محاولات جادَّة منها لتخرج عما فرضه عليها، أرادت أن تبدأ من جديد، وكأن ما مضى لم يكن إلا تهيئة لما تريد أن تحققه في حاضرها، قررت أن تكون ابنة اللحظة، وتشرع نوافذها للشمس .

أجرتْ اتصالاً هاتفياً به لتخبره بأنها عازمة على الخروج من البيت قاصدة " الغاليري " الذي نظَّم المعرض الأخير ..

- هناك صحفي يريد أن يجري معي حواراً عن مشاركتي بالمعرض، سأترك عروة و ورد برفقة سمية ليمضيا بعض الوقت .

عاجلها بالقول وبدا مُتأهّباً ومنشرح الصدر :

- لا .. سأمرُّ بعد قليل وآخذهما معي إلى مقر عملي .
- كما تريد، لن أتأخر في مشواري .

التقت مصادفة بمي وجاد في " الغاليري " وما إن فرغت من حديثها مع الصحفي، حتى تقدَّمت منها مي تدعوها للانضمام إليهم في مقهى قريب، لم تجد حرجاً في تلبية دعوتها، اطمأنت إلى أن عروة و ورد بصحبة والدهما .

تعمَّد جاد الجلوس إلى جانبها بعد أن اتخذت مكانها من الطاولة في زاوية المقهى، سارع يقول لها هامساً :

- أنت بدون أدنى شك، شاعرة، أستشفُّ ذلك من عينيكِ، ومن بهاءِ طلَّتك .

ذُهلت آديت أمام نظراته الشَرِهة إليها، مرَّ بمحاذاة الطاولة شاب كان يقول لصديقه : " إنه داهية ويُحسن الاختيار دائماً " .

- يبدو أنكِ مثالية .

قال لها جاد، فابتسمت بسخرية قائلة :

- لا .. أنا أمتثل للمثالية، هناك فرق .
- أنتِ شديدة الحساسية، وبريئة، حريٌّ بنا نحن الرجال أن نحسد زوجك .

كان المطر يعزف موسيقاه على إسفلت الخواء، رذاذه يُقبِّل الواجهة الزجاجية للمقهى الذي اختارته مي، كان يطيل النظر إلى كوب الشاي أمامها على الطاولة وقد تركت طبعة حمراء عليه .

حسبت أنَّ اهتمام جاد الطارئ انقضَّ عليه فجأة، فما من تَصوُّرٍ مُسبقٍ لديها أن يكون ...

obeikandl.com

- أنا مُعجَبٌ بكِ منذ التقينا في صالة نينار، لكنكِ لم تولي أيَّ تعبير مني اهتماماً، لا بل على الأغلب أنكِ لم تشعري بي قط، فلابد أنْ تستغربي الآن ما أبوحُ لكِ به .

لم تستطع كلماته أن تكسر الجليد المتكدِّس على نقاط الشعور لديها، تبدو غير مُبالية بما يتفوَّه به، لا بل إنها تشعر بالضيق، كانا برفقة مجموعة من الفنانين والأدباء الشباب، أراده جاد أن يكون احتفاء بانتهاء ورشة عمل تمخَّض عنها قرار اتخذه " جبران " مدير الصالة والفنان التشكيلي صاحب البصمة الفنية المتميزة في الفن السوري بأن دعا كل الحاضرين للمشاركة في معرض الشهر القادم الذي سيقام بالتوازي مع مهرجان شعري سيكون جاد أحد المشاركين فيه .

تَململتْ قليلاً في جلستها، في حين كان يرجوها سِرَّاً أن تسمح له بلمس روحها بحروف ربما تجعلها قادرة على التحليق معه .

كادت الضحكة تنفلت منها لحظة خطر في بالها أن يحضر أشرف بغتة ليراها جالسة بمحاذاة هذا الشاعر الأرعن، لاشك أنه الآن يغطُّ في نوم عميق، كعادته، أمام شاشة التلفزيون، وقد ترك عروة و ورد يمضيان الوقت أمام جهاز الكمبيوتر، ربما تمر ساعات وهو على ذات الجلسة، مُتَّكِئاً على أريكته الوثيرة وقد فغر فاه، أو تدلَّى عنقه كالمشنوق، ولن يَنتبه إليهما، إلا بإصدار صوت يغلب نومه فيهزمه .

باتت ساعات نومه تمضي إما بغفوة مُفاجِئة أو بخضوعٍ لكوابيسَ شيطانية أو باستسلامٍ لمشي لا إرادي، تنهَّدتْ بعمق وقد سئمت ثرثرة هذا الجالس بمحاذاتها دون إنصات منها أو تفاعل مع ما يسرده عبثاً .

لم تنتبه إلا حين لوَّح جاد بأصابعه أمام عينيها وهو يقول :

- آديت .. بماذا تفكرين ؟

أجابت بشيء من الانفعال :

- أنا امرأة متزوجة، أرجو ألا تنسى ذلك .

دُهش وضحك ثم قال :

- لا يعنيني الأمر .. هل يعنيكِ في شيء ؟

فاجأها سؤاله كَمَنْ طُعِنَ في غفلة، عاود الضحك وكأن ما تفوَّه به كان نكتة، أردف وهو يرنو إلى عينها :

- أرجو أن تعاودي التفكير، حاولتُ مراراً أنْ أزجرَ نفسي عن البوح لكنني انهزمت، وبات الأمر مُرهِقاً جداً لي .

عندما انفضَّتِ الجلسة، ودَّعتهم، كان جاد مُستغرقاً في رومانتيكية مُصطنعة، تفاجأت به حين قال وهو يودّعها :

- أراكِ قريباً يا امرأة المرايا .

لم تطلب منه تفسيراً لِما نطق به، كان قد أخبرها منذ لحظات وهي ساهمة وشاردة في لُجَّة أفكارها أنه يعتبر النسمة التي تمرُّ بها تكاد تخدشها، وبأن المرء الذي يقف أمامها يرى ما بداخله من دون أن يلتقط أي ملمح مما تخفيه في داخلها، إلا أنها لم تكن مُنصتة له .

انفتل إليها في جلسته وهي تبتعد خارجة، اشتهى أن يراها يوماً في غرفته لترفرف بهما جدرانها ضاحكة، اشتهى أن يراها كما تبدو له الآن، امرأة سخية كالمطر .

كادت تصطدم بشخص لم تتبين ملامحه لحظة همَّت بمغادرة المقهى، تراجعت قليلاً إلى الوراء وهي تعتذر عن سرعتها التي تسببت باصطدامها به، مفاجأة أسعدتها .. كان أليخاندرو .

انفرجت أساريرها فور مشاهدتها له، لم تنسَ ملامحه، كما تذكَّرَها على الفور، ألقى عليها التحيَّة بفرح، كان ودوداً كما رأته أول مرة، سألها عن وجهتها، كانت مُعجَبة بالعربية التي يتلفَّظ بها، لم تسنح لها الفرصة في لقائهما الأول أن تسأله عن سبب تعلُّمه للعربية، قال لها :

- أنا أعشق سورية، ولهذا فقد حرصتُ على تعلُّم اللغة العربية .
- رائع، أنا الآن سأعود إلى البيت، أتمنى أن أراك لاحقاً .
- هل يمكنني مرافقتك حتى قلعة دمشق ؟
- بالطبع، ولكن ألم تحضر إلى هنا لكي تقابل أحداً أو تتناول الطعام؟
- لا بأس، لستُ مرتبطاً بموعد مع أحد، أعود بعد أن أوصلك إلى الشارع العام قرب القلعة .
- تفضل إذن .. بكل سرور .

كان أليخاندرو لطيفاً للغاية، حدّثها عن رحلاته بين بلدان كثيرة، وعن تميُّز سورية وعشقه لدمشق، كان يحرص على زيارتها باستمرار وبالأخص الأماكن الدينية والأثرية، ففيها سحر الشرق الذي يعشقه :

- سفري يجعلني على اتصال بفنانين كثر، رسامين، كُتّاب من ذوي العقول الجادة والفعالة من أرجاء العالم كله، وقد تعلَّمتُ الكثير منهم، ثم عملتُ على إكمالها بقراءات واسعة ساهمتْ في تعزيز ما أمتلكه من قدرة على قراءة الأشياء والأشخاص .

- أغبطك حقاً .

سريعاً أبدى إعجابه باسمها، قال لها :

- لم تغب صورة وجهك وابتسامتك عني منذ اللقاء الأول، والسبب يعود إلى أن ملامح وجهك تمنح الناظر إليه راحة نفسية وتمدَّه بطاقة إيجابية، لا أعرف لِمَ خطر لي اسم " اسبرانزا " وقد وجدته مناسباً لك، سأناديكِ به، هل لديك مانع ؟

كانت ابتسامتها آنئذ أجمل من أية لوحة رسمتها، بخجل قالت له :

- لا .. لا أبداً، يسرني ذلك .

بصوت رخيم وقور منبعث من حنجرة هذا الشاب الإسباني الطيب، سمعت للمرة الأولى اسم " اسبرانزا " الابتسامة الصافية على وجهها كانت كفيلة بإزاحة الهم عن صدرها، والتعويض عما أحسته من انقباض وهي تجالس ذاك الأحمق، أحسَّتْ بأنَّ شعاعَ نورٍ قد انبثق من عينيّ أليخاندرو ليلج قلبها، تذكَّرتْ ما يعنيه الاسم فاستطردت قائلة بفرح :

- آه .. الأمل، أرجو أن أتمكّن من منحه لمن أعرفهم و .. أحبهم .

ابتسم برقة وقال لها :

- مُنذ التقيتُ بك، حدَّثني عنك أصدقاؤك، أدركتُ أنكِ نلتِ محبة الجميع واحترامهم، تلمَّستُ نقاءَ روحك، وقدرتك على تجاوز كل المواقف الصعبة التي تعرَّضتِ لها و واجهتها بقوة وصلابة، وما فقدتِ شيئاً من رقّتك ولطفك، بل كنتِ مصدر أمل لمن هم حولك، لذا حدَّثتُكِ مطولاً في أعماقي عن الأمل، ومن دون أن تعلمي السبب، وجدته يكبر في داخلك، وقد أزهر في قلوب من تعاملوا معك ليكون طاغياً، مُحرّكاً لهم في كل ما يخصّونكِ به، فكان استحقاقاً لك أن أدعوكِ " اسبرانزا " .

- مُمّتنة للطفك آندرو ولكن .. كيف لك أن تعرف ما يجهله الآخرون ؟ تتحدَّث وكأنك تعرفني .

- أدركُ تماماً ما في قلبك .

أخرج دفتراً صغيراً من حقيبة يحملها على ظهره، قال :

- هل تقبلين مني هذه الهدية المتواضعة ؟

- ما هذا ؟

- هذا الكتيب هو نتاج خبرتي في الحياة، علَّمتني الحياة الكثير من خلال سفري، سجَّلتُ فيه بعض العبارات والنصوص القصيرة التي تعبّر عن نظرتي للحياة، صحيح أنني ما زلتُ شاباً، لكن خبرة الحياة لا تُقاس بالعمر، ولم أجد إنساناً يستحق أن يحتفظ بهذا الكتيب إلا اسبرانزا.

- أشكرك، ولكن هل حفظت نصوصك في دفتر آخر ؟

- طبعاً، أحفظ كل ما أكتبه على جهازي المحمول، وفي دفتر آخر .

- هذه هدية قيّمة جداً .. شكراً آندرو العزيز .

في طريق عودتها إلى البيت، تمايلت ابتسامة رقيقة على ثغرها، حين خطر في بالها أن يكون إحساسها بغير أشرف خيانة وفق قاموس الحياة، تذكَّرت إجابتها على سؤال للصحفي حين قالت :

" قَدْ نُشْبِهُ الرّيح أكثرَ مما نُشبهُ أنفسنا، نهوى ما استبدَّ فينا وجعلَنا نرتدي العاصفة " .
أيقنتْ أنها لن تقترب من رجل قط إن حدث وانفصلت عنه، فمنذ اختار " نوح " من يرافقه برحلته، كان أشرف معها، وستنتهي رحلتها وهي وحيدة .

لكن أليخاندرو يبدو مختلفاً، لاحت ابتسامة رقيقة على وجنتها وهي تستعيد صورته .

حدَّثتْ نفسها وهي تستقلُّ سيارة التاكسي :

- هل يتوجب على المرأة أن تكون دائماً مُقنَّعة ؟ لا أدري كيف تقع فريسة لشخص مثل جاد وأمثاله، رغم أنهم عراة الوجوه، وكم هي الحياة جميلة بمعرفة أشخاص مثل أليخاندرو .

كانت تدرك أنها ما من مرة ابتسمتْ فيها للحياة إلا وكان أشرف يُكمّمها، يحاول تشويهها من الداخل باستمرار لكي يُبقي عليها تابعةً لظلِّه المقوَّس لا أكثر، لم

يفكر لحظةً بأنَّ عجزه سوف يستقدم يأسها بسرعة أكبر، زجرت نفسها آنَ تذكَّرتْ قرارها بأن تبدأ من جديد .

- يجب أن أدرّب نفسي على الحياة، وأتخلَّص مما يؤخّرني في تنفيذ ما أحلم به .

حدَّثتْ نفسها وهي تقف أمام مرآتها لترى وجهها، اشتاقتْ له، للنظر إليه والاعتناء به .

كان إحساسها بالصفاء طاغياً، لوهلة حسبتْ أنَّ قلبها يزيّنُ لها درباً جديدة يدعوها للسير فيه، ما إنْ ولجتْ مرسمها حتى وجدتْ ما تبحث عنه في الريشة والألوان، وجدت نفسها مُنجذِبةً لرسم ملامح جديدة على بياض القماش، كادت أن توغل في البوهيمية، ربما لافتقادها إلى ما تحتاج إليه، حلَّتِ الفرشاة مكان أشرف في استسلامها لها، لكنه استسلام من نوع آخر، سلَّمت دفَّة القيادة لروحها، دونما مواربة أو تصنُّع، أيقنت، أن حروف أليخاندرو قد وضعتها في مركز دائرة الاستحواذ على حواسها، استسلمتْ لفرشاتها كغجريةٍ لا تلوي على شيء سوى الانفلات في صحراء الأحاسيس لتلمُّس نقطة من ماء لا لتنكسر أمام سراب خادع و وهم .

فجأة، تنبَّهتْ إلى وجود أشرف يقف أمام نافذة المرسم، ارتعدتْ خوفاً من وقفته تلك، حسبته واقفاً خلفها وهو نائم، اختلجتْ مشاعرها، التفتتْ تسأله لتتأكد أنه صاحٍ :

- منذ متى وأنتَ هنا ؟

فغر فاه دَهِشاً ..

- ألم تشعري بي لحظةَ دخلت ؟
- لا .. آسفة .
- كنتِ متوحّدة مع لوحتك، لا بأس، سأخرج حالاً .

دنا من اللوحة، رنت نحوها بذعر، خشيت أن يكشف شيئاً لا تريد كشفه، ولن تستطيع أن تخفي عنه معنى المسالك اللونية الظاهرة، كانت قد كشفتْ له فيما مضى مفاتيح ما تستخدمه من ألوان وما ترسمه من خطوط، لكن الآن، سوف يستعصي عليه فك الرموز وإدراك الظاهر من لوحتها، تمعَّنَ في اللوحة كما فعلتْ هي أيضاً .

أرادتْ أن تستجلب أي سرداب للهرب مما يضجُّ في داخلها، اكتشفتْ أنها حَمَّلتْ قماشة اللوحة ما يتجاوز كل خطوط ماضيها في الرسم، غادر المرسم من دون أن ينبس بحرف، في اللحظة التي اكتشفت فيها أيضاً أنَّ سيطرته على حريتها الداخلية في أن تكون هي ذاتها دونما خوف منه .. قد بدأتْ بالانزياح .

- أشرف .. ما فعلته بي طوال السنين الفائتة لن يكون مُسيطراً علي بعد الآن، إن كنت قد سلبتني البعض فالكل ليس ملكك، وسأستعيد منك ما خسرته، فقط .. اعتق مرآتي من قيدِ طينك .

تحدَّث الصوت الغائر فيها، تركتْ فرشاتها والألوان، دنت من كتيب أليخاندرو، قرأت :

" كُنْ أنتْ، لا تَكُنْ ظِلّاً لحَجَر، مِرْآتُكَ خَدَعتْ بَصَرَ الساقية، لكنْ لَنْ تَخْدَعَ بَصيرةَ البَحر "

خرجت من المرسم، توجَّهتْ نحو حديقة البيت، ومعها .. طيف لوحتها الجديدة وكلمات أليخاندرو، كان عروة يلعب بالكرة، نادته لكي يدخل معها إلى الحمام بعد أن كان برفقة أصدقائه .

فكَّرتْ مطولاً في استحقاقها لاسم " اسبرانزا " أيمكن أن تكون سعادتها مُخبأة لزمن آخر، لم يأتِ بعد ؟!

كان تدرك أن كتيب أليخاندرو سوف ينفعها في أمور الحياة، أما فيما يتعلق بشؤونها مع أشرف، فلن تجد كلمات أصدق تعبيراً عن واقع حالها معه إلا فيما تخطُّه هي .

كان يغطُّ في نوم عميق كعادته حين يعود بعد فترة مناوبته في مقر عمله، سرعان ما اتخذ مكانه على الأريكة مُستنداً إلى ساعدها الخشبي، أيقظته لكي يستحم، عادت مُجدَّداً لتفتح كتيب أليخاندرو، استغربت حماستها لقراءة المزيد منه .

هناك شيء سيحدث قريباً يغير مجرى حياتها، هناك الكثير مما يحدث يعزز لديها هذا .

أيمكن لها أن تحيي حلمها بعد موات ؟

تلقَّتْ رسالة نصية على جهازها المحمول من جبران يُعلِمُها بموعد المعرض القادم، ويُصرُّ على مشاركتها بلوحة جديدة، شعرت بسعادة غامرة، إنها اللوحة التي رسمت فيها أشرف بخطوط نافرة وقد أبرزتْ فيها يديه الممدودتين والمستسلمتين لوخز إبرٍ توزَّعتْ على ساعديه .

وجَّهتْ إلى جبران رسالة شكر على الفور، فعاود الاتصال بها لكي يسألها عن اسم اللوحة ليتم إدراجها ضمن جدول اللوحات المشاركة، شردت قليلاً، إذ لم يسبق لها أن اختارت اسماً لهذه اللوحة .

- " النكران " ما رأيك ؟

للمرة الأولى، وفي اللحظة التي طُلب منها عنوان للوحة، أحسَّتْ أن أي عمل إبداعي هو كالطفل تماماً، يحمل معه اسمه في اللحظة التي يُولَدُ فيها، كثير من الآباء والأمهات يتفقون على اختيار أسماء محددة لأبنائهم، لكنهم يستبدلونها ما إن ينظروا إلى وجوههم، أو في اللحظة التي يُطلب إليهم اسماً معيناً لتسجيل واقعة الولادة، فيغيّرون اسم المولود لسبب يجهلونه، وهو ما حدث معها بُعيد ولادة عروة، ولوحة النكران .

obeikandl.com

-23-

أيقن جاد أن إنهاء أثر النزاعات التي قد تنشب بعد أن تصبح آديت عشيقته بإمكانها أن تغذي روحه الشعرية، وستكون مشاركتها له في همومه انقضاء لها،
دفع باب المقهى ليرى جبران وثلاث صديقات يجلسون على الطاولة، كانت آديت تقف خلف حاجز خشبي صغير قريب من شجرة النارنج، تقدَّم نحوها مادَّاً يده وهو يبتسم، أراد أن يسمع شيئاً من حديثها الهاتفي ربما يستشفُّ منه إن كان لديها عشيق تتحدَّث معه، بدَّلت هاتفها وأمسكته بيدها اليسرى لتصافحه، فأشغلها بأمارات غير مفهومة، لكي يدع كفّها في حضن كفّه وقتاً أطول، بادلته الابتسام وسحبت كفها ثم التفتت تكمل حديثها الهاتفي، سمعها تتحدَّث إلى ابنها توصيه أن ينتبه إلى أخته الصغيرة، كان يدرك أن جبران تحدَّث لها عنه، لذا فإن هذه الابتسامة التي أتتْ كرد فعل طبيعي على ابتسامته فسَّرها بما يدعم ظنونه وترقُّبه لتميّز العلاقة بينهما، وبأنها لو لم تكن مُعجَبَة به لما ابتسمتْ له .
تعزَّزت تصوُّراته بأن جعلها في تلك اللحظة تجسيداً لخياله الرومانتيكي بأن رآها جسداً لمغامرة، أو لمقامرة، أو لامتلاك جديد يصبو إليه، جلس إلى جانبها عندما أرادت أن ترتاح، كان مُصرّاً أن يستعرض أمامها بعض أشعاره، ظناً منه أنها سوف تُستَلب كغيرها من النساء، لكن اتضح له أنها بسعة ثقافتها تمكَّنتْ من كشف عيوب ما يكتب، وحين ناقشته ببعض التفاصيل، امتقع لونه، تجمَّد في ملابسه ولاذ بالصمت .

لم يُرِدْ أنْ يُسلّم باختلافها عن غيرها، لقد أحبَّ هدوءها واتزانها، أراد أن يستولي على اهتمامها به، فاستمر في محاولاته المتواصلة لإبهارها وإغوائها، فأحدثَ ذلك الأمر انطباعاً سيئاً في نفسها عنه، ولم يكن من السهل عليه أن يقاوم نوازع نفسه تجاهها، كما لم يكن من الهيّن أن يجذبها إليه، لقد اعترف بينه وبين نفسه أنها هزمته بسيطرتها عليه، بسحرها الجبَّار الذي لم يُهزَم أمامه قبلاً .

كانت رائحة الشواء المنبعثة من المطاعم المحيطة تثير معدته وحواسه مجتمعة، أراد أن يُطفِأ المثيرات برائحة التنباك فطلب من النادل أن يأتي إليه بنارجيلة دعاها لتشاركه فيها فاعتذرت، كان يتمنى لو أنها وافقت ليلمس بشفته موقعاً واحداً تلمسه بشفتيها الكرزيتين .

ناداها جبران فلبَّته سريعاً، وحين عادت، تهادت على الكرسي أمامه كموجة أضاعت البحر فوجدها، كان شعرها البني ينسدل على كتفيها، وجهها الدائري الأبيض الحنون كان عذباً وطرياً، البريق المنبعث من عينيها اللوزيتين جعله يهتز من أعماقه، وقد شعر بشيء ينتفض في لباسه انتفاضة حادة .

اكتشف سريعاً أنَّ ما كان يجول بخاطره وعبَّر لها عنه، لم يكن مدعاة للاهتمام في نفسها، إنما مضى سريعاً مثل الالتفاتة المصحوبة بابتسامة وهي تبتعد عنه لتهتم بالزائرين في أول لقاء جمعه بها، كان يطيب له أن يتألق أمامها بالحديث عن الصوفية وقد عرف أنها تعشقها .

كان شغوفاً بهذا الغموض الذي يبعده عن التفكير بالأخريات، وبكل ما مرَّ بحياته اكتشفت من خلال تعليقاته الفجة أنه يحب هذا الميل للأوهام، والحنين إلى المحظور، بدوره كان يدرك أنه يحب الفجور بكل صوره، فهو الأقرب إلى نفسه، ويجد أن انغماسه في كل أنواع المحرمات إنما هو تجديد لمخيلته وكل ما كان يجهله الآخرون عنه، ويظنونه نوعاً من الامتلاء بالغموض، وصنفاً من صنوف الرخص والشهوانية والنقص، لكنها لم تعامله بناء على ما شكَّله الآخرون حوله،

لم يكن يعنيها ذلك في شيء، فلقد فهمته تماماً وأرادت أن تحلَّ أزمة مقاربته لها بطريقتها، فهو لم يجد إلا السهل أمامه، وعندما يتعامل إنسان كجاد مع السهل فما من شك أنه بحاجة إلى طريقة خاصة في فك روابط المعرفة به، لذا فقد تولَّد لدى الأصحاب اندهاشاً غريباً من نوعه عندما شاهدوها برفقته، لم يتأخر جبران عن التعبير لها عن استغرابه واستنكاره لما يمكن أن يجمعها به، لدرجة أنه اقترب منهما وقال ذلك بفظاظة أرعبت جاد، لم يعرف كيف يخرج من هذه الصدمة التي سبَّبها له جبران على حين غرَّة، فقد حَسِبَ أنها ستفارقه بعد أن أنصتتْ لجبران وسمعته يكيل إهاناته له، ويصفُ لها كيف أنه يلتفُّ على ضحيته كالحية الرقطاء حتى ينال منها هدفه فينفث فيها سمّه ويقذف بها إلى أقرب حاوية، هذا ما كان يهمّه، ولم ينظر إلى أن الأمر إهانة لشخصه، فقد اعتاد من جبران ومن غيره أن يسمع منهم على سبيل المزاح ما يودُّون قوله بكل جدية، لكنها لم تُبدِ أمام جاد أي اهتمام بما قاله جبران عنه .

حاول أن يتملَّص من الموقف بأن دعاها إلى مغادرة الغاليري، وقد استعاد روحه العابثة ما إن خرجا يسيران معاً في حارات دمشق القديمة، أحبَّ السير أمامها مُتأمّلاً مُتكلّماً بصورة متواصلة وهي تُنصت له، أراد أن تشعر بعظمته، وتتعطَّش له وحده، كثيراً ما سألها بعد أن يفرغ من حديثه عن نفسه ومغامراته العاطفية " ما رأيك بي ؟ " أدركتْ خلال حديثها معه أنه يرتعد خوفاً من الإهمال والنكران، يجب أن يكون محطَّ الأنظار دائماً، إلا أنها لم تتصوَّر أن يحدّثها بما تستنتجه جازمة في أنه .. مُتعطّش للجنس ولا يقنع إلا به في علاقاته مع النساء .

أدركت آديت الصراع القاسي الذي يعاني منه، وعالم الأوهام الذي يحيا فيه، خطر في بالها أن تعيده إلى أرض الواقع، وأن تحلَّ فوضاه التي يعيشها جسده وعقله، بعد أن وجدته هشَّاً وضعيفاً، لا بطلاً كما يُصوّر نفسه لها، إلا أنها أبت أن تفعل وتراجعت عن فكرة مجنونة راودتها، واكتفت بالتظاهر أنها تصدّقه،

تصدّق كذباته المتواصلة، فقد حدّثها عنه جبران ولمست ما يثبت قوله، كانت تدرك أن له مُخيّلة حرة خلقتها أوهامه و وساوس نفسه وأوجاعها، ولأول مرة، كان جاد يُرخي حبل صبره وراءه ويعدُّ الأمتار التي يبلغها، معها فقط، كان صبوراً في نيله مُبتغاه، وقد طال أمد الكلام الذي يتفوَّه به قبل وصوله إلى تحقيق أسطورته في أن الكلام الذي لا يؤدي إلى الجنس يُفقِده هويته ولا يساوي إلا الصفر في سُلَّم الدرجات، عدا عن كونه يُشعِره بالخواء، والتقزُّز، ويزيد من معدل الكراهية لديه للعالم المحيط الذي يحاول الالتحام به، كانا قد وصلا إلى نقطة لا تستطيع بعدها آديت أن تسير برفقته، ودّعته وركبت سيارة تاكسي .

في الصباح، وجد نفسه أكثر اندفاعاً إلى رؤيتها، ذهب إلى الغاليري، وقف أمامها يُحدّق فيها، كان شعره منكوشاً، وثيابه مُجعَّدة غير مكويّة، وحذاؤه قذر، بينما كانت هي زاهية كياسمينة، بدا في وقفته كالأبله، غير قادر على النطق بحرف واحد، كانت قسماتها وملامحها ثابتة أمامه، لم يجد نفسه إلا وهو يقول " أنا أحبك " احمرَّ خدّاها، حوَّلتْ وجهها لتنظر إلى جبران، ضحكتْ بملء فيها، قهقهت حتى كادت ترتمي أرضاً وهي تضع يدها على بطنها، حينذاك، أدرك بقوة، الأسباب التي جعلت منه كريهاً تلك اللحظة، لقد أدرك أن لا أمل في هذه الخدعة، أدرك وبشكل لا جدال فيه أن آن الأوان لكي يخلع فكرة أنها كالأخريات، تظاهرت بالتمرد وقلة الاكتراث، أعادته إلى يقينه لكي يعرف حجمه الحقيقي، بنظرة منها، وبضحكة مُستهترة ساخرة بحاله، لقد بدَّدتْ له اعتقاده بأنه يَصلح ليكون محطَّ نظرها، واعتبارها، وبقدرته على الولوج إلى قلبها ليلج فيها في وقت آخر، أيقن أنه رمى الصنارة إلى سراب لم يكن ليراه .

أدرك أنه استغرق طويلاً في الوهم فصنعت له الآلام، وتركته يتخبَّط وحيداً في أتون الغيرة، تحرقه نارها من دون أن يتمكن من الابتعاد عنها .

حين خرج أشرف من الحمام، دخلت بعده مباشرة لكي تأخذ ثيابه المتسخة التي كان يرتديها، فلم تجد الملابس الداخلية له، علمت أنه كعادته، عاد فارتداها، قالت بحنق امرأة مولعة بالنظافة :

- لا أعلم كيف يستقيم الإيمان مع القذارة، ما باله في كل مرة يُغافِلني بعد أن يستحم ليرتدي لباسه الداخلي نفسه الذي كان يرتديه قبل استحمامه ؟

نادتْه لتسأله عن الثياب التي كان يرتديها، أجابها وهو في الصالة :

- ارتديتها مُجدَّداً .. لم تتسخ بعد .

دنت منه، قالت وهي تميز غيظاً :

- كل مرة تقول ذات الكلام، بالله عليك كيف تصلّي وملابسك الداخلية مُتَّسِخة ؟

امتعض، ثم نهض ليبدّل ملابسه، وضعها من دون أن ينظر إليها، دخلت الحمام بعده، أُصيبتْ بالغثيان وقد رأت القذارة في لباسه القديم، رنَّ صوتها بغضب :

- عشرة أعوام مضت ولم يغيّر عادته، ماذا أفعل يا رب ؟!

أثناء توضيبها الثياب التي ستدفع بها إلى جوف الغسالة، سقطت عدة وريقات صغيرة من جيب معطفه، التقطتها و ... قرأت ما كان قد كتبه بخط يده، وكما يرنُّ صَنجٌ نُحاسيٌّ بعنف، تردَّدتْ كلمةٌ واحدة في رأسها .

●

ملامح الفجر مُكفهِرة ويائسة، نظراتها تلوبُ في سقف الغرفة والشك يشعل حطبه فيرسم ناراً لا تُبْقي ولا تَذَر، تلوبُ باحثةً عن تفسيرٍ لما رأته في جيب المعطف .

- هل تحتاج الخيانة إلى تفسير ؟!

حتى ذلك اليوم، كان تكتفي بإحساسها، فلم تجعله في لحظةٍ دليلَ إدانة، ولم تشأ مواجهته به .

لم تكن لتكترثَ فيما مضى بتفتيش محفظته أو غيرها، لكن شكوكها استحالت الآن إلى حقيقة ماثلة أمام عينيها آنَ عثرتْ على دليل إدانته، ورقة صغيرة كتبَ فيها بخطّ يده : خولة كفرسوسة، ناريمان حرستا، سوسن مزة، هناء برامكة، وبمحاذاة كل اسم رقم هاتف، تلمع دمعة فوق خدّها، حياتها معه سراب يترك لها الآن حطام حكايات عصيَّة على الإدراك، حكايات تلقي بظلال قاتمة فوق شمس صدقها معه، لتزجرها عن الإشراق .

أفرغت الورقة حمولتها في حدقتي عينيها، أسماءٌ ألقتْ بصورة أشرف في الجحيم، سجّيل كان يسقط فوق رأس الخديعة .

لم يرعوِ عن إتيان الخيانة مُذْ تزوجا، كان يُوقِعُها في فخّ كذبه الساذج، وفي ظنّه أنه يُحسنُ التصرف، كانت تدرك أن المشكلة تكمن فيما يعتبرها أشرف وفي أية

خانة يصنفها، وليس فيما تعتبره هي، فقد كان الملاذ لها والحلم، لذا كانت تصمت إزاء ما يرتكبه من حماقات، لم تكن تعتبر أن ثمة مبالغة في إظهار عاطفتها تجاهه، لكنه كثيراً ما اعتبر ذلك بَذَخاً لم يعتد عليه، وفي حقيقة الأمر لم يكن يرى في الأمر إلا ما يُظهِره هو تجاه الآخرين .

أيقنت أنه لا يكفي أن تكون مظلومةً، تأهَّبتْ لتقاومَ عبثه بمصيرها معه، في هذه اللحظة بالذات أرادت أن تُحرّر نفسها منه، إنَّ في الحياة ما يستحق أن يُعاش، لكن، لن تكون بقيَّتها معه .
و ككل فجر، خرج قاصداً المسجد، تُظلِّله سحابةٌ مِنْ حُزن مُقيم .

عندما عاد إلى البيت عقب حضوره الدرس الديني، كانت السحبُ السوداء تُغطّي السماء وتحجب الشمس، بردٌ يتسلل إلى مفاصل جسده وينخر عظامه فـتئن وتؤلمه، خرج على عجل مُتجهاً إلى شقته الأخرى، قذف بنفسه سريعاً نحو النسمات الباردة التي كانت تصفع وجهه وتعبث بوجهه، واستحالت سريعاً إلى ريح عاصفة تشرّد حبات المطر الهاطلة .

بعد أن قطع شوطاً في درب رواحه، كانت يداه غائرتين في جيبي معطفه، وقد أحنى رأسه مُمعناً حيث قدماه تتقافزان من برك الماء على الرصيف، تَحسَّسَ بكفّيه مكان وجود محفظته فاكتشف أنه نسيها، أيقن أن انشغاله بالتفكير في لقاء اليوم أنساه المحفظة، الأفكار في رأسه تتقاذفه كموجٍ بحرٍ يرتطم بصخور الشاطئ لتفتِّتها بعد أن تُحْدِثَ ثقوباً في قطعة الفلّين التي تَسدُّ قارورة تضمُّ ورقة فيها من الأسرار ما يهدم المبنيَّ على رملٍ رخو .

أصوات غريبة تضجُّ بها أذناه، فتنمّي لديه الريبة من نهار يبدو عصيَّاً على المرور دونما توقُّعِ حدوثِ ندباتٍ نهارية، بدا أكثر انزعاجاً مع تلاحق خطواته والريح تعصف بجسده العنيد .

تفاجأ لدى وصوله البناء بانقطاع التيار الكهربائي، مما اضطره للصعود إلى شقته بتثاقل بعد مشوار عنين، مما سبَّب له ألماً متزايداً في مفاصل جسده المنهك، تهاوى على الكرسي لاعناً حظَّه مُتمنياً لو أنه لم يخرج إلى موعد سوف تغيب عنه من اتفق معها على موافاته هنا .

نصف ساعة مرت، كانت تعادل سنيَّ عمره، فيما شياطين الألم تداهم قفص جسده المتهالك تاركةً سمومها في أوكارٍ تهيَّأتْ بأسرعِ مما يستوعبه عقل لامتصاص المصير، وفي حضرة الرماد كانت النار تلهجُ باسمه مُحتفيةً بعودٍ يابس .

كانت آديت تجلس في الصالة تفكر، كيف لأشرف أن يدع الورقة في جيب معطفه، وقد عرف أنها سوف تفرغها مما فيها ؟! لماذا لم يحفظ الأرقام في ذاكرة جهازه المحمول مع الأرقام الهاتفية ؟ وهل يمكن أن يكون قاصداً أن تكتشف خيانته لتطلب منه الطلاق ؟! استبعدت الفكرة نهائياً، لابد أن الأمر جرى على هذا النحو لكي يكشف لها الله ما أخفاه عنها طوال السنين الفائتة.

تأكَّدت لها خيانته الآن، كانت تدرك أنه مُتملِّقٌ بارع، إنْ تحدَّثَ حصل على درجة الأستذة في التملُّق، إنْ جاملَ أوغلَ في غياهب الرياء، وإن أراد صدقاً بالغَ في النفاق، لكن ما لم تكن تتصوَّره أو تتقبَّله أن يكون مُزمناً في خيانته لها .

دمع حار يسّاقط من عينها، وهي تعرك الورقة حيناً وتمسّدها حيناً آخر، حثَّتْ نفسَها على تنفيذ ما تفكر فيه إنْ ثبتَت لها خيانته بعد أن وجدت تلك الورقة، ارتدت ثيابها وخرجت قاصدة الهاتف العمومي في آخر الشارع .

بعد أن أجرتْ عدة اتصالات ببعض الأرقام المثبَّتة على الورقة شعرت بعطش مُفاجِئ، تسارعتْ في حلقها وخزات الألم، كادت سلَّة الأفكار تَفرغُ أمام سطوة الذكريات المتلاحقة، اعتمل في صدرها إحساس بالقهر دهمها لحظة تلقّيها إشعاعاً خفي المصدر لترى طفولة حبها له على جدار في رأسها يعجُّ بصورهما معاً، وفي أماكن مختلفة جمعتهما .

باكتشافها، تأكد لها أنه مُصِرُّ على رسم نهاية باردة، قاتلة، مُخيِّبة، وجارحة، جعل بما سبَّبه لها من إرهاصات حبها البكر عبئاً عليها أمام كل ما قدَّمته من تضحيات، تذكرت عبارة قرأتها في رواية، لم تسعفها ذاكرتها في تذكُّر اسمها، لكن ما أيقنت به الآن، تلفظت به على نحو يخلط بين ما تتذكره وبين ما اكتشفته من خيانة أشرف لها ونطقت به وهي واقفة أمام صورته في عمق الصالة :

- الخيانة ليست بامرأة عابرة، بل بامرأة تسكنك لأغدو مجرد وجبة أو قطعة من الثياب تبدّلها متى شئت .

اقترب منها عروة وهو يقول :

- ماما .. أنا جوعان .
- يالله ماما جايه حضّر فطور، فاقت أختك ؟
- ايه فاقت وعم تغسل وجهها .

مسحت الدمع عن وجنتها، اقترب منها عروة قائلاً :

- ماما ليش عم تبكي ؟

- ما في شي حبيبي

حاولت أن تشغله عن دموعها فسألته :

- ما خبرتني مبارح انبسطتو مع البابا ؟
- كتير انبسطنا، لعبنا مع رفيقي أحمد .
- لوين أخدكم ؟ ع الجنينة ؟
- لا .. أخدنا على بيت قريب من شغلو .

استغربت آديت، لم يأتِ أشرف مرة على ذكر أي بيت لصديق يمكن أن يزوره وأن يصطحب عروة و ورد إليه، فبادرت تسأل عروة :

- أي بيت ؟ مين أحمد ؟

شردت قليلاً، فكَّرتْ في الأمر، سألت عروة من جديد :

- نحنا كنا نروح على الحديقة القريبة من مكان شغل بابا، إذا رحنا هلأ بتقدر تعرف بيت أحمد ؟

ابتسم عروة فرحاً، إذ سيجتمع مرة ثانية معه، قال لها :

- ايه رح أعرفو إذا وصلت لهداك الشارع، رح تاخدينا انتي كمان ؟
- طيب، بعد الفطور منروح سوا .. شو رأيك ؟

قفز عروة في مكانه، كانت سعادته غامرة، قال بفرح وهو يحضن أمه :

- ايه ايه ماما .. أنا بحبك كتير .

obeikandi.com

-25-

كانت تمسك بيد عروة و ورد حين ولجت الطابق الرابع الذي تقع فيه الشقة التي تقصدها، كان السؤال يتضخم كلما قطعت آديت المسافة واقتربت من الشقة، لماذا أتى أشرف بطفليه إليها يوم أمس ؟

عندما أشار إليها عروة بيده إلى الباب، فُتِحَ فجأة ..

أرخت يده ما إن فُتِحَ باب الشقة، كانت تتوقع أن ترى أشرف، لكن من رأته خارجاً .. مي .

سرعان ما هلَّلتْ بها، دعتها للدخول، تذكَّرتْ آديت أنها لمحت لوحة إعلانية في بهو مدخل البناء لعيادة طبيب عيون، اعتذرتْ منها بحجة زيارتها عيادة الطبيب، لم تعد تذكر اسمه، عاجلت مي بالقول :

- آه .. الدكتور حسام الضللي، إنه في الطابق الأول وليس هنا .

- أتسكنين هنا ؟

- أجل، تفضلي لنشرب فنجان قهوة معاً، زوجي سيخرج إلى عمله بعد قليل، وبإمكاني أن أتأخر عن المستشفى بعض الوقت .

- اعذريني أرجوكِ، سأزورك في وقت لاحق، ولن أضيع العنوان، نتحادث ونتفق، يجب أن أزور الطبيب الآن .

- طيب، كما تريدين .

خشيت أن يخرج أشرف من الشقة فجأة، توقفت لبرهة بعدما ودَّعتْ مي، فكَّرتْ في مصدر خوفها هذا، أيعقل أن تخشاه وقد تأكد لها أنه أمضى معها عقداً كاملاً وهو يخونها ويخدعها ويكذب عليها ؟ ألهذا الحد تخشاه ؟! .

دنت من عروة، همست له :

- ماما عروة، الست يلي شفناها هلأ، كانت مبارح بالشقة مع الصبي يلي لعبت معو ؟

- لا ماما ما كانت موجودة، مين هي ؟

- هي .. هي ممرضة حبيبي، خلينا نرجع هلأ .

- ما بدنا نشوف أحمد ؟

- بعدين ماما .. بعدين .

منذ التحق بعمله، تَملَّى الوجوه، واستقرأ بواطن النفوس لكل من كانت له السطوة الظاهرة على غيره من العاملين في البنك، مُستفيداً مما مدَّته به مروة من معلومات خاصة بهم، كان حريصاً على معرفة كل ما يخصُّهم حتى الأمور الشخصية منها، نبَّهها مُنذِراً ألا تُحدّثَ أحداً منهم عنه، استدعى بحرصه الزائد توجُّسَها مما ينوي فعله، نبشَ الشك فيها فتنبَّهتْ بداية إلى كل نأمة تصدر عنه، وأمام ما كان يحققه تباعاً من تمايز عن غيره، أفلتت الرسن من يدها، ونسيت أمر وجودهما في مكان عمل واحد .

قليلٌ مِنْ ضَبْطِ النَّفسِ كان كفيلاً باستكشافه المحيطين به، جعل مسافةً بينه وبينهم فترك شعوراً مُبهَماً لديهم تجاهه، أخفى الجوانب التي لا يريد كشفها من شخصيته، ليبتني له مكانة متميزة عند الجميع .

بكثير من العزم والتحوُّط، تقرَّى جاد كل من حوله، ليعلم من أين تؤكل الكتف، كانت أغلب الوجوه مُتوَّجةً بالحزن، شاحبة مُكدَّرة، لكن أصحابها أبوا إلا أن يرسموا ابتساماتهم، ويظهروا بمظهر السعداء .

لم يكن غريباً عن أجواء العمل وما يُحاكُ فيها من المكائد التي يُخطَّط لها بإتقان كيما يفوز المخادع بما يريد وبما يطمح في الوصول إليه، لم يفتقر إلى سرعة البديهة واتقاد الذهن الحي القادر على استخدام أوراق تضمن ربحه وتعمي

الآخرين عن معرفة نقاط ضعفه، كما لم يكن رخواً في تعلُّم كل جديد والمطالبة على الدوام بالاستفادة من كل معلومة تخصُّ عمله المؤدّى .

اخترق بدهاء مكامن الضعف لدى أصحاب الحظوة عند الإدارة، أولئك المؤثّرين في صياغة القرارات وإصدارها، في إعطاء وجوده الأولوية في المنح والسخاء، في تمكينه من مدّ الجسور الخفية بينه وبين من يقرر اصطياده من زبائن البنك .

كعنكبوت ينسج خيوطه حتى يصل إلى مرامه عبر نسيج هجين يُطوّق به عنق الضحية، راح يرجمها ومن ثم يذر الرماد في العيون كي يعميها عن رؤية ما يرمي إليه، أدَّى الدور بلا هوادة، اتسعتْ مَدارِكه سريعاً لتتفق مع غاياته من دون أن يُشْعِرَ أحداً بما يهدف إليه ليحققه .

خلال فترة وجيزة استطاع الاستحواذ على اهتمام الكثيرين، تلقَّف المعلومات بكثير من الاهتمام والتركيز، استخلص النتائج من إمعانه في أدق التفاصيل، فكسب الثقة، وسريعاً، حقَّق ما يريد، وسَّعَ صلاته بزبائن البنك، ولم يقتصد في الولوج بخصوصياتهم، شجَّعهم على تحفيز غيرهم ليكونوا متعاملين جدد مع البنك، ما رسَّخ موقعه لدى الإدارة، فارتفع رصيده من الثقة الممنوحة له، وبات ممن تستشيرهم الإدارة وتأخذ بآرائهم على خلفية ما ابتناه من علاقات ومعرفة بالمليئين من الزبائن، تقيَّض له ذلك مع توسُّعٍ أجراه البنك في سياساته التسليفية المعتمدة .

استمرت مروة على ذات النهج المتفق عليه بينهما، مُستغلاً موقعها الإداري، من دون أن يترك لها فسحة للتفكير، وما إن حدثت الانتكاسة في علاقتهما الزوجية ووقع الطلاق بينهما، حتى التفَتَ إلى غيرها لينهل ما كان يحصل عليه منها، نسرين، صديقتها المقرَّبة وبيت أسرارها، فانقطعت حبائل ودّهما ما إن انفصلتْ عنه، وفي مرحلة لاحقة من تعاطيه معها، وانشغال مروة في ترميم ما أصاب روحها ووضعها الاجتماعي وما واجهته من والدته من اتهامات جائرة، تمكَّنَ من التضييق عليها

حتى استقالتْ ، وهو ما يزال على عهده بنفسه من الثقة بالنفس وامتلاك القدرة على تحقيق المنافع الشخصية بعيداً عما يحققه البنك من أرباح .

عالمه الجديد فرض ابتعاده عن الكثير من الأصحاب، من دون أن ينقطع عن أحد بصورة كاملة، لم يعمد إلى تغيير شيء من واقعه المعاشي أو مكان سكنه، مُحافظاً على مكاسبه لتبقى بعيدة عن الأنظار .

تحقَّق لملهم في تلك الفترة ما كان قد حدَّثه سابقاً عنه، فأتى يُودّعه ويخبره بأنه مسافر بعد أن استطاع تأمين عقد عمل له في دولة عربية، قابله جاد بكثير من الجفاء، وبنكرانٍ لكل ما كان قد أبداه تجاهه من اهتمام سابق، ببرود ودَّعه، ولم يَفُتْهُ أنْ يُنوّه له عن خطئِهِ في المجيء إلى مقر عمله، لم يأتِ على ذكر أخته بشرى، إذ لم يكن الموضوع يستحق أن يُحكى فيه، بعد أن تكشَّفَ له منذ فترة أنها لم تكن بأفضل حال من أخيها، فقد حاولت العائلة بأكملها أن تتحكَّم بخيوط قصَّتهما، وقد انصاعت بدورها لكل ما حاولوا فرضه عليه دون أي فاعلية منها أو رد فعل مؤيد له بمواجهتهم، فأبى ذلك وابتعد مُستغلاً إشكالية وقعت بمفصل من مفاصل الاتفاق على الارتباط ليبلغهم انسحابه، حدث ذلك من دون أن يعلم جاد بهذه التفاصيل .

شابَ الفتور علاقته مع مي أيضاً، فغاب عنها من دون أي مبرر، مُلتفتاً إلى علاقاته الجديدة وعالم " البزنس " ورجالاته الذين يلتقي بهم في أفخم المطاعم، فيلبّي دعواتهم لمناقشة تعاملاتهم البنكية بكثير من ادعاء الحرص والتواضع والحنكة، اقترابه منهم ومعرفته بخصوصياتهم هيأ له أن يفرد أمامهم عروضاً من نوع خاص، لم يمنعه عمله في البنك من تقديم خدمات جنسية لمن كان منهم محروماً أو مُنشغِلاً عمَّا يدفئ سريره بأجساد مُتعطّشة لقبض المعلوم، فكان له مصدر كسب آخر لم يكن قد وضعه من ضمن أولويات عمله الراهن، للحظات ندم على إهماله تدوين بيانات كل من عرفهم سابقاً من نساء، لكنه لم يعجز عن مراجعة

ملف الأسماء في هاتفه المحمول وأوراق مُبعثَرة في غرفته، ليعاود الاتصال بمن انقطع عنهن .

كان الرجال يقذفون بحفنات نقودهم باتجاهه دونما تردد، وداخل غرف مظلمة يحدث ما لا يخطر في بال، سهرات سرية، يُسكَبُ فيها الخمر ليحكم الساعات، تتغلغل الأجساد في بعضها البعض بحُريّة مُشتَهاة .

بات التجار يقصدونه دون غيره، يهتمُّون بمراجعته ليكون قائد العروض في تقديم طلبات القروض، وإدارة البنك في ارتياح ونشوة، سيطر أو كاد على قراراتها، يُخرِجُ الملفات التي يريد، ويقدّم المطالعات التي تزيد من أرباح البنك وتحقق له الهامش السري .

مع كل ما كان يحققه من مكاسب، لم ينسَ الشعر ولم يعد مُهتَّماً بمن يؤمّن له طباعة ما يُنجزه، كأسُ الخمرة والأوراق المنثورة، ومن دواوين الشعر ومطبوعات الآخرين يستقي الأفكار ويختلس الألفاظ، سوَّق شعره حتى لم يكن أحد يناديه إلا بالشاعر العظيم .

ذات نهار، وبشكل مفاجئ، صفعه قدوم مروة لتقابل مدير البنك، طفتْ على وجهه دهشة مفاجئة، غالبَ وسواسه فغلبه، اكتفى بداية بالتحديق فيها، وسريعاً، تعرَّى ارتباكه أمام الجميع من حضورها بشكل سافر ما إن رآها عن بُعْدٍ تبسط أوراقاً فوق طاولة المكتب، لم يستطع صبراً أن يبقى على جهالته لسبب قدومها المباغت، دخل غرفة الإدارة كيما يسألها عن سبب مجيئها، ردَّتْ بلا مبالاة مُتصنّعةً الخيبة :

- أريد شهادة خبرة من البنك .

باتزان مدروس سأل :

- هل حصلتِ على فرصة عمل جديدة ؟

لم ترد، غصَّتْ بأنفاسها واستدارت نحو مدير البنك الذي أخفى الأوراق سريعاً في درج مكتبه .

عاجلتْ إلى زحزحة فنجان القهوة بعد أن ارتشفت منه ثم دفعته على الطاولة ونهضت لتودع المدير ، بدا مستنفراً لمعرفة ما أتت مروة لأجله، خاصة أنها غادرت من دون أن تنال شهادة الخبرة كما ادَّعت، بدتْ نظراته حادة، ازدادت حركات جسده ويده تخبط قلقاً عندما لم يدرك مرامها من الزيارة المفاجئة .

opeikandl.com

-27-

لماذا يجفُّ ماء الحياة بعد الزواج ؟ أهو الاعتياد أم الاستسلام لفكرة أن الزواج خاتمة المطاف، لو أنه كذلك لما تعمَّدَ رجل أن يخون زوجته، كما هو حال أشرف، أو اندفعت زوجة لاقتراف الخيانة، كما تفعل مي، إذن فالعاطفة مُتَّقدة، فلماذا تُوجَّهُ نحو الخارج، نحو كل جديد يُبهِرُ الأبصار فتقع الأفئدة فرائس سهلة للغواية وتُشرَّعُ الأبوابُ للخطايا السرية ؟

الصور عاتمة، وقلب آديت يشكو من آلام مُمضَّة لأحاسيس تم إزهاقها بسكاكين الخيبة دونما جدل أو اختلاف في توفُّر معدل عالٍ من الوهم والاعتبارات أحادية الجانب لعلاقة جمعتها بأشرف فاختلفا في اعتبارها، فمن محض قلب، إلى محض سراب .

- الدكتور حسام الضللي يسلّم عليك .
- مَنْ حسام هذا ؟
- طبيب العيون، وصديقك الحزبي العتيق، ألا تذكره ؟

شرد قليلاً، ومضتْ عيناه، أتبعت قائلة :

- قصدتُ عيادته اليوم، عروة يشتكي من ألم في عينيه منذ أيام .
- تذكَّرته الآن، ماذا يريد ؟

رمقته باستغراب :

- ألم يخطر في بالك أن تسأل أولاً عن حالة عروة ؟ ولماذا افترضتَ أنه يريد منك شيئاً ؟

تململ في جلسته، ثم قال :

- ها .. لأني أعرف النتيجة، وصف نظارة طبية له، لكن، لِمَ تسألينني عن حسام على هذا النحو المريب ؟

محاولاً التهرُّب من الموضوع .. تابع يقول :

- أعطني الوصفة لأشتري النظارة .
- اختار عروة النظارة التي يريد، وغداً سأجلبها له .

حاول أن يبدو طبيعياً، فبادر يقول :

- قولي الآن، ما الذي أخبرك به حسام ؟
- علمتُ بأنكَ كنتَ عضواً فاعلاً في حزب مُعارض، وهو ما كنتَ تُنْكِره على الدوام، وتتظاهر بأنك ضد مبادئ هذا الحزب وأفكاره، أتذكُر ؟
- زمن ولّى بكل ما فيه، كانت مرحلة من العمر لم يكن النضج فيه مُكتمِلاً، يجب على الإنسان أن يبحث كثيراً إلى أن يعي ما يريد وما يؤمن به .
- ولكن عندما تكون عضواً مُزمِناً في حزب عارضته طويلاً، وأظهرتَ العداء لكل من التحق في صفوفه، في الوقت الذي كنتَ مُنضمَّاً لصفوفه، وناشطاً بارزاً فيه .. فما الذي يمكن أن أستخلصه من كل هذا ؟

ببرود مفتعل، أجاب :

- لا شيء .

أخرجت من حقيبتها الجلدية الورقة الصغيرة التي وجدتها في جيب معطفه، وضعتها في يده وهي تقول :

- وهذه .. هل ستُنكِرها وتُراوغ أيضاً ؟

بنى طوله ما إن رنا إلى الورقة، هاج وماج، شتم الدكتور حسام، دنا منها مُؤنّباً كيف تعبث بأوراق لا تعنيها، اختلق قصة وهمية مُدَّعياً بأن الورقة لصديقه وقد نسيها معه، كشفتْ له اتصالها ببعض الأرقام المدوَّنة في الورقة، وامتنعتْ عن إخباره بما تلا ذلك .

صرخ في وجهها، شتمها، كاد أن يضربها، أصرَّ على الإنكار، كما أصرَّتْ بدورها على رفض كذبه وخداعه .

كان شجارهما هذه المرة مختلفاً عن كل ما سبقه، انتهى بإطلاق رصاصة الموت على ما يربطهما معاً .

طلَّقها .

تركته جالساً بمفرده على الأريكة ودخلت غرفة النوم، أقعتْ على السرير تَملَّكها نشيج عنيف دفع بالدموع إلى عينيها .

أجرى اتصالاً بصديق له ضمن الحلقة الدينية التي يواظب عليها، حضر بعد قليل مُصطحباً معه الشيخ وشاهداً آخر .

هرولَ إليه صائحاً، أسفر وجهه عن هلع عظيم، وكأن النار تعربد فوق رأسه، لاذ بهالته التي رآها وحده، احتمى به وهو يختنق بالتفاصيل، استنجد به من نار تُحيقُ به، ومن سخط هدَّم جدران نفسه، زلزل مبنى عباراته وبيته، أراد أن يحجب عنه الأذى، فتناول يده بغرائبية تدلُّ على فزع عظيم أصابه، هبط فوق يده يستمسك بها برهبة غير مسبوقة، يُقبّلها ويلوذ بعباءته السوداء من شر مُدْلَهِمٍ أحاق به، نفذ إليه، استوطنه فأخرج العقل منه، وجعل من العينين ثقبي قمقم ما ضمَّا إلا الجنون، سلَّم إليه قيادة نفسه، جسمه يترنح، ولما أراد استثمار حضوره داخل بيته، ليحقن شرور ما يراه في نومه، وينجيه من براثن ما يلتحف به في ليل الظنون والصيحات، تسمَّر الواقف أمامه، وبعث بإشارات من يده نحو

السماء، خالطها بمثلها نحو الأرض، وشرع يتمتم وكأنه يقرأ الحديد على من لم يلتحق ولم يحتمِ، ويتلو السلام على الأجسام الهالكة دونه، يتلو ويتلو ويرفع يديه وعيون الحاضرين مُعلَّقة عليه، شدَّه بمغناطيسيةِ غَفْلَتِهِ عنِ الاستبصار، والركض لسَحْبِ شرارة الخير من أتون النار، هامَ كما السحب في الفضاء، ينتشي بما يخرج من ثغره من آهات، يتكوَّم جواره في خنوع، يتهاوى بعد أن هام بهالة لم يرها أحد سواه، ليهمهم طائعاً : زارتنا البركة .

غابت في غرفة النوم بعد إتمام الطلاق .

أقعت في سريرها تنشج باكية، تذكرت عبارات أليخاندرو، وبصوت مجروح نطقت :

- لا يمكن للكلمات أن تحلَّ أزمات الواقع، أن تنطبق على ما أتعرَّض له، الحزن .. لا يمرض، لا يموت !!! لماذا ؟! .

تبعها، بكى أمامها كطفل صغير فَقَدَ لعبته، ارتعشت يداه، جحظت عيناه، ارتعد جسده، دنتْ منه، سألته إن كان بحاجة إلى طبيب، نهرها، أبعدها عنه، استشاط غضباً مرة أخرى ونهض ملوّحاً بيديه، ومُهدّداً بأنه لن يعترف بالطلاق، اتهمها بأنها أرادت الوصول إلى هذه النتيجة لكي تتزوج بغيره .

بدا غريباً عنها، لأول مرة ينقضُّ عليها الشعور بالغربة واليُتم، بكتْ بحرقة وألم، نهض ليرتدي ملابسه، وخرج جاراً ذيول الخيبة .

سارعت تخبر سمية بما وقع، وبإصراره على عدم الاعتراف بالطلاق ورفضه مغادرة البيت .

- تعلمين أن لا أهل لي هنا لكي أعود إليهم، أرجوكِ أخبريه أن يتركني في البيت حتى ساعة سفري فقط، لن أبقى هنا .

لم يغب أكثر من نصف ساعة، عاد والهدوء المخاتل يسبقه بخطوتين، لأول مرة لا تخشاه، أحسَّتْ أنه يُخفي أمراً ما، جلس إلى جانبها، أمسك يدها، طلب أن

تغفر له خطاياه وتنسى ما جرى، وعدها بأنه سيتغير معها، أقسم بأنه مازال يحبها، قطع عهداً على نفسه أنْ لَنْ يُلاحقها في أمورها بعد الآن، وبأنه لن يتأخر عن تلبية ما ترغب به لتحقق حلمها، رجاها أن تحافظ على ما يربطهما معاً، بكى، لم تستطع النظر إليه، قالت :

- لكن أنت طلَّقتني ثلاثاً، وقد أتيت بالشيخ وشاهدين فكيف لك أن تتراجع ؟
- سأحقق كل ما تتمنين، ألا تريدين تحقيق حلمك ؟

بدا حلمها بعيداً، ناظرته بعين تترقب ومضة من البعيد، تفاصيلها الهشة معه طغت في عالم حزنها الكبير، فاختلفت ملامحه، أجابته :

- حلمي ؟!! سعيتَ لمراكمة ذنوبك فطغتْ عليه، أشرف .. انتهى ما بيننا بالطلاق .

أصرَّ كعادته ألا يخرج خاسراً، لابد أن يستخدم كل الأساليب للوصول إلى إقناعها بما يريد، واجهها بالقول :

- وفقاً للدين فأنا أستطيع التراجع .
- ليس صحيحاً ما تقوله .
- الطلاق الذي تمَّ رجعيّ وبإمكاني التراجع عنه .
- طلَّقتني وتلفَّظتَ بكلمة الطلاق ثلاث مرات، فكيف لك أنْ تعبث بما حدَّده الله ؟ وإن أردت أنت ذلك، هل يوافق الشيخ ؟ وهل سألت نفسك إن كنتُ أريد العودة إليك ؟
- هل أخبرتِ أحداً أثناء غيابي ؟
- سمية ..

انتفض واقفاً كمن لدغته أفعى، صرخ في وجهها مؤنّباً، كأنه لم يكن يرجوها منذ قليل، مسح دمعه وقال بعنف :

- سمية هي السبب في كل ما يعترض حياتنا من مشكلات، إنها تريد أن تخرب بيتي، انهضي الآن واتصلي بها، أخبريها أنكِ كنتِ تُمازحينها، وبأن ما من شيء قلتِهِ لها صحيح، انهضي فوراً وتحدَّثي إليها قبل أن تخبر أحداً، لا أريد أن يعرف أحد بوقوع الطلاق .

تكوَّرتِ الدهشة في عينيها، فأماطت اللثام عن ثغر اتسع أمام شهقة مُباغتة، قالت :

- وهل يُعقَل أن أمازحها بأمر كهذا ؟!!
- أجل، النساء يرتكبنَ حماقات كثيرة، انهضي بسرعة واتصلي بها .
- والرب .. هل ستخبره أنت أم أنك تدرك أنه كان معنا ؟

تحرَّك نحو الهاتف النقال وقدَّمه لها :

- قلتُ لكِ أخبريها ولا تتفلسفي الآن، دعي الله يلتفت إلى شؤون غيرنا.

تناولت الهاتف من يده، ضمَّته إلى صدرها وأتبعت :

- هل تدرك ما تقول ؟!! ما الذي جرى لك ؟ أنت طلَّقتني بإرادتك .

استدار ليقف أمام الواجهة الزجاجية وهو يضرب كفاً بكف :

- لم أنسَ، ولذلك أقول لك عاجلي بإخبار سمية بأنَّ الأمرَ لهوٌ منكِ لا أكثر .
- والله يا أشرف ... الله .

طوى قبضته وهوى بها على الزجاج فتحطَّم، صرخ قائلاً :

- لعنة الله عليكِ .. أنا لم أطلّقك، وأنا من سيحادث سمية ولن أنتظرك، كما لن أترك بيتي، لن أغادره .. لن أغادره .

دنا منها يريد أخذ الهاتف عنوة من بين يديها المتشبثتين به، قالت :

- ثمة مواقف تواجهك تتصرف إزاءها بعدوانية على خلاف شخصيتك، لكنك الآن تُظْهِرُ ما لا يمكن لي فهمه واستيعابه .

أشار بكفّه أمام وجهها حانقاً وأتبع :

- ما الذي تقصدينه بقولك هذا ؟؟ .. هل أنا مجنون ؟

ضمَّتْ ركبتيها إلى صدرها وعقدت يديها عليهما، أخفتْ وجهها الأسيان وهي تنشج وتقول :

- أرجوك أشرف .. أرجوك، أنا تعبت، لم يعد لدي القدرة على احتمال أكثر من ذلك .

opeikandl.com

خطـوةٌ فتحـتْ محضـرَ اسـتجوابِه، تنفـرُ كلماتُـه، تُعرّيـه، تَصـفعه، تـدوسُ حبرَ عَينيه، تَثِبُ، تصبحُ نَهراً مِنْ صفعات، خطوة تُقرِّرُ نَحْرَه، تَخلعُ سخريتها في وجهِه، تَمضي .. لتدفنَ الوحل .

بعـد جـولات مـن التـدقيق في ملفـات جـاد التي فارقهـا الغبـار، اسـتطاعت لجنـة التحقيق المشكلة أن تجمع الأدلة التي تثبت ضلوعه في ارتكاب عدد من الجرائم، فكان مع مجموعـة من المفسـدين موضـع شـبهة، فمراقبـة، فتجميـع أدلـة وقـرائن، فإخبار واعتقال .

غافل القائمين على إجراءات توقيفه فقام باتخاذ كل ما يؤمّنُ له الحماية، ففي غمرة انشغالهم بنقله إلى مركز التوقيف، تَمكَّن من توجيه رسالة نصية عبر جهازه المحمول إلى من هو قادر على تفريغ الادعاء من محتواه، ومع أول جلسة استجواب معه، كاد أن ينسى غروره وثقته العمياء بامتلاكه القدرة على تطويع من يريد وفيما يريد، فما تمَّ مواجهته به كان عَصيَّاً على النكران، لم يفارقه القلق منذ البداية، لكنه استطاع كبته والظهور بمظهر الواثق من براءته، خشي أن يجرَّ توقيفه للأسباب التي علم بها المزيد من كشف المستور، عيناه تلوبان في المكان سعياً وراء صور ماضٍ فات .

منذ أن استلم مهامه في وظيفته الجديدة، كان مُنفتحاً على كل من له اليد الطولى لجعل أسباب الغنى تطرق بابه، بسرعة الشيطان في ولوجه بمن يريد أن يخضعه،

فتآمر معه ومع أعوانه، بات يقتنص الفرص لاحتواء أية معاملة تُكسِبه المزيد من المال، اتبع في الخفاء أساليب تُمكِّنه من زيادة رصيده المصرفي بُعيد كل عملية يُنفِّذُها في ليلِ تحايُله على القانون .

أمضى بعض الوقت في حالة ذهولٍ، حضر أحد العناصر حاملاً بين يديه ملفَّاً ضمَّ بين دفتيه معلومات دقيقة شقَّتْ ثوبَ فضائحه وعرَّته، وجُلَّ ما كان يخشاه أن يتمخَّضَ عن نكرانه لها لسعات سوطٍ مسعورة ومتلاحقة تَخضُّهُ خَضَّاً فتتكالب على جسده الناحل .

استشاط الخَبَلُ في رأسه الدائخ، كما الغضب، أنكر كل ما وُجّه إليه من تُهَم

قال للمحقق الأصلع الجالس وراء طاولة مكتبه كطير يتأهب للانقضاض على فريسته :

- إن إنكار الحقيقة لا يقود إلى شيء، وما دمتُ في ضيافتكم فيتوجب عليَّ إكرامكم عكس المعتاد .

عدَّل المحقق من نظارته على أنفه، حدَّجه بنظرة ثاقبة من فوق عدستيها، حرَّك المحبرة الصغيرة عابثاً بمجموعة الأقلام أمامه ليختار واحداً منها ثم قال:

- تمهَّل قليلاً، عندما تدرك أنك هنا، فإنَّ هذا يستتبع منك قول الحقيقة دونما شطط، ولن يكون لخيالك المريض موطئ قدم .

حدَّقَ جاد في وجهه، فَغِرَ فاهُ تعجُّباً، تخاذل قليلاً وتململ في جلسته، وقبل أن ينبس بحرف، تلقى المحقق اتصالاً هاتفياً جعل من لحظات القلق والتوتر أنْ تنتهي وتُفرجَ عن ابتسامة خبيثة منه، تقررَّ إخلاء سبيله بكفالة مالية على أن يُستكمل معه التحقيق وهو حرٌّ طليق، تجهَّم وجه المحقق آنذاك مُنهياً جلسة الاستجواب سريعاً، شُرعتْ الأبواب الموصدة في وجه جاد، وأُطلِقَ سَراحه .

تَعنُّت أشرف في رفضه مغادرة البيت، دفعها للتوجه إلى بيت أخته سمية، أراد أن يمارس حياته بشكل طبيعي وكأن شيئاً لم يكن، قال لها عاصم :

- نحن نتعامل مع من يشاركوننا الحياة ونتفاعل مع احتياجاتنا وأمورنا حسب ما يقتضيه الحال، لكن الموت في لحظة يوقفنا، ومن خشيتنا، ترانا نندم على قرارات اتخذناها سابقاً في شؤونٍ لنا تربطنا بمن غادرنا .

- ما علاقة الموت بطلاقي من أشرف ؟

- الطلاق موت لكل ما كان حَيَّاً بين الزوجين، إنْ كان لابد من خروج أحدكما فهو من يجب عليه المغادرة .

- المشكلة أنه لا يريد الاعتراف بالطلاق .

- يبدو أنه اعتاد تَملُّكَ كل شيء، وقد أدركَ خسارته لكِ كُرْهاً وليس كما يريد هو، الزواج شراكة بين اثنين اختارا أن يكونا معاً، ومبدأ الفوز والخسارة تنطبق على هذه الشراكة تماماً، عندما تنتهي بخسارة فإن

أسباباً كثيرة تكون قد وقعت حتى انتهت إلى الفشل، لا يمكن حصر الأسباب ولكن النتيجة واحدة، هذا ما يجب أن نستوعبه ولأجله يجب أن يعي الآخرون أن لا سبيل للتدخل في زواج أو طلاق أحد، كما لا يمكن لهم أن يقوموا مقام الحق فيقيموا الحد

- أدرك ما ترمي إليه، اطمئن عاصم، لن أهتم لكلمة عتب أو لوم من أحد، فأنا من عاشر أشرف، وأنا من تجرَّع المرارة، ولن يثنيني ما حصل عن متابعة حياتي كما أريد لها أن تكون .

بعد لحظات، اتصل أشرف ليخبر سمية بأنه غادر البيت، طلب منها أن تخبر آديت بضرورة عودتها، همست بحزن :

- لماذا نبتعد عن أنفسنا ونستسلم للأفكار السيئة التي تُفسِدُ علينا أوقاتنا وتمتد حتى تتغلغل في جزئيات اللحظة ؟ الأفكار السيئة كالسرطان، ولن أستسلم لها .

بدا عاصم مُتحفّز لقول المزيد مما يبعث الراحة في نفسها، قال :

- عالمكِ الداخلي كَوْنٌ حقيقي، لا أحد يعلم ما فيه إلا أنتِ، عالمك هذا يتعامل مع المحيط كما هو، لكنه ثابت في إرساء ما يعزز راحتكِ الداخلية، الجهل بعوالم النفس الداخلية محرقة إن لم ينتهِ في لحظة، إذا استطعتِ أن تمعني التفكير في اللحظة وأردتِ بكامل قواكِ أن تجعليها مضيئة، عند ذلك فقط تسيطرين بإيجابية على ما يتبع، وتبعدين عنك التفكير بما سبق .

فاجأها أشرف ليلاً بقدومه إلى بيت أخته، بحجة تسليمها المفتاح الذي بحوزته ليؤكد لها صفاء نيَّته، وليُعلمها بأنه أخرج أمتعته الخاصة وصار بإمكانها العودة .

تأكَّدَ لها أن لا حاجز يفصلها عن الوصول إلى روحها التي تتوق إلى الحرية والبساطة والصدق، هذا هو عالمها الذي تروم أن تحيا فيه بهدوء، بعيداً عنه، عن أشرف .

كان لديها اليقين الكامل بأنها سوف تستعيد كل ما فقدته عبر سنين خلت، لم تعد قادرة على تحمُّل المنغصات، كما لم تعد ترغب بالتعاطي في أمر انفصالها عنه مع أحد .

في صباح اليوم التالي، توجهت إلى البيت وبرفقتها عروة و ورد .

كانت دهشتها كبيرة حين وجدته جالساً في كرسيه الهزاز، صدمها وجوده، لم تشأ أن تسأله عن سبب وجوده في البيت، اقترب منها، بثَّها رغبته بأن يعودا من جديد، وبأنه غير قادر على تحمُّل فكرة أنها بعيدة عنه، قدَّم لها باقة من الورد .

ببرود قالت له :

- لم يعد بالإمكان أن نعاود ما سبق لنا أنْ خُضْنا فيه، ألم نتفق على إنهاء الإجراءات وأخبرتني بأنك نقلتَ أمتعتك ؟ اطمئن، لن أطيل المكوث هنا، سأعود إلى ماليزيا قريباً .

- لم أنقل شيئاً، كانت محاولة مني لكي تعودي، آديت .. لن تسافري إلى ماليزيا، لن أتخلى عنك بسهولة .. هل تفهمين ؟

- أرجوك، كيف لنا أن نجتمع تحت سقف واحد ولا رابط بيننا ؟!

- لماذا تُصرّين على هدم كل ما بيننا ؟ أُدرِكُ أنَّ معك كل الحق في الإصرار على الطلاق ولكن ..

قاطعته قائلة :

- إذن لماذا تصرُّ على أن ننتهي بسوء ؟
- لقد سألتُ الشيخ عن فتوى تُصحّح ما كان بيننا .
- وهل تأمل أن تجد فتوى تتناسب مَعَ ما تهوى ؟
- لن أتخلى عنكِ، هل سمعتِ ؟ لن أتخلى عنكِ .

نهض خارجاً من الغرفة، تاركاً حجراً ناشباً ينمو تحته خوفها وقلقها وأسئلة سوداء ترتعش فتهزُّها من الأعماق، كيف يُساق الإنسان إلى ظلمة كهذه ؟!

أشعلت فتيل شمعة، وهي تصلّي في محراب السكينة، ترقب النور المنبعث منها، بسطت أمامها ورقة بيضاء، خطَّتْ عليها :
" لماذا نصر على جعل النهاية باردة، قاتلة، مُخيّبة، وجارحة ؟ في حين يحمل الزمن ما سبَّبناه له من إرهاصات الحلم البكر عبئاً على من قدَّم تضحية ففار الزمان حنقاً ممّن سلب اللحظات الجميلة روعتها وأناقة حضورها، كانت البداية حارة حية بأمل طفولي مشرق و توق شفيف " .
كتبت بخط عريض :
" أما الآن .... فسكاكين الخيبة تجزُّ عنق الوهم " .

كتبت الكثير، رسمت أشكالاً متباينة، ومتناقضة كحالتها الآن، كآبة تحاصرها، حالة عجز مرهقة تكاد تسيطر عليها، شعرت بغليان مبهم في داخلها وباستنزاف حاد .

اقتنعتْ أخيراً أن اللحظة المناسبة لتنتزع المرارة من حياتها ستحلُّ أخيراً رغم كل ما تقاسي منه، كانت تعي أن مصادر القوة الكامنة التي تهجع داخلها لم تُستَهلك بعد.

تفحَّصتْ نفسها جيداً لتعرف نوع العائق الذي يسبب لروحها الركود، وبمراحل متقدمة من التفكير العميق أيقنت أن الجانب الشيطاني من وسواس المرض لدى أشرف يؤكد لها أنه ممسوس بالتفكير في أنه بات دخيلاً على حياتها .

الوهم ليس وحيداً هذه الليلة، جرعة الأمل أُهْدِرتْ بصمتٍ على تربة رخوة، والشمعة تبدو في آخر عهد لها في الحياة .

فكرت بخطة تُسهّل إقناعه باتخاذ ما يجعله يحرر عنها القيود، باشرت على الفور بتنفيذها، أجرت اتصالاً مع أليخاندرو واتفقت معه على التفاصيل .

كان قد دوَّن رقم هاتفه في الصفحة الأخيرة من دفتره الصغير، ثم اتصلت بمي لتخبرها عن مشروع ترفيهي سياحي تنوي القيام به، لكن أمر تحقيقه يتوقف على عدة شروط أوضحتها لها بالتفصيل .

تشجعت مي للفكرة، وعدتها أن تحاول جاهدة لكي تنفذ الشروط المطلوبة وتحظى بهذه الرحلة الاستكشافية، حددت آديت لها المكان والزمان للقاء حيث الموقع المحدد ومضت تعد العدة للتوجه إلى المكان .

-30-

لم تجد إلا الحيلة سبيلاً لها لكي تشجع جاد على مرافقتها، أوهمته بأن المكان الذي تريد زيارته مرتبط بكابوس يتراءى لها أثناء نومها، وقد نصحها أحد الأصدقاء بالتوجه إلى دير مار موسى الحبشي، حيث يوجد هناك شاب إسباني يقوم بتخليص المرء من أي كابوس يراوده، لكن من شروط تحقق ذلك أن تزور غابة محددة كثيفة الأشجار تقع ضمن الساحل السوري .

اعتبر دعوتها له بمرافقتها فرصة تبعده فترة عن الأنظار، مُلقياً بما سوف يتم اتخاذه من إجراءات تخص القضية التي أُوقِفَ لأجلها عرض الحائط، كما هي فرصة كيما ينفرد بها، نسي من كانت تقصُّ عليه تفاصيل معاناتها، فالعرض الآن يعادل الفوز بأكبر جائزة يمكن أن يحصل عليها يوماً .

في الموعد المحدد للانطلاق من دمشق، استقلَّا سيارة أجرة وانطلقا معاً .

لم يكن السائق يعلم بخط السير الواجب سلوكه، حيث أن المكان الأول يقع ضمن مسالك الريف الوعرة، فعمل جاد دليلاً يكشف له مجاهل الطريق .

تقدَّموا مجتازين ممرات ضيقة وسط الجبال الشاهقة التي عَجَّتْ بأشجار الدلب والصنوبر والسرو .

التزمت مي بالشرط الأول بشخص من يرافقها، أما الشرط الثاني فكان أن تتجه إلى غابة حراجية حددتها آديت بدقة، أخبرتها بأنها سوف تجد فيها كوخاً خشبياً منفرداً وسط الغابة، سيكون مُستقراً لها ولزوجها ليوم واحد، ومن ثم يتم التوجه إلى الدير .

اعتبرتْ آديت أن الطريق التي اختارتها إنما هي طريقُ خلاصٍ لها من إحساس الذنب الذي رافقها طيلة مكوثها فوق أرض رخوة ترك لديها شعوراً خانقاً، يعجُّ بالإخفاق والهذيان .

تلك الطريق، سلكها جاد ولم يكن مُقتنِعاً بجدوى اتباعها، كان مُمعِناً أكثر من أي وقت مضى في نكران كل ما يعنيها، ليقينه بأن السحر الذي نفّذه مُحكَمٌ ومن شأنه إبطال تأثير أي حماية منه أو ردع له، سرعان ما اعتبر أنه سوف يتمكن أخيراً من جعلها خاتماً في إصبعه، وبأن هذه الرحلة مُغرية وتستحق المجازفة، زيَّنها بواقع العبث الذي اتَّصفَ به، فأظهر لها أنَّ ما حَداهُ لهذا الارتحال إنما هو استكشافٌ للمزيد من التفاصيل التي تدعم مقصده الحقيقي في التجريب المؤدي إلى الإبداع، ولهذا الغرض فقط أثنى على قرارها عندما انطلقا، مُعتبراً أن الطريق التي يسلكانها إنما هي طريق اكتشافِ ما غَفِلَتْ عنه، لتواري سَوْءةَ القهقهة المُتربّصة بتجلّياتِ ما سبق أن شهدته وعايشته طوال فترة انقضاض الكابوس عليها وعزلها عن كل ما هو مُبهِجٌ في الحياة، بخلاف ما تُنشده من إجابتها للنداء الجلي، حيثُ السلام لروحها المعذَّبة .

ولأن ما يمضي نحوه جاد مختلف في غايته عنها، فقد كان أكثر ولوجاً في حمأة المغامرة، والمغامر يُسابِقُ الريحَ في أغلب الأحيان، فكيف إنْ كان لاهياً غايته المتعة واللذة ؟! .

على بُعْدِ وَعْدٍ من القدر، توقَّفَ السائق ليخبر جاد أنه لن يستطيع التقدُّم أكثر، فالطريق وعرة، ولن يكون من السهل عليه معرفة طريق العودة .

- سنعود معاً، لن يطول مكوثنا في الغابة، لا تشغل بالك .

أجاب جاد بكذب تَقصَّدَهُ لكي يضمن بقاء السائق معه .

لكن السائق أكد له أن صعوبة الطريق سوف تضعف محرك السيارة، ومن الأفضل أن يُكملا طريقهما مشياً نحو الغابة .

كانت آديت صامتة وقد أدهشتها الطبيعة المحيطة، لم تكن لتتدخل بالحديث الدائر بين الاثنين، وأمام إصرار السائق أشارت لجاد أن يتابعا السير بمفردهما، لتبدأ رحلتهما الجديدة سيراً على الأقدام .

مدارج مرصوفة بالأحجار، تنوع حراجي مُذهل، حيث أشجار الصفصاف والصنوبر والسنديان والعرعار والبلوط والحور والدلب .

خطت خطواتها الأولى فوق مَرْجٍ تَدرَّجَ فيه الأخضر بهاء، تناثرت فوقه الأوراق المتساقطة لتزيّنَ نسيج الأخضر كبساط ممتد فوق تربة طيبة تبعث في النفس مَهابة الخلق وجزالة العطاء .

obeikandl.com

نسمات أنعشت صدرها وسرَّعت من أنفاسها بغبطة وحنين، سرعان ما تحرَّشت الريح بأوراق الأشجار لتحرّضها على البدء بعزف سيمفونية رائعة حسبتها موسيقى مراسم استقبالاً لها .

تساءلت بغبطة السائح الممتنّ لقدره الجميل عن تاريخ هذه الأرض المكلَّلة بالجمال وكم مرَّ عليها من مالكين وزوار، كم تناثرت فيها ابتسامات وضحكات، كم حفظت جذوع الأشجار فيها من أحاديث وأسرار ! .

كانا يحطُّان رحالهما كلما تقدَّما وازداد التعب بالصعود المتواصل في مسالك الغابة، لهاثٌ محمومٌ يصدر منها، كانت أنفاس جاد الكريهة تتقطع كشاحنة تلفظ دخانها الأسود بعد سفر طويل، بصعوبة تفوَّه بكلمات قليلة ليشتم إدمانه النارجيلة، توقف عند عين ماء نقية إلى جانب الطريق المفضي إلى عمق الغابة، ألقى بالحقيبة التي يضعها على ظهره، كان كمن يسوق قطيعاً من الغنم، لكنه و آديت من كانا بحاجة للشرب، نَهَلت ما يروي ظمأها، فانفجر العَذْبُ مِدراراً صافياً داعياً للابتهال والارتواء، وما إن دنا منها ليشرب، تكدَّر العَذْبُ مِنْ مَسِّ الرجس .

عندما ارتوت، كان التعب قد نال منها، استرخت مُستسلمةً لنسمات داعبت خدّيها، وما إن أغمضتْ جفونها حتى غفتْ، لم تكن إغفاءةً كالتي تدهم المرء عندما يستسلم لسلطان النوم، فلا حاجة لها للنوم في خضم غابة ستكون مسرحاً لكشف الأسرار، وبذريعة التخلص من الكابوس اللعين الذي أتعب أشرف ونال منه .. فها هو قد حضر أيضاً وبرفقته مي .

كان جاد يرقبها وقد تحركت فيه الشهوة، في عينيه شبق لم يستطع كبته، دنا منها، خالجته الرغبة بعنف الامتلاك المسيطر عليه، سرعان ما استبدَّتْ به الشهوة المتقدة بجمر أنفاسه المتلاحقة، مرَّرَ أطراف أصابعه على ساقيها، ارتفعت

حرارة شهوته، لمسها بشيء من الحذر، تأكد أنها مأخوذة بعمق في واد سحيق من الغفلة، همَّ بنزع ملابسها، استغرب للحظة استسلامها لقبضته، لكن .. سرعان ما ارتجفتْ واستفاقتْ مِنْ غَفوتها، شعرت لوهلة أنها في عالم آخر، تبدَّى لها بوضوح أثر ارتوائها من العين النقية التي شربتْ منها، أوَّله يقظتها في لحظة كاد جاد يهمُّ بها وهي في انصياعٍ لطيفٍ لطقسٍ فريد، استشعر جاد ذيول هذا الطقس الذي سُحبتْ إليه آديت، فانسلَّ مُبتعِداً عنها بعصبية واضحة، لكأنَّ روحه أبتِ التألُّفَ معه، بدا له أشبه بسباحةٍ في عُمْقِ الضوءِ المتناثر، رَقْصٌ مولويٌّ لأشباحٍ تتراءى له، تدور و تدور في فلك الحضور الكثيف لأجنَّة من نورٍ تتراقص حوله .

ولأن مِزاجَهُ شيطاني، لم يحتمل سَقْطَ أجنحةِ الخيال على احتمالاتِ المكوث، ركَّزَ بصرَهُ في قطراتِ البصماتِ المتلألئة تحتَ أجنحةِ النورِ الساطع، رفعَ يدَهُ مُتخيّلاً كأسَ نبيذه في مواجهةِ لهبِ نارٍ ما استطاع تحمُّلها .

في الماء الضَّحْل المنسرب من العين الجارية تساقطت خطاياه، ناثرةً رذاذاً مِنْ بُصاقِ الشيطان، لامعة كالدم، صاخبة كريحٍ تزأر وسط هيجان الأوتار، شوَّشتْ على انسجام عَزْفِ أرواحٍ ماضيةٍ في قلقٍ مُتحدّرٍ من أحلام الطفولة لاستعادتها، وهو ماضٍ في مُتَعِ الحياة إلى حدِّ البلاهة .

شعورٌ بالألفة مع المكان غزا آديت الواصلة للتو، وكأنها عائدة من منفى، فكرة غريبة سيطرت عليها بعدما استعادت وعيها، تمثَّلتْ بأنها لم تكن لتمثل في هذا المكان إلا للعمل على التحريض لساعة الولادة الجديدة لها بعد مخاض عسير أمضته بقسوة وألم .

آديت وجاد، ولجا الغابة معاً، ثمة هدف سري مختلف إلى حد التناقض لهما، لم تخلُ نظراتهما من الاستغراب نحو بعضهما البعض، ذاك الاستغراب المشوب

بالريبة، لكنها، وبدافع الفضول لاكتشاف المكان لم تُعلِّق على ما كاد يقترفه بحقها، ربما شعرت بقوةٍ عندما حاول وللمرة الأولى أن يبرر ما كان ينوي فعله، لم تدعه يتحدث طويلاً في الأمر، إذ بدتْ - مُتعمّدة - في حالة استهتار وتأجيل لما يريده ويحلم به .

أيقنت أن سطوته بدأت تنوس وتضعف، لا عليها وإنما على كل من أوقعهن في حبائله، اعتبرت أن تباشير الخلاص من سحره الذي أرهق مي، كما أخبرتها، قد بدأت تلوح في الأفق لتنهي علاقتها به أيضاً، وبأنها نهاية لمرحلة سوف تُمكّنُ مي في القادم من الأيام من مواجهة أي طارئ مُخاتِل منه، لم تكن تشعر بالكراهية تجاه مي، إذ لا ذنب لها بزواج أشرف منها، لكنها تشبهه إلى حد كبير بسلوكها طريق الخيانة .

أقسى ما اكتشفته بعد أن أوغلت في أحاديثها مع مي، أنَّ أشرف لم يكن مُصاباً بالعجز الجنسي، فقد ادّعى ذلك في علاقته بها كزوجة ثانية بهدف التهرُّب من واجباته الزوجية كرجل، فادّعى العجز ليدَّخر قواه وليسرف في علاقاته الجنسية مع الأخريات .

" يحدث أن يجتهد الإنسان في تبرير كل ما يحدث له أو يقترفهُ، لكنه قلَّما يُصيبُ في اجتهاده " .

حدَّثتْ جاد بذلك عندما انبرى يبرر لها ويلوك الكلمات فيما كان مُندفِعاً إليه

•

كان أشرف يجلس في كوخ صغير هو المكان المتفق عليه، لم يجد صعوبة في العثور عليه، إذ كان الكوخ مُنفرداً لا شريك له وسط الجبال، يُحدِّقُ في الغروب بلونه

الأحمر المائل إلى البرتقالي، بدتْ له الشمس قريبة جداً منه، إلى درجة أنه يكاد يستطيع تلمُّسِها .

ساورته مشاعر الندم والقلق والخوف، كل شيء من حوله يدعو إلى ذلك، بعد أن قَبِلَ بمرافقة مي إلى غابة كثيفة الأشجار، لأجل أن يتخلَّص من كابوسه .

•

جاد وآديت .. تابعا المسير في الغابة إلى أن عثرا على الكوخ الخشبي، أشار جاد بضرورة التأكد إنْ كان هذا الكوخ هو المقصود أم لا .

دعته ليكملَ طريقه نحو الكوخ دونما وجل على أن يلتزم الصمت في الداخل، ابتعدت عنه بعد أن أخبرته بضرورة أن تحقق بمفردها الشرط الثالث .

طرقَ الباب عدة مرات .

بعد لحظات، أطلَّ رجلٌ له كتفان عريضان وعينان عميقتان، وقد أخفتِ الظُّلْمَةُ قسماتِ وجهِه .

كان أشرف على بُعْدِ انفراجٍ مِنْ التعب، لم يكن من السهل عليه التسليم بهذا الشرط، فبمجرد أن يُطرَقَ باب الكوخ المحدد أن يقيم فيه، فإنه يتوجب عليه أن يفتحه ويستقبل القادم إليه كائناً من كان .

كانت عيناه تشيان بحزن شديد وبوجل، تراجع خطوة إلى الوراء لدى تَقدُّم جاد نحو الباب، لم يدعه يطيل الوقوف، تأهَّبَ ليفسح له المجال للدخول، كان جاد يراقب حركة وئيدة لقدمٍ تتراجع لتُوسِعَ الطريق أمامه لكي يلج الكوخ، كانا يُمعنان

النظر إلى بعضهما البعض من دون أن يتمكَّن أحدهما مِنْ كَشْفِ ملامحَ الآخر أو التحدُّث بكلمة .

فكَّر أشرف للحظة كيف له أن يدع رجلاً غريباً عنه يدخل الكوخ ! همس في سره قائلاً :

- صه .. وتقول لي بأن كل رغباتي سوف تتحقق بمجرد حضوري إلى هذه الغابة والالتزام بالشروط !! أي أحمق أنا ! .

في ذات اللحظة تساءل جاد سِرَّاً وباستغراب شديد عن قدرة هذا الرجل على المكوث وحيداً وسط هذه الغابة .

كانت الإنارة في الداخل ضعيفة، بصيصُ ضوءٍ خافتٍ ينبعثُ من مصباح صغير لم يُمكِّن أشرف من رؤية ملامح الغريب القادم، لكنه استسلم لشعور خفي مُطَمْئِنٍ له استحوذَ عليه فجأة، ما جعله يشرع الباب أمامه وقد انبجسَ في صدره نورٌ خافتٌ له هدف يبدو مُتجانِساً ومُتآلفاً مع ما جذب الرجل إلى الكوخ .

نظراتُ ريبة يتبادلانها، عزَّزتها عتمةٌ سابحةٌ في أرجاء الكوخ، والكثيرُ من التساؤلات .

كلاهما كان قد نسي ما تركه وراءه ومضى في حياة جديدة جمعتهما، لكن ليس هناك من يدرك إلى أي مدى زمني سوف يشتركان فيها، وما الغاية من المثول في هذا المكان .

دنا أشرف من الطاولة يشعل فتيل مصباح آخر، ثمة تحوُّل طفيف أصاب تكوين النظرة عند جاد، رغم ذلك بدا مختلفاً عنه، ما شكَّل الريبة والتوجس لديه بعد أن نظر إلى وجهه دونما نطق بأي حرف .

في جعبتهما الكثير من الأسرار، يدركان بعضاً منها، ويجهلان ما تحتويه صُرَّة الروح الضامرة التي تشاركه المكان .

وقفت مي على حافة الصدمة حين أمعنت النظر في وجه آديت المقبلة نحوها، كما لَفَتَها رسوخ اليقين لديها مُذْ رأتْ ملامح وجهها، انتابها شعور غريب إذ ذاك، دقَّقتْ في وجهها جيداً، ركَّزت على ملامحها بعد أن توضَّحت بعد اقترابهما، تسارع وجيب قلبها، بادرت بالقول :

– ما الذي أصابك ؟ أنا أرتعش فزعاً، وجودي هنا هو الكابوس الحقيقي.

تحدَّثتْ إليها مُطوَّلاً، شرحت لها الأسباب التي دفعتها لاختيار هذا المكان، وأكثر من ذلك .. كشفت لها الأسرار، انتابت مي مشاعر متناقضة لم تكن قد عرفتها قبل ذلك، خشيت أن يكشف أشرف علاقتها بجاد، أكدت لها آديت أنه لن يجرؤ على التحدُّث في علاقتهما معاً، فالهدف أكبر من ذلك .

أمضى أشرف وقتاً لا بأس به يعارك الدهشة وتعاركه، تساءل بصوت مجروح:

– أي قدر ساقني إلى هذا المكان ؟!

كان الوقت المحدد قد شارف على الانتهاء، الصمت مازال يسرح مرتاحاً في المكان الذي يجمعه بجاد، لم يكد ينهي عبارته تلك حتى دخلت آديت ومن خلفها بدت مي يتولاها قليل من الارتباك .

راعه ما رأته عيناه، دهشة لم يستطع إخفاءها، أربعة في غابة قصية، ليس من المتوقع أن يقصدها أحد، لبعدها عن مراكز المدن وعن الطرق الرئيسية والفرعية .

استمر أشرف في وقفته مُنذهلاً يكاد لا يصدق أنه في مكان واحد مع زوجتيه الاثنتين، وطأ جاد دائرتهم طالباً تفسير ما يحصل .

لم ينتبه إليه أحد، كأن وجوده لم يعد يعني لهم شيئاً، انشغلت مي بالمواجهة الأصعب بين آديت وأشرف، ولم يعد يعنيها وجود جاد .

آديت ابنة عم زوجها والتي كانت حتى وقت قريب زوجته الثانية .

آديت التي تمسك الآن بخيوط اللعبة .

وقف الجميع في دائرة واحدة، حرّك جاد جمر اللقاء في مرقده تحت صفيحة الذكريات عندما عبث بأصابع يده أمام وجوه الآخرين، بدا كالأبله حينما قال:

- هاي . ما حالكم ؟ من أنتم بحق الله ؟ هل أنتم أشباح ؟ فسّروا لي ما يحدث هنا قبل أن أُجنَّ أو أصيبكم بما لا يُحمد عقباه .

نظروا إليه، والوجل يعصف بقلبَي أشرف و مي، أما آديت، فقد كانت وحدها تشعر بالاطمئنان .

ارتدَّ نظرهم إلى بعضهم البعض، والصمت سيد الحدث الجلل .

الآن فقط انكشف السرّ وراء ارتباط هذا المكان بالكابوس المتكرّر لأشرف منذ سنوات .

انهزم التردُّد، وحان موعد الإفصاح عن تفاصيل الحضور، إذ لم يعد في الأمر ثمة لغز أو سر .

استبدَّت بأشرف مشاعر مُتناقضة، قفزت الأسئلة بكثافة في رأسه :

ما الدافع الحقيقي وراء حضور آديت ؟

ما الذي جمع بينها وبين مي ؟ وما الذي جعلهما تلعبان هذه اللعبة ليحضر إلى هذا المكان بحجة التخلُّص من الكابوس اللعين، أيمكن أن يكون الأمر خدعة صرفة لترمي آديت بشرّها في طريقه دفعة واحدة ؟

ومن يكون هذا الشاب المأفون ذو الشعر الطويل ؟

ما الذي يضمن له السلامة بعد هذه المسرحية الهزلية ؟

هل مجيئه إلى هنا مجرد طُعْم ليكون حصاد رحلته شرَّاً يرسم نهاية حزينة ويكون وحده الضحية ؟

تشظَّتْ حروف أسئلته، كل شظية منها تحمل معولاً يهوي على رأسه، كل قطرة دم تنزف منه لها فكّي كماشة، هذا ما تراءى له أمام مفاجأته تلك .

الأربعة في ذات المكان، يقفون على حدود حكاية مجهولة المآل، محفوفة بالمخاطر، وفي أعماق كل منهم تتردد كلمة واحدة، مختلفة عما يردّده الآخر، لكن مي وأشرف كانا يشتركان بالكلمة ذاتها، لم يتجرأ أحدهم على لفظ حروفها بعد ..

" الكابوس / الخيانة – الخيانة / الغواية "

obeikandl.com

-31-

لقاءٌ أرادَ أشرف تَجنُّبَه، مي وآديت في مكان واحد، لكن الشمس إن أرادت السطوع فإنها تتخلَّل الغيم لترسل ضفائرها وإن لم يرها .

بدا مُستسلماً لما أراد القدر صوغ حكمه .

" هل تفرغ ذاكرة الخطايا من صور البدايات ؟ أم أن من يحيا قصة تلو أخرى بادعاء الحب، تراه ينثر التراب على قبور الذكريات المضمخة بأريج الماضين ؟
بالغ في أنانيته، حافظ على غموضه بمواجهة الآخرين، لكنه تعرَّى أمام آديت، وهذا ما سبَّب له الخيبة .
بدا الأمر مُرهقاً له بعد فوات الظن .
غَصَّ بدمعه وهو يرنو إلى لحظة تنسرب كما الماء من بين أصابع يده، أيقن أن عمر وجوده معها لم يبق منه الكثير، جسده بارد وإذا ما ألقي به فوق سرير منامته مع آديت .. غابت رجولته قاصداً مُتعمّداً، لفراغ قلبه من أية مشاعر تجاهها، ولانغماسه في أتون الشهوات مع غيرها .
صور متتابعة من أزمنة مختلفة ولحظات تتسابق كقطعان لتنال حظها في المثول، صور للبعد ولحظات الشوق ومرارة الفراق، تناقضات تعجُّ بها صور حياته،

تداعب خيالاً فقيراً لتحرّضه على صنع رؤى أحياناً ومحاكاة لواقع مأزوم أحياناً أخرى، دلالات وإشارات تبقى رغم ما يعتريها من ضبابية مؤلمة حد الفجيعة، خواء .. خواء .

أحسَّ بارتفاع مفاجئ في الضغط، لكنه لم يُلقِ بالاً لذلك .

تقدَّم منها، أمعن النظر في وجهها كأنما يراه للمرة الأولى، أيقظ بنظراته الماضي الذي كابدتْ فيه طويلاً كي تتخلَّص من ظلمه، ومن آثار ما تركه في روحها، همس قائلاً :

- لا أودُّ مواجهة القدر، فلماذا جعلتِني أتعثَّرُ بكما معاً لأقع ضحية هذه المواجهة ؟

تنطَّع جاد بالقول :

- لا عليك، لا عليك يا صاح .. اووووف أرغب بالتجوال في الغابة .

رمقه أشرف بازدراء ثم قال وكأنه يصرفه :

- أرى أن تتنزَّه في الجهة الشمالية للغابة لتستكشفها لنا، تَوغَّلْ فيها قدر ما تشاء .

لم يستطع جاد زجر نفسه عن القهقهة، قال :

- لماذا تدفعني للسير في متاهة ؟!

قال له أشرف دون الالتفات إليه :

- اخرج إن شئت أو عُدْ من حيث أتيت، إذ لم يعد في الأمر جهالة، ولا مكان لك بيننا .

يبدو الماضي ماثلاً أمام عيني آديت، استجمعت مشاعر حملتها ردحاً من الزمن بعثرها في داخلها لكنه لم يستطع وأدها، اندفعتْ عيناها برمي سهامِ اللوم في وجهه، قوة كامنة داخلها جعلتْ منه دريئةً تلقَّتْ جنون اللحظات التي تجمعهما

توجه أشرف إليها بالقول :

- ربما إنْ تَمكَّنتُ من الصراخ الآن فقد يُقدَّر لي التخلُّصَ مما في روحي مِنْ مَسٍ للشيطان، كثيراً ما توجَّستُ قُبيل وصولي إلى الغابة، من تعرُّضي لأذى حيوان مفترس، لكن لم أتوقع البتة أن أقع في مصيدة القدر والطُعْم .. كابوس .

- يبدو أنه لم يكن إلا حصاداً لظلمك لي .

تأكد لها أنها تُميتُ تباعاً ما تبقَّى مِنْ أثرٍ له في روحِها المعذَّبة، لم تستطع أن تكتم ما ترغب بقوله، تابعت :

- من الصعب أن تحققَ المهادنة مع قَدَرٍ لن يُمهِلَكَ الكثير من الوقت لكي تستوعب دروسه، لكن إذا ما تَجهَّزتَ في أعماقك لمتغيراتٍ تطرأ على خارطة الطريق التي كنتَ تسير فيها وجاء أحدهم ليحدِّدَ لكَ درباً أخرى، فإنك تكتشف أنَّ مِنْ حقِّكَ اختيار الأفضل لك .
هذا ما جعل القدر شريكاً لي .

استطاعت أن تحرق كل الأقنعة ولم يعد بإمكانه إخفاء ما يعتملُ في داخله، جاد و مي يبدوان بهيئة كومبارس، انوجدا لكي يحققا شروط المواجهة لا أكثر

حاول أشرف جاهداً محو أثر ظلمه عن ملامح حياته مع آديت، وفي ظنِّه أنه استطاع إزالتها، كان يتجاهل ما افتعله في العُمْق، لكن ما إنْ ارتقت فوق مستوى

المنظور حتى أدركتْ أن هناك ما ترسَّخَ في روحها فدفعها نحو الأمام، في حين لم يدرك هو إلا القهقرى، كان يهرب من المواجهة كمن يفرُّ من لحظة الموت التي تدهم حياته فتنهيها .

لكلماتها الآن وقع السياط عليه، كما في كل مرة تحدّثه، اعتبرت أنه يستمع إليها وإنْ حاول التظاهر بإهماله النرجسي لما تقوله كعادته معها، عشرة أعوام من القهر والظلم، انتهت بكشف الزيف والخداع بعد أن تمرَّس على إتيانهما بمواجهتها .

أدركتْ خلال سنيّها المنقضية أن عفّتها وتسامحها، حالا دون إتمامه لمخطَّطه، بأن تكون الزوجة المخدوعة والرابضة فوق تخوم الخيانة .

خياناته المتتابعة أماطت اللثام عن بؤر العفن، وقد أدركتْ أنَّ قلبه ليس معها، لم يكن قلبه مع أحد، كل ما كان يهتم به أن يرضي ذاته الموغلة في الأنانية والغرور، أما الورقة الصغيرة التي وجدتها في جيب معطفه فلم تكن إلا القشّة التي قسمتْ ظهره، الحبل السري بين ظلمه لها وخياناته المتكررة لم يكن سوى الكابوس الممتد على طول لياليه، وقد ساقه القدر إلى حيث هو الآن، لتقطعه، قالت ببرود وبثقة :

- استطعتَ بيُسرٍ زرع القبح في تفاصيلنا معاً، هل تتوقع أن أغضَّ الطرف عنه وهو الأكثر إيلاماً والأشدُّ وَقْعاً على روحي ؟ ما كان يعنيني في ماضيَّ معك أراهُ مُنسحباً على حاضرك، ماضيك وإنْ عادَ الآن، فلن يُغيَّرَ من مستقبل اللحظة التي تجمعني بك .

طغت المرارة على وجهه بعدما أذهلته بما تفيض به روحها، وشيء آخر يشبه الألم المرتسم على وجه طفل يحاول أن يلوذ بحضن أمه .

اندفعت تقول له متابعةً حديثها :

- لا تستاء مما حصل، القدر يجلو لنا ما كنا نبرع بإخفائه، وفي ظنّنا أننا نُحسنُ التصرف لكي نُجمّله في عيوننا، ما مضى فات وانقضى، عليكَ التصرف إزاء ما هو قادم، وإلا فالخيبة لنا .. واللعنة علينا .

التزم الصمت، صمتٌ يَعجُّ بالصخب المخاتل، بالضجيج المقاتل المهزوم، ضعيفاً يبدو أمامها، يَجترُّ بخيبةٍ ما آلتْ إليه حاله، وهي تبدو أمامه قوية متماسكة، سألته بسخرية :

- كيف ترى نفسك الآن يا بن عمي ؟

أدرك إذ ذاك أن لا مناص من المواعيد الحتمية التي يصنعها القدر، ولا خلاص من الحرائق التي تأتي على الأخضر واليابس أمام لوثة كثيراً ما استبدَّتْ به .

أدركت بدورها أن الأمل حتمي في الحياة، ولو لم يكن كذلك، لما أصرَّت على المواجهة معه لتثبت لنفسها أولاً أنها تستحق الحياة، ولكانت استسلمت كما الكثير من البشر، الذين يجهضون معنى الحياة ولا يدركونها، يقتلون الحياة في نفوسهم بقتلها، لكن لا يستطيعون قتل معناها في قلوب الآخرين، ينهزمون أمامها، وربما البعض منهم يتجرأ على وجوده فيجعل الانتحار سبيله الوحيد للتخلُّص من الأزمات الكبيرة والمصائب .

أدركت أيضاً أن الازدواجية ملح الرجال ومنها خُلقَ الكذب في العالم السفلي، لم تكن تدري مدى انطباق رأيها هذا على الرجال بصورة عامة، أو انحساره عن بعضهم، لكن ما هي متأكدة منه الآن، أنه ينطبق على أشرف .

- أيهما سابق على الآخر : الكذب أم الخيانة ؟ أم أنهما صنوانِ سوءٍ لا يفترقان ؟

سألته بصوت مجروح، ثم استطردت :

- احتفظ بالجواب لنفسك يا أشرف، أما أنا .. فقد بحثتُ عما يدفئ روحي، ألفيتُ في أعماقي بعضَ دفءٍ ونثار بوح، وشمعة تتلوَّى احتفاءً بلقاءٍ مع ذاكرةٍ مُعذَّبةٍ ومُتَّقدة، كم كان الثلج يعنيني، وها هو قد أُذيب اليوم .

كان أشرف مُطرقاً كما لو أنه بمواجهة قاضٍ يتهيأ لتلاوة قرار حكم مبرم لا سبيل للطعن فيه، لم ينبس بحرف، أطرق واجماً ذليلاً .. فأردفت :

- الإنسان قادر على أن يزرع الحب في أية تربة خصبة، وهذا ما افتقدته أنت، لم تزرع في تربة روحي ولا فضائها ما يبقيك في قلبي .

أيقن في هذه اللحظة بالذات، بأنها تمكَّنتْ مِنْ نَزْعِ كل الأصفاد التي قيَّد بها حياتها طوال عشرة أعوام لتقذفها في وجهه .

دنا منها، أراد لمسها فأبتْ، ابتعدت عنه قائلة :

- لا تلمسني أرجوك .

أشاحتْ نظرها عنه، تكاد تفقد السيطرة على اتزانها وهدوئها بعد كل ما مر .

لم يُردِ السكوت أمام كل ما واجهته به، فقال :

- كنتُ أحبُّ مي منذ زمن طويل، لكن أهلي رفضوا زواجي منها، ولكي يُبعدني والدي عنها اتصل بعمّي وطلب يدك منه، ألحَّ الجميع عليَّ أن أتقرَّب منكِ وأتعرَّفَ إليكِ، لم أستطع إقناعهم بأن حبي لمي يمنعني من التفكير بغيرها، سايرتهم وقد أدركت أني خاسر لا محالة إن رفضت، تزوجنا سِراً وأخفيتُ عنهم ذلك، لكنهم اكتشفوا سِرّي بعد فترة قصيرة، كنتُ خلالها قد حقَّقتُ لهم ما يريدون من الزواج بك .. سامحيني آديت، لا أنكرُ أني كنتُ سيئاً معك، لكني لستُ بالقبح الذي يتراءى لكِ

.

تغضَّن وجهه، احتدمت الأفكار في رأسه، أراد أن يخفف من وطأة الموقف الذي زُجَّ فيه، تفوَّه بما لم يكن في حسبانه أن يقوله :

- لم يكن يتعيَّن على شخص مثلي أن يتزوج، فأنا لم أُخلَق لأعيش حياة مُستقرّة، كنتُ أرى ذلك بوضوح شديد، لكن ما يحزنني الآن هو ثمن هذه المعرفة .

قالت له وهي تمعن النظر في وجه مي :

- أدركُ أنك تريد التخفيف من وطأة ما ارتكبته بحقي، من المؤكد أنني حصلتُ على ما أستحقه في الوقت المناسب، تجربتي معك رغم ما عانيته .. كانت نافعة، لكن أقول لك بصدق : تماديتَ في غيّك كثيراً
- ألا يمكن أن تعيدي النظر لنكمل حياتنا معاً ؟
- ٣٦٥٠ تكفي، لا أريد أن تصبح ٣٦٥١ ولا ٤٠٠٠ إن أصبحت ٤٠٠٠ سأُجنُّ حتماً، يكفي ما أمضيته معك، أذعنتُ لأمرك عشرة أعوام، ولم

تكن لتهتم يوماً بما كنتُ أفتقده منك، مناطق غير آمنة أمسى جسدي، بات على شفا الانفجار، أصبح مرادفاً للعزلة والموت، كمزاجي المفتون بالجنون الذي يعربد في الفضاء هرباً منك، توقاً إلى ما حرمتني منه، الآن يحق لي الانقلابَ عليك، يكفي الآن، تحكَّمَ بي موتُكَ الأثيم ولم أعد أشبه الحياة في شيء .

obeikandl.com

الإنهاك أصاب أشرف، بعد جولة من المواجهة الأعنف طوال حياته، استرخى في الأريكة الخشبية المتهالكة في زاوية الكوخ، تسلَّل النعاس إليه كسارق محترف اختلس منه يقظته، غفى على أنغامِ ما ترسله قطرات المطر حين تستقر فوق أرضٍ طافتْ فيها روحه .

فجأة، اختلج، وصرخ كالممسوس، وقد عاوده الكابوس فسيطر عليه، هبَّتْ مي تتلمَّس حولها باحثةً عن عبوة الماء، في حين اكتفى جاد بأن ضغط على قابس المصباح اليدوي الصغير من دون أن يتحرك من مكانه .

جعل يتابعها في بحثها عن العبوة، وحين وجدتها اقتربت منه، هزَّته ليستفيق من كابوسه الذي أدمن الانقضاض عليه وتمكَّن من السيطرة على هناءةِ نومه .

استردَّ وعيه بعد انجرافٍ وراء كابوسٍ كاد أن يُبقيه مُتيبِّساً لولا يد مي التي حثَّته على مقاومة أصابع الشيطان التي تحشو رأسه بترُّهات وجنون .

ارتوى بقطرات من الماء، أرجع رأسه إلى الوراء، في حين كانت مي تمسح وجهه بقطعة قماش مُبلَّلة .

استغرب أشرف ما تبديه نحوه من اهتمام، بقدر ما استفزه ابتعاد آديت، حدَّثهما أن الكابوس انقضَّ عليه، وهذا يعني أنه ما زال حياً في رأسه، ولولا أصابع مي التي امتدَّتْ لتخلِّصه من جحيم مؤقت تم رميه فيه، ما كان لينتهي الليلة، رشقهما بكلمات تَصِفُ ما رآه .. لأول مرة كان يفعل ذلك .

أصاختا السمع باهتمام وتركيز، راعهما الوصف منه بكلمات صدمتهما فجمَّدتهما في موقعهما، لدرجة أن آديت قطعت أنفاسها أكثر من مرة لعدة ثوانٍ كي تسمعه جيداً مع ازدياد عصف الريح في الخارج، كان جاد مُستلقياً هازئاً بما يراه أمامه .

قال أشرف :

- تماثيل لهياكل آدمية مُتسمِّرة وجامدة، محاجر عيونها ألقتْ بحملها، نزفتْ سائلاً لزجاً أرجواني اللون له هيئة الدم، لكنه ليس بدم، كنتُ أتنقَّلُ بينها وأوغلُ في غياهبها، تَناثُر عيونها مَدَّني بالطمأنينة، لئلا أُصْدَمُ بنظراتٍ لن أحتملَ قسوتها وقد اعتصرها هول الحدث، كنتُ كمن يبحثُ عن شيءٍ فقده للتو، وما كنتُ بفاقدٍ لشيء، رغبة قوية كانت تستبدُّ بي لأصوِّب فوهة بندقية على ما يقع أمامي ليتحوَّل إلى أشلاء، ويُنهي مشهداً مُغرِقاً في الألم والاحتضار .

بَدت آديت مُندهشةً، غارقةً فيما يصفه أشرف، عيون الحاضرين مفتوحة على آخرها كأنها عدسات كاميرا .

نبض قلبه يتسارع كأنه في ماراثون، أيُّهما سيسبق ؟ أيُّهما سيفوز ؟ لم ينتهِ السباق بعد .

صوت غربان الليل يتردد من بعيد، ويبعث الوجل في قلبه .

أتبعَ وقد تشنَّجتْ أصابعه وانفردتْ، كأنَّ بسرده يستعيدُ ما كان يَقضُّ مضجعه لسنين خَلَتْ :

- ما إن يبوح عقليَ الباطن بتلك الرغبة، تتردَّد في رأسي إشارات مُبهَمة وذبذبات رادار تَعطَّلَ فجأة، التماثيل ترجع عن جمودها المخيف، لتعود الحياة إلى الهياكل الآدمية .

بدا أشرف أشد تأثراً بما يرويه، مُسرعاً بدا في قصِّ حكاية الكابوس – اللعنة متأثراً إلى حد بعيد، أما آديت ومي فكأنهما قابعتان في جحرٍ انقضت فوقه العناكب لتُكْمِلَ مَدَّ الجسورِ بينهما .

- تقفز من حولي، عيونها مُعلَّقة فوق الرؤوس بنوابض مرنة، تنفرج الشفاه عن أنياب حادة، الدم يقطر منها، تلعقُها الألسنة التي تشبه أشواك القنافذ، الأعناق استطالت حتى غدت سلالم لأبراج مراقبة، ثمة رجل امتلأ صدره بشعيرات كديدان صغيرة استعمرت جيفة وأحالتها هيكلاً مُقرفاً ومُقزِّزاً، ساقاه نحيلتان نحولاً عجيباً كأنهما عودَيْ ثقاب، أما أنا فقد كنتُ متكوِّراً على نفسي أناظر الرجل بعينين يكاد الموت أن يشيعهما، تدحرجتُ ككُرة حتى استقرت .. لم تكن ملامح الرجل قد بدت لي سابقاً .

لحظتئذ ظهر أليخاندرو، وما إن توضَّحتْ ملامحه لأشرف حتى راح يصرخ :

- ها هو .. إنه هو .. ها هو .

سرعان ما انتفضت مي فزعاً وخرَّتْ على الأرض، كأنَّ تياراً كهربائياً سرى في أطرافها، بدأت تُهمهمُ آنَ اقترب منها جاد ومسَّ جسدها، حاول تهدئتها ولم يفلح، شيءٌ ما أبعدَه عنها وقيَّد لسانه بعدما نطق عبارته :

- ما علاقة هذا المكان بالكابوس ؟ ولماذا أنا ؟! لماذا أتيتم بي إلى هنا ؟

دنا أشرف من أليخاندرو صارخاً به :

- كنتُ أصرخُ في وجهكَ كي تنساني ولم تفعل، انظر ما الذي نتج عن حضورك ؟ فكيف هو حالي في لياليَّ السوداء وكنتَ شيطان مريد تسيطر على حواسي حتى تفقدني قواي ؟

لم يصمت أشرف بسهولة، تقدَّم منه أليخاندرو قائلاً :

- أنت واهم، لستُ كابوسك، أنت كابوس نفسك، وما كنتَ تراه هي أفعال الشرّ التي كنتَ ترتكبها، وماااا أكثرها .

- اخرس، لا أريد أن أسمع صوتك، كيف لي أن أصدّق كلامك وأنت .. أنت، لا أحد غيرك كان يرمي بي في بؤر العذاب وأتون الجحيم، كنت تختفي حينما تحيي في نفسي المسخ الذي لا يُبقي إلا طعم العلقم يخزُّ أشواكه في روحي .

تقهقر أشرف .. بكى، ارتفع نشيجُ بكائه، انثنتْ ركبتاه، خرَّ على الأرض مُستسلماً لضعفٍ سيطر عليه، أعاد أليخاندرو كلماته نفسها التي نطق بها منذ لحظة :

- أنت واهم، لستُ كابوسك، أنتَ كابوس نفسك، وما كنتَ تراه هي أفعال الشرّ التي كنتَ ترتكبها، وماااا أكثرها .

نهض أشرف مقاوماً الضعف الذي انقضَّ عليه مُذْ رأى أليخاندرو، وقف بتحدٍ وجأر في وجهه قائلاً :

- اخرج من هنا، من دعاك لتكون بيننا ؟ معاركي السابقة معك كانت تنتهي باستسلامي لخدر عميق فينتابني الوهن ويستعمر جسدي، لكن الآن لن تفرح بانهزامي أمامك، لن تتركني جثة هامدة، لن أكون حطاماً وخراباً بحضورك .

أعاد أليخاندرو للمرة الثالثة ذات الكلمات :

- أنت واهم، لستُ كابوسك، أنتَ كابوس نفسك، وما كنتَ تراه هي أفعال الشرّ التي كنتَ ترتكبها، وماااا أكثرها .

- فلتصغِ إذن إلى إيقاع الدم في عروقي، ادخل الآن جسدي، أو اخرج من هنا مذموماً مدحوراً .. سأستعيد هدوئي المستلب، كما سأستعيد نفسي .

ألهب الصمت للحظات مشاعر متناقضة لدى الحاضرين، همس أليخاندرو في أذن أشرف :

- وهذا هو المطلوب، اعرف نفسك وابدأ بها .

ختم أليخاندرو بهمسه هذا كل الكلام .. ومضى خارجاً من الكوخ .

obeikandl.com

أرادت آديت أن تنفرد بنفسها بعض الوقت فدخلت الغرفة الداخلية من الكوخ، تبعتها مي على الفور، ومن ثم انضم إليهما أشرف، استنكرت آديت دخوله الغرفة، وما إن اقترب من نافذة الغرفة مادًّاً يده نحو الستارة حتى جمد في مكانه، كان يرنو نحو الخارج، شعر بوخزة عميقة في صدره، قاوم الوجع المفاجئ، التفتَ مُحدّقاً بعينيّ آديت، لم يستطع التقدُّم خطوة باتجاه الكرسي ليجلس عليها، الوخزة تزداد حِدَّةً بين أضلاعه، كما لم يستطع التفوُّه بكلمة، عاودته الوخزات بقوة، عَلَتْ آهاته مُمتزجةً بالألم، كانت آديت ترنو إليه باستغراب، تقدَّم مُتوّجهاً إلى الحمام الملحق بالغرفة، سمعت صوته يتأوَّه بألم، أومأت لمي بأن تلحق به لتطمئن على حالته، ما لبثتْ أن سمعت شهقات عميقة مُتتابِعة منه كأنما يحاول أن يعبَّ الهواء ليستقر في صدره، سرعان ما سمعت صوته يُلقي ما في جوفه، اتجهتْ مي صوب الحمام، حاولت فتح الباب، كان قد أحكم إغلاقه من الداخل، طرقتْ بقوة، نادته فلم يُجب، سمعتْ تأوهاته من جديد، رأت خيال جسده يقترب من المغسلة، بعد لحظات اقترب من الباب وفتحه، كان وجهه مُصفرَّاً ومُكدَّراً، العرق يتصبب منه، بصعوبة همس لها :

– يبدو أنها النهاية .

تحلَّقتا حوله، قالت مي بذعر :

- لابد أن نوبة برد قوية ألمَّت بك، استرخِ فوق السرير، سوف أنادي جاد يدلّك لك ظهرك، لن يريحك إلا المساج الخفيف لكي يزول أثر التشنج .

حدَّق في وجهها بلؤم، بدا وكأنه يسألها بعينيه :

- كيف عرفتِ اسم ذلك المأفون ؟

ما إن خطا نحو السرير حتى هوى جسده وخرَّ على ركبتيه، دوى صوت قوي في الغرفة، ساعدتاه على النهوض، جرَّ ساقيه كمن يُساق عنوة إلى المقصلة، انكبَّ على وجهه فوق السرير وقد ارتفع أنينه حتى غدا حشرجة متدفقة بقوة، بات يتخبَّطُ كأنه وسط بحر هائج، مُستسلماً للعبة الشيطان، خرجت مي لتجلب ما تحمله من دواء في حقيبتها .

سألته آديت عن مكان تركُّز الوجع فما استطاع التفوُّه، نهضت مُسرعة لتجلب زجاجة العطر من حقيبتها لتنثر بضع قطرات على منديل ورقي، انقلبتْ حشرجاته لشهقات عميقة، خائبة ومكتومة، دخلت مي مُجدَّداً ومعها جاد، عندما اجتمعوا حوله كان غائباً عن الوعي، أجرت مي الإسعافات الأولية، لم يكن ثمة تغطية متوفرة لشبكة الهاتف المحمول، طلبت من جاد أن يفتح دفتي النافذة ويغادر الغرفة مع آديت .

ثمة رائحة حرَّكتْ روحَ آديت فلم تنم، أمام النافذة المطلة على سلسلة الجبال المحيطة وقفت تتنسَّم العبق بعمق، الليل قبضة قوية كمَّمتِ الأفواه، كان جاد مُسترخياً على الأريكة العريضة خلفها، مي وأشرف كانا في الغرفة الداخلية، تناهى إلى سمعها صوت أجفلت منه :

- كيف حال أشرف ؟

مالتْ برأسها فرأت جاد والابتسامة تعلو ثغره، لم ينتظر جواباً، نهض مُتجهاً صوب الحمام ليغسل وجهه، كان الماء يكشط الخزي فيحفر بصمتٍ أخاديده، عاد وقد أوضح ضوء المصباح الممسك به ملامحه، تفرَّستْ في وجهه بصمتٍ لدقائق، كانت الدهشة تراوح في نظرتها، إذ بدت الشهوة يقظة في عينيه، قدَّم لها كأساً من العصير جلبه من المطبخ، ابتعد ليقعي في زاوية بعيدة عنها .

تتردد أغنية الفراق في أذنيّ آديت كصدىً يلملم معه ذكريات أليمة .

كثيراً ما استعانتْ بطفل عَينها عندما كانت تنظر إلى أشرف وسَيْلُ نَزَقِه يجرفها، هَديرُ سُخْطِه يزحزحها عن درب السكينة، تتقيأُ الآن حزنها، تنشغل بنسج أوتاد خيمة في مهب الشمس التي تنتظر سطوعها، أوتاد لا تشبه شبكة الأعصاب الممتدة حتى ربيع عمرها، تَشردُ الأزهارُ عَنْ نُموّها الطبيعي لتنشَغِلَ بقَناديل المساء، تُرسِلُ إشاراتٍ حَميميَّة تُنبّهُ الطفلة القادمة من عُنقِ السُؤال لتلتهم اللقمة الأخيرة من بُؤر الليلِ الناصب خيمته بعيداً عن مدارج الريح .
على مائدة الغياب عزمت أن تجمع إرث العنكبوت، ستضع عليها كؤوساً مملوءة بما يثورُ له بركانُ صوت بكائها المخنوق، لم تعد راغبة برؤية وجهه بعد الآن .. وما أرادت أن تتعرَّفْ إلى صوت بكائها بعد هذي الليلة .
لن تطيلَ المكوثَ على حافَّةِ الوَجَع، فقد استوطن دمعِها وتَقوَّسَ لأجله ظَهْرُ العَاصِفة، الكلماتُ فيها تُناورُ بشراسة، تسكبُ عطرَها على مَدارج الصَّهيل لتَعتلي اسمه وتخلعَ عنه قميصه المهتَرِئ، تُراودُ الحريق لتصنعَ الحرير مِنْ جَسَدِ العَويل .
قَطَراتُ الدمع تُقبّلُ السَّماءَ لتمطر في ارتجاعٍ أنيق، الرِّضا يومِئُ للبياض فيرتد الطَرْفُ عَنْ سَجَّانٍ أضاعَ مفتاحَ القفصِ الدُّنيوي ليخدعَ المحكومَ، فيسقط في مهب الزَّوالِ ويمحي الأثر، ليبقى الظِلُّ في نَدَم .

– لماذا يتَّجهُ السُّؤالُ نحوَ سَاقيّ الريح ويَتركُ بَصمةَ الدمعة في حَيرة؟

تَشقَّقَتْ تُربة روحها وهي تناور بالسؤال، تجرَّعتْ الغبار الساكن أملَسَها، ذاك المنكفئ على دمعٍ يتناثرُ لؤلؤاً مُهشَّماً يتلقَّفه المارُّونَ بها، تراهم يحاولونَ جَمْعه كما فُسيفساء الوقتِ الضائعِ يرويهِ الصبر، لم يسعفها الانتظارُ مِنْ شَوْكَةِ الغياب.

- هل أحصيتَ مرةً الكلمات التي مَنَعتنا الحياة مِنْ نُطْقِها كي لا نواجهَ مَوتاً رَخواً ؟

سؤال واجهته به قُبيل دخولها الغرفة بلحظة، لم يكن في بالها أن السماء سترتدي حزنها، والمطر سوف يضع قُبعةً فوقَ رأسِها من حيث لا تدري.

انهمرت من عينها دمعة، كأنها الآن ترى عمل الموت الصامت مُرتسماً على وجه الماضي، ذلك الموت الذي حدَّثها عنه عاصم، يبدو لها الآن شديد الصرامة، أدركتْ أنه يعرف اختيار اللحظة المناسبة، وبأن الكآبة لا توجد لكي تسبب الأسى وتُجرّد الإنسان من القيمة والكرامة، وإنما لتوصله إلى حالة النضج الكامل، حدَّثتْ روحه المنكفئة داخل الغرفة بصحبة مي :

- كَمْ حَاولتُ أنْ أكونَ تَوبتكَ مِنْ إرهاقِ الندم، أن أكون عِتْقُكَ مِنْ غَضَبِ البُثور المتوالدة في وجهِ إحساسك بي، لستَ الإثمَ الذي أبكيهْ، ولنْ أكونَ عَبرةً في مَهبِّ بُكائِك، كَمْ حَاولتُ أنْ أنقشَ ابتسامتِكَ على صفحةِ السماء، لتُشرِقَ الشمس وتُقاضي سوادَ الظِّلِ القابعِ فوقَ تُخومِ جنونك، أشرقَ الظلُّ ولمْ تَبتسم، كم حاولتَ أن تُقاصِصَني إذا ما اشتدَّ عَصْفُ العويل، لكنها اللحظة قد أزفتْ : لم أكن نقطةً تبدأُ بها لأنتهي بكَ حَدَّ سقوطِ الفراغ، كنتُ الرُّوح التي تنتظرُ شفاءَ الهواء مِنْ لوثتك.

نهضت لتقف قرب النافذة لتستنشق هواء نقياً وتتخلص من دخان النارجيلة التي أعدَّها جاد مذ قدَّم لها كأس العصير.

- يبدو أنه مدمن عليها .

حدَّثت نفسها، وفي لحظة التفاتها نحوه، اختلَّ توازنها وكادت تسقط أرضاً، أحسَّتْ بدوار في رأسها وثقل في جسدها، أطلقتْ تنهيدة عميقة وعادت تقف بمحاذاة النافذة مستندة بيديها على بروازها الخشبي، وقد نال منها التعب على حين غرَّة، كان جاد في هذه اللحظة يناور ليخرج عن دائرته الضيقة .

فكرة إغواء ماكر، دهمته فانصاع يلبي رغبة أشبعها بتصورات هستيرية تمكَّنتْ منه، قرر ألا يغادر الغابة قبل أن يُطفأ شهوته فيها، نزع فتيل غوايته عن مخدِّرٍ وضعه في كأس العصير التي ناولها، وقد عقد العزم على استثمار مجيئه معها بما يُسِرُّ نفسه التواقَّة إليها، بعد حلقة الجنون التي سبَّبَتها بطلب مرافقتها إلى هذه الغابة لتجتمع مع رجل معتوه .

لم يكن بحاجة لأن يُمهِّدَ لما ينوي فعله، بمجرد أنْ اقترب منها مُعبِّراً لها عن انسجامه مع الجو المحيط، اتَّكأتْ عليه وبالكاد تلفَّظتْ بكلمتين :

- أشعرُ بدوار .

فاضت عيناه بالشهوة وهو يحتضنها ويضغط بقوة على زندها، قال :

- أشتهيكِ يا آديت، أما لنيسانِ جسدك من نهاية ؟! أول العشق وآخره أنتِ

شرع يقطف بيديه عناقيد الجمال في جسدها، طوَّقها بذراعيه وضمَّها إلى صدره بقوة، طبع قبلة خفيفة على شفتها العليا، ثم ضمَّ شفتيها بنهم في قبلة طويلة، تسلَّل لسانه إلى فمها فعضَّته، تألمَّ، وبصعوبة خلَّص لسانه من قبضة أسنانها، مال عليها يُدغدغ شحمة أذنها بلسانه، هبط إلى عنقها يستكشفه، أمسك بنهدها

الأيسر، فكَّ أزرار القميص الذي ترتديه وأخرج ثديها، أحنى رأسه ليقبض على حلمتها بأسنانه، تأوهاتها أشعلتْ حماسته باضطراد، جذبها نحوه بقوة شهوته، على عجل خلع عنها ملابسها، وما إن همَّ بها حتى تناهى إلى سمعه صوتاً غريباً خلفه، التفتَ ليجد مي ممسكةً بعصا غليظة ستهوي بها على رأسه، تفادى الضربة فابتعد واستدار يميناً، وبصعوبة بالغة تمكَّنت مي من تنحية العصا جانباً قبل أن تهوي على جسد آديت .

انتفض واقفاً مُتهيِّئاً لصدِّ ضربتها الحاقدة، كان وجهها مُصفرَّاً ومُكدَّراً، ما إنْ خطت باتجاهه حتى تعثَّرت وهوت، جثت على ركبتيها محاولةً أن تملأ صدرها بكمية كافية من الأوكسجين، كان من السهل عليه التمكُّن منها، عاجلها بقبضة يده مُصوِّباً إلى وجهها ضربة قوية ساعدته على إبعادها عنه، في حين كانت تتلمَّس مكان الضربة، لم يُرْدْ أن يؤذيها أكثر، إلى أن قبضت عليه يد من الخلف منعته من الاستدارة ليرى صاحبها، كانت تمسك برأسه بإحكام، بدا وكأنه يتخبَّط وسط موج من غضب، الشيطان يجأر في أعماقه، أرادت مي أن تعاجله بضربة على بطنه بالعصا، لكنها توقفت وكأنها تلقَّتْ إشارة ما، أسقطت العصا من يدها، فأتت قرب قدميه، ناور بالتقاطها بسرعة، ليوجهها نحو صاحب اليد القابضة عليه .

كان أشرف .. جلبة العراك الحاصل تكفَّلتْ باستقدامه، هجم عليه فتمكَّن من رميه أرضاً، أقعى فوق صدره، ضغط جاد بقدميه على الأرض مُبعِداً عنه جسد أشرف، نهض واقفاً وهو ينظر إليه بحقد، أدرك أنه لن يستطيع مواجهته، زأر بصوته المعجون بلوثة الشيطان، و .. فرَّ هارباً .

بعد سُباتٍ عميق سيطر على آديت، بصيص من نور خافت يضيء لمراكز الإحساس طريق العودة إلى الصحوة، حركة راجفة حرون أصابت أطرافها، عيناها ترمشان بضعف، أضلاعها تئن من فرط الخدر، استعادتْ وعيها .

- كانت حالتك مُزرية لما رأيتُ عري جسدك، آلمني أن يظل جسدك مكشوفاً، فألبستُكِ قميصك على عجل، وطلبت من أشرف الابتعاد فوراً .

كان تأثير المخدر لايزال يثقل رأسها، سألتها :

- لم أعد أتذكر شيئاً، من خلع عني القميص ؟

بُهتتْ عندما حدَّثتها مي عن محاولة جاد النيل منها، بكت من فرط تأثُّرها لما تعرَّضتْ له، انقضَّتْ على مخيلتها صورة جاد تتناوب مع صور أخرى في اللحظة التي نطقت مي باسمه، الآن فقط تذكَّرتْ أنها كانت معه قبل أن يُذابَ وعيها في قعر المخدر .

حثَّتِ الخطى باتجاه فناء الكوخ، رغم حلكة الليل وسواده، مشتْ لتنادي أليخاندرو بصوتها المجروح، علَّهُ يسمعها إن لم يكن بعيداً عن المكان، تعثَّرتْ فهوتْ، دنت منها مي مُسرعة وأنهضتها، لكن هذه المرة كان أشبه بنهوض لبوة فقدت صغيرها، تابعت السير، صوت لهاثها المحموم يُنذِرُ بصرخة أعنف من عاصفة، لا يفوق الإنسان وحشية إلاه، عندما يتجاسر على الإله فيه آنَ يهزم النقطة المضيئة التي بثَّها الله في داخله فأودعه من بعضه، والكل يبكي انطفاء البعض وتلاشيه، هذا ما فكرت فيه آديت لحظة أجهشت ببكاء مُرّ .

التفتتْ مي نحو أشرف، رنتْ إليه بقهر، صرخت بصوت حمَّلته شقاء عُمْرٍ مَرّ

جاااااد .

جثتْ على ركبتها وهي تنشج باكية وتقول :

- أريد أن أقتله .. ذاك المأفون الحقير .

" هل امتلكت مي القدرة أخيراً على استيعاب لغة العقل لترجّحها على ما أمسكها عنه ؟ "

ينوس الضوء الخافت أمام وجه تبرز فيه انفعالات مختلفة، رجفة مباغتة تستقر على نور فيه ومضة البرهة الخارجة من مخبئها .

الحروف فقيرة من دم النقاط، حروف لم تكن سوى رسوم بوهيمية، تغصُّ بإشارات لم تستطع تفسير كنهها، خربشات تبدو على شكل قلب حيناً وعيون حيناً آخر .

كان جاد يلتهم المسافات التي تبعده عن الطريق العام مُبتعِداً عن الغابة، لا يلوي على شيء إلا الهرب .

صباحاً .. كانت مي تُلملمُ أغراضها ليعودوا جميعاً، خرجت آديت ومشت ببطء، مشية امرأة غائصة في أفكارها دون أن ترى ما حولها، التقطتْ أكثر من ورقة من أوراق الشجر المبللة بالمطر، قلّبتها بين يديها ثم نثرتها، رنت نحو الحلازين التي بدأت تخرج من بين أوراق الشجر المتساقطة بعد توقُّف المطر، تهيأ لها أن تلفظ ألسنتها خارج أفواهها إذا ما داست الأقدام حولها لتعود ببطء ولزوجة، وشرارة غضب تقدح بها عيونها وهي تتفرَّس غضباً بالمارّين من فوقها، تنحَّتْ بعيداً عنها كي لا تدوس عليها .

كان أشرف يسير خلفها على بعد خطوتين، بادرها بالقول :

- هل أستطيع مرافقتك إلى ماليزيا ؟

بأسى شفيف أومأت رفضاً، أوقدَ بيسر جمر مشاعرها تجاه أهلها الغائبين، أبتْ أن تُظْهِرَ ضعفها، كبحت دمعها، زجرته بقوة وأتبعتْ بصوت مخنوق :

- أكمل إجراءات الطلاق، انتهى كل ما بيننا .

obeikandl.com

-34-

أثناء التحقيق معه، أفاد بأنه كان مخطوفاً، سأله المحقق ساخراً :

- من خطفك أيها المأفون ولماذا ؟
- هاااا .. لم أعلم عنهم شيئاً .

خبل وخبل وخبل يلفُّ جاد، وقهقهات من المحقق تطرق القضبان فتكاد تُفتّتُ الصَدأ عنها، تمكَّن من إنهاء مفعول قرار إخلاء السبيل داعماً إجراء التوقيف بأدلة جديدة تخصُّ ما سبق توجيهه له، أما المفاجأة الجديدة فكانت الادعاء عليه بتهمة التحرش بقاصر، بناء على ذلك تم إصدار مذكرة بحث بحقه، وأُلقيَ القبض عليه في غضون ساعات بعد هروبه من الغابة .

حدث ذلك أثناء مغادرته محطة السفر بعد وصول الحافلة إلى دمشق، استوقفه اثنان من عناصر الضابطة عند باب المحطة وطلبا منه مرافقتهما ليُساق بعدها إلى قسم الشرطة .

لم يتمكن من التحدث إلى أحد أو توجيه رسالة نصية عبر هاتفه المحمول بعدما تم إلقاء القبض عليه .

- ألم تتوقع أن نتابع البحث عن المزيد من الأدلة التي تدينك ؟
- لا .. وسوف تندمون على جرأتكم تلك، لن ينتهي الموضوع كما تريدون
- لكنك الآن .. عُدْتَ موقوفاً بما تم توجيهه لك سابقاً وقد أضيف إلى ذلك جرم آخر .
- لن تستطيع أن تصدّع ثقتي بنفسي أو تهدمها، عبثاً تحاول، أستاءُ من تعاملكم هذا، لكن لن أواجهه بالتهديد .
- سأعرف كيف أخلع عنك تاج الغرور هذا، لقد وصل بك غرورك حتى درجة العجرفة، يبدو أنك تعتبر نفسك شخصية درامية محورية في حيوات الآخرين، ولكن سأريك قيمتك الحقيقية أيها الفأر الأجرب .

قهقه المحقق، فشاركه جاد الضحك ببلاهة، قوبل تهديده بالسخرية، وبأكثر من ذلك، حين علا صوته على صوت المحقق، ونظرة الاحتقار تفيض من عينيه، أمرَ المحقق بجعل صوت السوط يعلو على صوت المعترض المُهدِّد .

حينئذ فقط .. اعترف بكل ما لديه .

لم يكد السوط يكمل رحلة الحرث فوق جسده الناحل حتى مضى المحقق يُقنعه بالكف عن خبله المتعمَّد، فاندفع إلى الاعتراف بعد أن اكتوى بنار الخطايا، كان اعترافه السبيل الوحيد لينأى بنفسه عن حَرْثِ السَوْطِ لجسده

هو اعترافُ حقٍ لا لَبْسَ في ذلك، لكن ما كان يدور في خلده أن يتبع ذلك محاكمة ينكر فيها كل ما نُسب إليه، وليؤكد أن الاعتراف انتُزِعَ منه انتزاعاً، وإذا فشل، يحاول إثبات أنه مجنون، لتكون المحاكمة سبيلاً له يُسهِّلُ تواصلَه مع أحدِ المُتنفِّذين فيجعله بريئاً، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث، فما استطاع الإنكار أمام مواجهته بأدلة وقرائن أسقطته في جُبِّ مُظلِمٍ لم يقوَ على الخروج منه، وفي

غياهب العتمة مضى يُقِرُّ بكل ما ارتكبه، اعترف باختلاس أموال، وسرقة أختام، وتزوير تواقيع، كما أدلى بما كان يقوم به ليغسل كل ما حصَّله من أموال .

انبرى يقول مُجيباً على سؤال المحقق عن استغلاله لمروة :

- بعد التحاقي بالعمل في البنك الذي تعمل فيه مروة، أجبرتها على تنفيذ بعض العمليات المصرفية بما يضمن لي تحقيق المكاسب المادية المتحصّلة من زبائن البنك، كانت كالخاتم في إصبعي توقّع على ما أريد من مستندات، كانت زوجتي حينذاك، ولم تكن تمتلك القدرة على رفض ما آمرها به، رغم خوفها الشديد، لكنها في مرحلة لاحقة بدأت تتمرَّد عليّ .

رغم يقينه أن مروة لا علاقة لها بالمطلق فيما كان ينفِّذه من اختلاسات، إلا أنه لم يُرد أن يسقط وحيداً، فاقترن اعترافه بإقرار منه يستوجب جلب أشخاص كثر وإحضارهم للتحقيق معهم، أراد الاقتصاص منهم، عازماً على أن يدفع بهم نحو الهاوية، كيما تُوجَّهُ إليهم التُّهم، وليكونوا شركاء له في الجنون، لكن محاولاته تلك باءت بالفشل وقابلها المحقق بضحكات ساخرة، فقد أدرك هدفه منها .

حين أتت الصنارة بما رمى به من طُعم، لم يكن في حسبانه أن يستجرَّ ذلك تهماً أخرى تُضافُ إلى ارتكاباته، فقد أعلمه المحقق أنهم قاموا بتفتيش طاولة مكتب "سوسن" التي حلَّت لاحقاً مكان مروة في تواطؤها معه بتنفيذ عمليات الاختلاس، بعد أن أبلغت مروة الجهات الأمنية بكل جرائمه مؤيدة ما تقدَّمتْ به بالوثائق التي تثبت ارتكابه لجرائمه المتعددة، وقد عثروا في أحد دروج طاولة مكتب سوسن على صور فوتوغرافية جمعتهما معاً أثناء ممارستهما الجنس، أقرَّتْ بعد توقيفها بأنها ما كانت لتوقِّعَ على أية وثيقة لو أنها بكامل وعيها، إذ كان يقوم بدفعها إلى

معاقرة الخمرة حتى مرحلة السكر ومن ثم يقدّم لها الأوراق التي يجب أن توقع عليها لينفذ عملياته المخالفة .

حين تلاشى أثر الخبل بعد وقع السياط كان النُكران قد مرَّ بمحاذاته رافعاً له يده في تحية سوريالية، قال للمحقق وهو يلمظ بلسانه :

- كل ما قمتُ به سابقاً كنتم تعرفونه، فلماذا كان ملفّي مَخفيَّاً ؟!

توجه بسؤاله هذا إلى المحقق، وفي ظنِّه أن صديقه الذي كان يلتجأ إليه مقابل أن يؤمّن له علاقات دائمة مع بنات الهوى سوف يحميه .

أجابه المحقق :

- هناك من يدّعي اختراق العتمة، لكنه يدرك تماماً أنه يفعل ذلك ببصيص عهر .

الصدفة مفجعة .

جاد، لم يكن ليقع تحت سطوة الصدف في سلوكياته وقد امتهن الرذيلة، كان مُزمناً في جرائمه التي بقيت في عُهْدَةِ القدر، وقد تكشَّفَ هوسه بوضوح عبر مراحل التحقيق .

وثبتْ إلى ذاكرته صورته يوم كان طفلاً في العاشرة، عندما اعتدى على بنت الجيران في ذلك الحي الشعبي الحقير، حيث انتبذ زاوية معتمة بعيداً عن أعين الحاضرين في الغرفة الأخرى من الدار .

obeikandl.com

يومذاك، فاجأته أمه بدخولها المباغت إلى الغرفة تبحث عن ابنة الجيران ذات الأربع سنوات التي اختفت فجأة بعد أن كانت تجلس إلى جوار أمها، ضبطته رافعاً فستانها، يعبث بها بملقط شعر صغير، شهقت خشية من أن يكون قد ألحق الأذى بالطفلة الصامتة التي كانت مستسلمة لسطوته، حدَّجته بنظرة قاسية، لم تستطع التفوُّه بكلمة أثناء وجود جارتها، أمسكت بيد الطفلة وخرجت بها مسرعة بعد أن رتبت هندامها، حدَّثتْ والده بالأمر، فاعتبر الأمر طبيعياً إذ أكد لها أن ابنه يكتشف جسده من خلال الآخر، لكن والدته منذ ذلك اليوم لم تنسَ ما نطق به ابنها، وهو ما اعتبرته أمراً سوف يؤثر على حياته ونظرته إلى الآخر، قال لها وعيناه تقدحان بشرٍ مستطير :

- سأعبث بكل فتاة كما عبث بك أبي وأنجبتِني .

أدركتْ الأم يومئذ أنَّ بِكْرها استوعب ما كان قد تردَّد بينها وبين أقاربها، لم تتصور أنه مُتيقظٌ لكل حرف قيل أمامه، وبأن ذاكرته سوف تحفظ ما لم يَعُدْ سِرَّاً، التزم والده الصمت إذ ذاك، وقد أدرك فداحة ما استوعبه صغيره

انهار أمام المحقق عندما واجهه في جلسة التحقيق التالية بالحقيقة، بعد أن تلا على مسامعه بضع مقاطع من محضر استجواب مروة كشاهدة، أقرَّ بصحة ما ورد فيها، لكنه انتبه إلى ما تلفَّظَ به المحقق :

" استجوابها كشاهدة "

حدَّق جاد بعيني المحقق، فاغراً فاهه مندهشاً، سأله بتلعثم عما نطق به .

- محضر استجوابها كشاهدة ؟!!!

أجابه المحقق والخبث يقطر من عينيه بتشفٍّ ولؤم :

- أجل كما سمعت .

أيقن أنها وشتْ به انتقاماً منه بعد أن طلَّقها، كما علم لاحقاً أنها زوَّدتهم بأدواته التي كان يستخدمها في عمليات التزوير، وبقصاصات الورق التي ضمَّت صور الأختام وتواقيع الرؤساء في عمله، وكل ما استُخدِمَ ضده من أدلة وقرائن

خارت قواه واستسلم لمصيره الأسود ..

عندما واجه المحقق في جلسة تالية، اقشعر بدنه، تصلَّبتْ أطرافه، جحظت عيناه، كاد الدم ينفر من عروقه، أقعى في مكانه وقال :

- أنا مجنون .

obeikandl.com

-35-

كانت آديت قد تركت البيت وانتقلت للعيش في شقة صغيرة مجاورة لبيت سمية . وجدتْ نفسها حُرَّةً من قيود الماضي، لكنْ، قُدّر لها أيضاً أن تكون بمواجهة مع الآخر، مع جبران، فعلى الرغم من أنها التقتْ به مراراً، لكن لم يحدث أن تناقشا بعيداً عن أمور الفن، أخبرها أنه عازم على الهجرة، فلم يعد يطيق الحياة هنا، قالت له بحزن :

- جبران .. يجب أن نميز بين الأشياء ونختار درب الحب دائماً، هل ثمة ما يستدعي اتخاذك هذا القرار ؟

- حين يمرض من تحبينه، تنسي كل ما سبَّبه لكِ من آلام وأوجاع سابقة، تتجاوزين كل أخطائه معك وربما أكثر من ذلك، تتغاضين عن كل سلبياته وكأنها لم تكن يوماً بينكما حاجزَ قهر حتى لو كان حمله ثقيل وأشبه ما يكون بأسطول من الدموع، تفرغينه من حمولته وتُلقين به بعيداً عنك، تنسي كل ما ارتكبه بحقك، هذا حالي مع دمشق .

- ما دامت قادرة على إبقائك فيها، وفي عشقك لها تبدو وفياً، فلِمَ تريد المضي بعيداً عنها ؟!

- أرى السواد يعم ويطغى .

- لا يمكن للسواد أن يلغي ما في دمشق من ألوان ! إنَّ أكثر ما يميّزها تألُّق الألوان وتنوّعها، لماذا تمتنع دائماً عن النظر إلى نصف الكأس الملآن ؟

صفَّقَ بيديه ساخراً، فاستفزَّها، رمقته بلؤم، زفرتْ مُمعنة في ليل دمشق، مرت دقائق من الصمت المخاتل بينهما، قطعته آديت بالقول :

- شاحبٌ قمر دمشق .

- أكره عشقي لها، أكرهها، لا .. لا أحبها ولا أستطيع إلا أن أكون فيها، موحشة تبدو ساعات، وفي أوقات كثيرة أعتبرها تختصر الكون بأسره، أكره تعلُّقي بها، أكره انجرافي المزمن إلى مساماتها المفتوحة على عذاباتي وإرهاصات أيامي فيها، كيف لي أن أتحرر منها ؟ أن أتوقف عن اعتبارها مسرحاً يجمع فيه كل صنوف العذاب ؟

- بين المغامرة والمقامرة نقطة فقط، لا تقامر على أغلى ما تمتلكه في الحياة .

- آديت افهميني، نحن جيل موسوم بالتفاهة، ظُلِمنا كثيراً، جيل مُحبَط، مُنِعَ عنه كل مُبادَأة فاستكان للفراغ، لم يحدث أيُّ تغيير في الراسخ والثابت، كل ما جُبلنا عليه وجدنا البلادة تحكمه، جيل جُبِلَ على الاستكانة، شهدنا مفرزات الفساد وإعماله في كل تفصيل يعني الحياة، صُبغَتْ حياتنا بالمادة حتى في المشاعر والأحاسيس، انهزمنا وهَرِمنا ولم تلكُ ثمَّة معركة، استسلمنا ولم تكن هناك ساحة حرب مفتوحة، خواء أحكم الطوق على أنفاسنا

- النفس أول وأكبر ساحة حرب، وهل يثبت الإنسان جدارته في الحياة وتميُّزه واستحقاقه لنفي كل ما تتحدَّث به لمجرد أن يكون في حالة حرب ؟! لماذا لم تعتبر أنَّ تحقيقَ الذات حربٌ من نوع آخر ؟

- كم أنت مُستغرقة عبثاً في فلسفة الأشياء، ربما يليق بك العمل في السياسة، لكن لا .. لا أنتِ لا تتقنين المراوغة .

- هل ترفض كلامي ؟

- لا .. لكن لن أبقى في هذا الوطن .

- الوطن دمعة حارة تسيل على خدّك لتحفر طريقاً يسير فيه طفلُ الدمعة، الوطنُ حزنٌ .. إنِ ابتعدتَ عنه، ودمعةٌ تثبُ بفرحِ الطفولة، الوطنُ لحظةٌ تنتظرها بأمل وإنْ بكيت، لتدع غيرك يفرح وينال السعادة وإنْ غبت .

- والإنسان ؟

- رأى نفسه الله، ولم يجده، فجعل من نفسه وثناً، و عبده .

لم يخطر في بالها أنها سوف تستعيد صورة أشرف في تلك اللحظة، لكن ذلك حصل، كم أضاعت برفقته لحظات كان من الممكن أن تكون غنية بمثل تلك الحوارات التي تجمعها مع جبران ؟! كم أسرفَ الصمتُ من عمرها فزادها الخبل الساكن في رأسه فراغاً لم تكن لتكتشف مؤدّاه لولا مناقشاتها مع جبران ! .

obeikandl.com

شعور يائس لفَّهما، امتدَّ الصمت بينهما وتراخى، لم تشأ أن تتابع الحوار معه، راحت تصغي لصوت وقع المطر على الإسفلت ولصوت عميق في داخلها، بعد لحظات ابتدرها قائلاً :

- نعزف موسيقانا على إيقاع الإثم اللحظي، نمضي في دروب النقص والأسئلة مرايا تكرّرنا كنفط رخيص لا يمكن أن يخضع للتكرير، آلات نفوسنا معطوبة، تفكيرنا محدود بالغواية واللذة والشهوات، وبعد كل ما اقترفناه، ترانا نتبجَّح بالكمال، ونحن من النقص نُشكّل ذاته حتى نكاد نتلاشى .

- ....

تنهدت، تساءلت في سرّها عمَّا شكَّل لدى جبران هذا الانجراف الحاد إلى فكرة الهجرة وموجباتها، وعن السبيل الذي يمكن لها أن تسير فيه لكي تصل إلى فهمه أكثر، وجدت نفسها تقول له :

- تقوَّست السماء فانزلقت النجوم في بحر من الظلمات أفقدتها بريقها وأفقدتنا إنسانيتنا بظلمة تسكن أرواحنا، ما المصير الذي نرسمه بريشتنا ونكتبه بدواتنا ؟ تقوَّستِ السماءُ وغارتِ النفوس في أتون الغول فصرنا أشباهه، وفزنا بالتنور خائباً من بصيص، فارغاً من نور، فزنا بخساراتنا .

obeikandl.com

شتاء يرحل .. يَموءُ في وداعه كـ قِطّةٍ على بابِ البيت .

ندفُ الثَّلجِ تَسكنُ قلبها، تفتحُ بابها، تُلقي الأحمر من فوق السور، تخرجُ بعدَ قليلٍ مُرتَديةً الثلجَ، تُوسِعُ للقِطّةِ مَكانها قُرْبَ المِدفأة، تلوبُ في الشوارعِ بحثاً عن فِكرةٍ جديدةٍ للوحة تُدفِئُ الربيع القادم وقصص الغياب .

لا ظِلَّ لها في دمشق بعد اليوم، لا نوم يقف على الباب كالشحاذ .

يقظة تُسلّطُ موج البحر على ظل الانفراجات المتأتية من عمق الروح، الوحدة لسان العمى الذي ستقطعه لترى القادم .

تخرج من البيت لتحفر قبراً للقَهر، لون واحد يكفي، جدارُ القلبِ .. يتلاشى .

قلبٌ بين حناياها .. يموء بعزفٍ منفرد .

تفرد الطرق صفحاتها لكي تُتلى الكلمات على وقع الحزن الشريد .

تطلق روحها في وجه الريح، حكايات الصبح باردة، والانتظارُ يَبَاسٌ أجَّلَ تُرابَ صرختها عن قبضةِ النار .

كان رأسها يعجُّ هو الآخر بصخب الوداع .

تسير في سوق الحميدية فتلتقط عيناها الصور الأخيرة قبل الوداع، كسائح فاجأته أوراق الروزنامة بموعد سفره .

تشتري الهدايا لمن ينتظرونها في ماليزيا وتعود إلى البيت، لتضع قرب الباب أصيصاً من الحبق، كيما يغني السلام لدرب روحها المسافرة، تطأ الصالة بحذر، يتراءى لها أن البيت فارغ سوى من قطة مُسترخية على الأريكة، تتنهد بعمق، تلوب بين غرف البيت، تفكر بما انتهت إليه وبما يتجاوز حدود ذاتها .

أيُّ قَدَرٍ سوف يُبعدها عن وطن سيتسبَّب لها البُعْدَ عنه بإحداث تغيير مؤلم في ملامحها، ليهرع، فيقشّر بشرتها وينزعها، غير آبه بما سيحدثه من نزيف، أحسَّتْ بالعجز عن فعل شيء، يخضّبها أسى الفراق بحنينٍ هارب ليتشبَّث في جسد دمشق، لماذا يحتّم الطلاق أن تقطع حبل السرة ؟ هل يعتبر مبرراً قوياً لذلك ؟!

تسافر القمصان بعد أن تترك العنوان لإياب يهزّه الخوف من الغياب .

تضع لوحة " النكران " في حقيبة قماشية ضمَّتْ كل لوحاتها، يرنُّ هاتفها .. تترك ألوانها، تطلق تنهيدة من عمق روحها، ترسم مع الصوت لوحة جديدة .

- ما الذي يبقيكِ حتى الآن في سورية ؟ ألم ينتهي أشرف من إجراءات الطلاق بعد ؟

لم يمهلها لترد على تحيته، بدا قلقاً عليها، طمأنته فما اهتدى لما رمت إليه، قال لها غاضباً :

- سوف أتصل بأخي ليجبره على إنهاء الإجراءات سريعاً .
- صدّقني يا أبي، لا سلطان لأحد على أشرف، ولكن اطمئن فقد أكَّدتُ عليه أن يعجّل بما يتوجب اتخاذه من إجراءات .
- بإمكانك العودة، وكّلي محامياً على الفور .
- أبي، لا أستطيع السفر قبل أن أنال حقي في حضانة عروة و ورد، كي يتسنى لهما السفر معي .

أنهت حديثها معه، أمسكت بكتيب أليخاندرو لتقرأ :

" الحُبُّ .. لُغَةُ الرَّبِ التي سَيُحَدِّثُكُمْ بها أيُّها المُغتربونَ في الحياة " .

آديت ... في المطار تنهي إجراءات ختم جواز سفرها .

سمية وعاصم، مي و جبران كانوا في وداعها .

بدت مي مُكفهِرّة الوجه، لا مشاعر مُتَّقدة تعتمل في صدرها، لم يتحقق لوداعها لآديت أن يوقظ أية عاطفة لديها تجاه من هو غائب .. أشرف .

في مَهبِّ الدموع المنهمرة مع احتضانها لسمية، كانت ترى دمشق أمام عينيها، حدَّثتها بتأثر بالغ :

- حينَ أغتربُ عن دمشق، أشعرُ أنَّ السماء فقدتْ صَوابَها، تَضمُّها رُوحي بِنُورِ خَافقي حتى في الغياب .

التفتت نحو الشاشة التي تبين حركة الطائرات المغادرة، توجَّهتْ إليهم جميعاً، قالت لهم :

- أنتظر الرسائل منكم . أرجوكم .

في تلك اللحظة، حضر أليخاندرو على عجل ليودّعها، ابتسم قائلاً لها :

- سأسافر في غضون يومين .

استعادت صورة المطار يوم وصلت إلى دمشق يحدوها الشوق، انهمرتْ دمعة من عينها عندما ودَّعتهم، بهدوء تقدَّم منها أليخاندرو، بين راحتيه رفعت رأسها، أمعن في عينيها وقال :

- لماذا تبكين ؟

مسح عينيها بظاهر كفّه، وبحركة عذبة دغدغ شفتيها :

- هيا ابتسمي .

ابتسم وقال :

- لن أطيل المكوث في بلدي، ستريني أمامك قريباً في ماليزيا .

قرأتْ حروف وجده مُنسابةً كغدير من عينيه حين دسَّ لها بطاقة صغيرة في يدها وطلب منها أن تقرأها بعد تحليق الطائرة، تأكد لها ذلك مما كتب :

" استعيري قلبي، وانظُري بعينِ يمامته، أخجلُ مِنَ الصبحِ إنْ لم أُقبِّلْ عينيكِ بابتسامة " .

شعور مختلف ينتاب الإنسان عندما يُحلِّق فوق السحاب، قطعاً صغيرة تبدو المدن، تكاد تختفي بالكامل، الإنسان على سطح الأرض لا يشبه نفسه عندما يغدو في السماء، إنه يرى الحيز الحقيقي الذي يشغله أي مخلوق على سطح الأرض في هذا الكون، ربما يطغى الخوف من وقوع أي حادث فتنتابه الحقيقة كحادث عرضي، وما إن يهبط، فإنه يستعيد ما نحّاه جانباً أثناء تحليقه، يعاود السير بخيلاء ليبعث الشعور بعظمته فيمن يحيطون به، ليتناسى الحقيقة .

خاطبتْ بلادها مِنْ عَلٍ والفؤادُ يرفرف بين الضلوع، كتبت في دفترها الصغير:

يا مُرصَّعةً في خُنْصرِكِ بوَضْحِ السَّماء، وأنا الناهورُ أمرُّ بجَبينكِ ذي النور، تُسْعِفُني باصِرتي في جَذْبِ أسبابِ الهوى، وما للهوى مِنْ سَببٍ لنشوبِ الشوق في

تاجِ الرسيس، نادميني أيا بلادي وقبّليني، عانقي ابتسامةً في خِضَمِّ ثَغْرِي، يا حُسْنَ اختيارِكْ، يا دائي الحبيب .

حَالُ غَيمها المسترخي في سماء دمشق .. كقلبها، تهطالُ حُروفها يُكثِّفُ حَنينها ليوسعَ الدرب، وفاؤها لنبضِ الياسمينِ في تُرْبة الروح بحر، ملونةٌ كانت حُروفها التي خطَّتها في دفترها الصغير .
كم جميل أن تحدِّثك السماء بما في صدرك، فترى الشمس تشرق من عين لم تجهلها يوماً، وترى ما كان خلفك، أمامك، إن كان ثمة من رفع غربالة لتسكن إليه وحده، فليأوي إلى ظلِّه المُخترَق .
أفكار كثيرة تناهبتها فيما يمر من الوقت، لديها متسع منه بعد، فكَّرتْ بمستقبل عروة و ورد من دون أب، باغتها عروة بقوله :

- ماما .. رح أشتاق كتير للشام، حتى للزبالة بالشوارع .

فكَّرتْ بأهلها الذين سيستقبلونها في المطار، وثبت صورة أليخاندرو في لحظة وداعه لها، أسبلت آن تذكرت وعده لها بأنهما سوف يلتقيان مُجدَّداً، أخرجت دفتره من محفظتها الجلدية وقلَّبت صفحاته، كان عروة يرنو إليه حين توقفت عند صفحة كتب فيها :

" من قلب الحزن تولد الرؤى الحالمة المجدّدة للحياة، من وسط المآسي ينبض الإحساس بفرح قادم، فقط .. احرص على تلقُّفِ الومضة لتصل النور، حلّقْ لتبدع أكثر " .
كانت لحظات فريدة تلك التي جمعتها بعائلتها، تحلَّقوا حولها، رأت الفرحة في عيونهم، عندما ضمَّتْ والدتها بكتْ بتأثُّر شديد، شعرتْ أن حياة المرء من دون الأم غربة، كما هو اغترابها الآن عن دمشق، هل هو القدر الذي يحتم عليها أن

تحيا في غربة دائمة ؟ أم أنه يبدو الآن لطيفاً معها عندما أنهى لها غربتها عن نفسها ؟ .

احتضنتْ أمها بقوة وبالكاد استطاعت أن تهمس في أذنها :

- أرجوكِ .. لا تُبكيني أكثر من ذلك يا أمي .

عندما جابت السيارة شوارع كوالالمبور مُتَّجهةً صوب بيت العائلة الكبير، استردَّتْ صورة دمشق التي ستفتقدها كثيراً، شعرت بالحنين إلى كل ما هو غائب عنها، صفعتْ الغربة بموجٍ عينيها، لن تكثر من الملح في وجبة الغياب، تذكَّرتْ أليخاندرو عندما كان يُصوّر لها عشقه لدمشق بكلمات من نور، عبَّر لها كيف يَستبدُّ به الشوق ليعيده إليها في كل عام .

مُذْ كانت تعيش في كوالالمبور قبل عودتها إلى دمشق وزواجها من أشرف، كانت تجد فيها مُتنفَّسَاً لها، عادت لتمر بأحيائها القديمة التي تذكّرها الآن بأحياء وحارات دمشق القديمة، سوف تستعيض عن الغياب بتلمُّس جدران البيوت في حاراتها المكتنزة بعبق يشبه إلى حد بعيد عبق دمشق الساحر، لكن من المؤكد أن أكثر ما تعشقه في دمشق وما ستفتقده في كوالالمبور لن تجد له أثراً فيها، الياسمين .. فما للياسمين من وطن إلا في تراب دمشق .

كثيراً ما كانت ترقب حالتها وسط أزقة كوالالمبور كيما تدرك سبب تعلُّقها بهذا المكان، أهو بسبب غناها بالأحياء القديمة أم لطيب أهلها رغم واقع معيشتهم البائس ؟ لم تستطع تحديد السبب بدقة .

كانت كوالالمبور مدينة لا تنام كدمشق تماماً، المحال التجارية فيها مشرعة أبوابها على الدوام، حركة الناس والباعة المنتشرين على الأرصفة في كل مكان، المقاهي

التي يصدح منها عبق الشرق وأغاني أم كلثوم والموسيقى العربية، كثيراً ما كانت تنساق وراء أغنية فتدخل المقهى لتسمعها ومن ثم لتكمل عملها وتعود حزينة إلى بيتها .

كانت عائلتها قد انتقلت للعيش في kuah بعد أن اشترى والدها منتجعاً فيها أسماه Berjaya أرادت أن تعيد ذكرياتها في كوالالمبور قبل عودتها مع عائلتها إلى kuah فأمضوا جميعاً بضعة أيام لتعود معهم وتعمل في المنتجع، وقد تولَّتْ رئاسة قسم الدعاية والإعلان .

يوم وصولها إلى kuah راجعت بريدها الإلكتروني، تفاجأت برسالة من أليخاندرو .. وقد كتب لها :

I will not speak to you in arabic now . I have decided to come to Malaysia. I'm hoping your father will allow me to enter into business with him in Berjaya, but more importantly, I want to be with you . I can't live without you.

I need you to tell me one thing before I depart... What is your ring size my dear?

With all my love. Andrew

الترجمة :

" لن أتحدث إليك الآن بالعربية، لقد قررت الحضور إلى ماليزيا حيث تقيمين وتعملين في Berjaya سأشارك والدك في رأسمال هذا المنتجع، وسأطلب يدك منه، لن أنسى شراء خاتم الزواج قبل حضوري، ولكن أخبريني .. كم هو مقاس إصبعك عزيزتي ؟

قبلاتي لك - المحب أليخاندرو "

أعطتها رسالته إحساساً عذباً وحزيناً بالماضي، كانت الأضواء تنبعث من سلسلة الفنادق الممتدة على طول ساحل kuah ومن موقعها في زاوية المنتجع المسترخي على أطراف الجزيرة، رنت نحو المدى المفتوح أمامها، لا حاجز يفصلها الآن عن الوصول إلى روحها التي تتوق إلى تحقيق الحلم المفقود .

تقف آديت على الشرفة، ترى العالم يضيق على ثوابت الانفراج .
هل ستخذلها الحياة مرة أخرى ؟ هل ستقصم ظهرها بعدما حطَّتِ السماء في قلبها ؟
للأمكنة روائح .. تغيب ثم تعود، كما البشر .. يغيبون ومن ثم يرجعون .
وتبقى النظرات بصمات فوق الجدران والأماكن، يبقى أثر للعطر المندمج مع أريج الروح .
تبقى مسامات الكلمة مفتوحة على هدير أصوات تسكن الريح، يرجع الصدى ليحييها من جديد .

obeikandl.com

تمَّت

رواية اسبرانزا

لـ

نضال كرم

obeikandl.com